

الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين

مفتاح المعرفة

وكنوز العرفان الإسلامي

كنوز المعرفة

للدخول إلى عالم العرفان الإسلامي

ويشمل
الجزء الأول والجزء الثاني
لكتابينا
مفتاح المعرفة

الجزء الأول

المحتويات للجزء الأول

11	• بين يدي الكتاب
----	------------------------

الفصل الأول

لمن تعطى المقاليد

- 21 مفتاح المعرفة •
- من مفاتيح المعرفة الإيمان •
- 53 بما نزل على محمد (ص) •
- 58 روح القرآن : الدعوة إلى الله •
- 79 الدماغ - الزيتونة أو المفاعل النووي المعجز •
- 83 روعة الإنسان بين العقل والنفس والدماغ •
- 85 حقيقة الإدراك من الذرة إلى المجرة •
- 87 الإنسان مثلث النفس •

الفصل الثاني

أطراف الجنة في الحياة الدنيا

- 91 سلطنا الله على ما في الكون •
- أقوى من المركبات الفضائية وأقوى •
- 93 من الصواريخ •
- 95 إنسان حضارة اليوم ، طغى في الميزان •
- 104 هل يعدم القرآني فاعلية المفاتيح •

الفصل الثالث

لباس التقوى

- 113 اللباس إثنان : مادي ونوراني •

الفصل الرابع

- 125 من هم أصدقاؤك •

الفصل الخامس

- ماء السماء 135
- من أصول المعرفة : اليقين بإدارة الله للكون وما فيه 137
- الكون حيٌّ عاقلٌ : 145

الفصل السادس

- { .. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ } 149
- إنما يخشى الله من عباده العلماء 151
- فماذا في السماء ؟ 152
- شمس بعيدة عن الأرض ملايين السنين : 155

الفصل السابع

- أهمية القائد عند الله 161
- كما تكونون يُولَّى عليكم 163

الفصل الثامن

- أالله خير أمّا يشركون ؟ 173

الفصل التاسع

- فهم الوجود : بين موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام 179

المحتويات للجزء الثاني

- ما لا يقبله القرآن 196

الفصل الأول

- هل الأنبياء كائنون في الدنيا أحياء بعد موتهم ؟! 201

الفصل الثاني

- هل المحبة والرحمة تعليم إلهي لجميع ما خلق الله؟! 209
- تناقض يحسمه القرآن الكريم 212

الفصل الثالث

- بين المقهى وملعب كرة القدم 229
- بين اللعب العبثي والرياضة المفيدة 234

الفصل الرابع

- دروس حوزوية تزور القرآن 239

الفصل الخامس

- إخلع نعليك 247
- ماذا قيل في النعلين ؟ 253
- الحزن بين الخاصة والعامة 255
- بين أبطال كربلاء وأبطال مؤتة 258
- بين الغضب المقدس وغير المقدس 262
- دفاعاً عن معرفة الله 269

- تناقضات في كتاب :
هل نرى الله 275

- هذا نور ما يرى فأين نور
ما لا يرى 289

- ما الهيولى؟!
وما الفناء في ذات الله المقدسة؟! 298

الفصل السادس

- يدبر الأمر من السماء إلى الأرض 305
- بين العرفان التقليدي والعرفان العملي 307
- نموذج عن العرفان الإلهي في التشريع 309
- يدبر الأمر من السماء إلى الأرض
- - طبعاً - مروراً بأمريكا 319
- حقائق إلهية تحكم الوقائع 321
- أميركا المقهورة المعذبة 326
- أفغانستان
- بين أميركا وطالبان وقوات التحالف الشمالي 334
- بين حضارة طالبان وحضارة أميركا وحلفائها 337
- القيامة على الأبواب .. لمحات
- عن العالم في ظل آيات 340

بين يدي الكتاب

منذ فتح الله جلّ شأنه ، عينيّ وقلبي وعقلي ، على حب الإطلاع ، وتتبع ذخائر تراثنا العربي والإسلامي ، وأنا أزداد إعجاباً ونشوة وفخراً ، بهذا التراث الزاخر بالعلوم والفتوحات الفكرية ، والإبتكار في كل علم وفي كل فن .

ولاحظت أكثر ما لاحظت ، كتب التاريخ وكثرتها - رغم بعض الطعون في أكثرها - وكذلك كتب السيرة النبوية المباركة ، وغيرها من السير ، من الخلفاء الذين اتفق على تسميتهم بالراشدين ، إلى سير القادة العسكريين والسياسيين والأئمة الميامين .

كذلك كتب المفاضلة بين المذاهب ، وأئمة المذاهب ، والشيع وكثرة الشيع ، التي اندثر أكثرها ، وما بقي منها إلا اسمائها المنسية والقابعة في زوايا كتب التاريخ ذات الإختصاص .

ثم الأهم من ذلك كله ، كتب تفسير القرآن الكريم ، وهي على كثرتها وعظم أهميتها ، وضخامة بعضها ، وحتى فنون تبويبها ، والحرص الشديد على تعظيم القرآن وحفظه وضبط قراءاته ، والدقة الرائعة في توخي المحافظة على كل نقطة وكل حركة ، فضلاً عن المشهور في القراءات وتعداد القراءات ، وحصر الشاذ منها ، وصولاً حتى إلى مدارس تجويد القرآن والإهتمام بأدق أجزاءه وجزئياته .

ثم ، مجلدات الحديث ، كالصحيح المشهورة الستة والتي هي عبارة من عشرات المجلدات ، كذلك أحاديث الأربعين ، حيث نجد منها ربما المئات ، لولا أن بعضها يستقطبه التشابه والتكرار .

ويقابل الصحاح ، كتب الرواية عن الأئمة الأطهار مثل الكافي للكليني والبحار للمجلسي ، وهي كتب تشمل عشرات المجلدات ، وغيرها وغيرها لعلماء أقطاب أمثال الشهيد الأول والشهيد الثاني والحر العاملي ، والمحقق الكركي ، والشيخ البهائي وأسماء كثيرة منيرة ومستنيرة قد نحتاج لحصرها إلى كتاب كبير ولا سيما في مجال الفقه والإجتihad والاستنباط لأحكام الشريعة من مصادرها ، إلى رسالات المراجع وتصنيفاتهم ، ولو كان أكثرها في قضايا الفقه في مجالي العبادات والمعاملات .

إلا أن هذه الكتب بمعظمها ، شديدة التشابه ، ولولا علم أصول الفقه قد يجوز لغير العارفين بفنون الإجتihad والاستنباط أن يقولوا إن هذه الكتب والمصنفات يقلد بعضها بعضاً .

وعلى كل حال ، تبقى الحقيقة القائمة هي كون هذه الكتب التي هي بالمئات ، يمكن اليوم لكمبيوتر مجهز ببرنامج للفرز وإسقاط المكرر ، والمقلد ، والمتشابه ، أن يحصر فقهاء كله بكتاب من عدة مجلدات للخاصة ، وبكتيب عادي للعامة ، مما يسهل على الفريقين كثيراً من التعقيد الذي بدون طائل .

حتى بحار المجلسي رضوان الله عليه على كثرة أجزاءها وضخامتها قد اختصرت بما سمي " سفينة البحار " حيث تحاشى فيه مجرد التكرار والعنونات ، فجاء هذا المختصر ، ليقول فيه من يقرأه : ما أجله وما أجمله .

بقي أن نسأل : هل فقهاء الإسلام ، الذي لم يطبّق ، هو بهذه الضخامة وبهذا التعقيد في اجتهاد الكتب المكررة . والتي لاحظنا أنها تكاد تفرض على طالب العلم فريضة . في الوقت الذي يعاني فيه الفكر الإسلامي الحوزوي من نقصين أساسيين :

— الأول: تعلّم وتعليم روح القرآن .

— والثاني: تتبع العلوم الحديثة ، وممارسة ما يمكن منها.

وكذلك هذان النقصان ، هما حاصلان بشكل عام ، عند أكثر الكتاب المتأخرين ، الذين ما زالوا يأخذون عن المبتكرين الأوائل ، وما زالوا يراوحون مكانهم بطرق التحليل والتعليل والمواضيع إيّاها ، مع بعض الفساد في اللغة والصياغة ليزيد الطين بلة .

نقول هذا ، ونستدرك احتراماً لبعض النّيرين ، الذين هم في مواقع القيادة لهذه الأمة المباركة ، والذين ما زالوا يكتبون مجددّين ومبتكرين ، ومجاهدين على أكثر من صعيد ، ولكنهم في الحقيقة قلة قليلة جداً بالنسبة لما هو مطلوب عدداً ونوعية في المجالين الأنفي الذكر : روح القرآن والإنخراط في الحداثة . وكذلك في مجالات أخرى تكاد تكون فريضة ، في شن حرب على البدع وعلى روح الوثنية ، ولزوم تبني واعتماد الأسلوب الذي يصدم ليوّظ ، وليصدم العامة وبعض من يعتقدون أو يعتقد فيهم أنهم من الخاصة ، أي من العلماء الحقيقيين وما هم كذلك . وما أكثرهم شكلاً ، وما أفقرهم علماً وعدالة .

ورد في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .
سورة السجدة الآية ٢٢ } .

وفي القرآن الكريم آيات الله المكتوبة المنزلة وحيّاً على قلب رسول الله محمد (ص) فالقرآن كله آيات ألزم الله المسلمين بتذكرها وتدبرها والعمل بها .

يعني باختصار ، ألزم الله الأمة كلها بالقرآن الكريم ، هذا بشكل عام ، وألزم القياديين فيها إلزاماً أشد بشكل خاص .

أما التشدد على القياديين ، فلأنهم لو لم يكن الله قد أعطاهم وميزهم بطاقات ومواهب ومقدرات عقلية ونفسية وبدنية أكثر من غيرهم من عامة الناس ، لما استطاعوا أن يكونوا قياديين . وحيث أن الله سبحانه { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا.. سورة الطلاق

الآية ٧ { فلذلك جاء تكليف القياديين خاصة أكلف وأكثر تحمياً للمسؤولية أمام الله وأمام عباده ، في الدنيا وفي الآخرة .

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . سورة الأحزاب الآية ٧ } .

وهنا نقطتان : الأولى أنه سبحانه أخذ من الأنبياء ميثاقاً غليظاً بشكل عام لأنه سبحانه هو نبيهم وجهزهم بمستلزمات الثبات والتحدي والتصدي لأنواع الكفر والبدع . وبشكل خاص كان الميثاق الغليظ أكد من رسول الله محمد (ص) ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عليهم السلام حيث أنه سبحانه خاطب محمداً (ص) مباشرة وسمى زملاءه الباقين ولم يسم غيرهم .

وأما النقطة الثانية المستفادة ، فهي أنه "على قدر أهل العزم تأتي العزائم" كذلك من كان من الناس قد آتاه الله قدرات وميزات ومواهب أكثر من عامة أقرانه في عصره ومجتمعه ، فهو مطالب أمام الله بمقادير ما وهبه وأعطاه . وهنا أول ما يخطر بالبال الكتاب الموهوبون ، والمفكرون ، والشعراء ، والرسامون ، وكل من أوتي موهبة شريفة أصلاً ، فهؤلاء جميعاً مطالبون أمام الله تعالى بنسب ما أعطاهم سبحانه :

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . سورة الزلزلة الآيات (٧ - ٨) } .

وقد يكون أبلغ الموثيق وأكدها بعد الأنبياء والرسول ، هي على العلماء المتصدين لحمل الدين وتبليغه من مواقع القيادة والموعظة ، قولاً وكتابة إلى الناس ، في كل عصر وفي كل جيل وزمان ومكان .

يعني سيكون أصحاب المواهب أكثر الناس مسؤولية أمام الله ، وبالتالي سيكون سبحانه أكثر تشدداً عليهم .

كذلك سيكون العلماء أكثر أصحاب المواهب مسؤولية ، وبالتالي سيكون سبحانه أكثر تشدداً عليهم من بين جميع الخلق بعد الرسول والأنبياء والذين عصمهم الله سبحانه عن الخطأ والزلل .

فلا يفرحن متعمم بعمامته ولا يزھون بقيافته ، ولا يطمئنن إلى كونه يتصدر المجالس ويُنحني له إجلالاً وإكباراً ، إذا كان فاجر القلب ، صياد مواقف ومصالح وصدقات . فإن ربك لبالمرصاد ، له أكثر من غيره من عامة خلق الله . وكونه متصدياً لدين رب العالمين ، ينبغي أن يكون ربيب هذا الدين ، فتىً لله عز وعلا ، تابعاً له سبحانه ، عبر أنبيائه ورسله وأوليائه ، وكتبه التي لخصها الله تعالى وزاد عليها ، وجعل خلاصتها والزيادة في كتاب ، ليس على وجه الأرض وتحت السماء كتاباً أصدق منه وأكمل منه وأغنى منه وأعلى منه شأنًا ، في تعليمه وتشريعہ وكنوزه المفتوحة ، وكنوزه المغلقة بانتظار الفاتحين ، وأسراره ، وأدبه وتربيته للسالكين والناجين والإنس والجن أجمعين . ذلك هو القرآن الكريم :

{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . سورة الواقعة الآيات (٧٧ - ٨٠) } .

أما مسُّ القرآن هنا فيعني إدراك روحه وحقائقه وكشف كنوزه وبلوغ أسرارہ ، نهلاً نهلاً ، ثم عباً عباً ، ثم استنارة ثم إضاءة :

{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم الآية ٨ } .

و { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } في الدنيا قبل الآخرة : { .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } . هؤلاء الذين آمنوا مع النبي (ص) وأمثالهم في التاريخ ، إذا أكمل الله عليهم نورهم ، طهرهم به ، فيصبحون أهلاً لمسِّ القرآن في شغافه ، وبيان حروفه وثنائا آياته ، متنقلين من عباراته إلى إشاراتہ إلى معانيه إلى حقائقه العليا التي فيه ، والتي إليها يشير في عالمي الغيب والشهادة بإذن الله .

من هنا روح القرآن ومن هنا الابتكار .

أما روح القرآن ، فهي باختصار شديد الدعوة إلى الله .

وأما الابتكار ، فهو عدم اجترار المعاني المستهلكة ، وعدم تكرار التفاسير التقليدية المبتوثة في مئات الكتب . والتي لا يعيد الكتابة فيها إلا فاشل أو تاجر أو سارق أفكار . وهؤلاء ظلمانيون .

الابتكار ، أولاً هو تنظيف وعاء التلقي ، ووعاء التلقي هو القلب ، وهذا لا يلهمه الله سبحانه إلا إذا استنار بنوره ، وهاجر إليه يريد قربة ، ولا يلتفت لشيء دونه من مكاسب الدنيا حتى ولا الآخرة . طبعاً وإذا جعل هذا القلب كله لله لا يشاركه فيه أحد سبحانه .

فإذا لم يطهر القلب ويتهيأ لتلقي الإلهام الكريم من الله جلّت عظمتة ، فلا يتصدّق للقرآن بحثاً وتنقيباً ، وصيد لآلئ ، لأنه لن يرى من اللآلئ إلا أصدافها ، ويزيد الأمر سوءاً إذا كان من غلف القلوب .

وثانياً من أراد الابتكار كتابة ، فليجعل من القرآن الكريم ساحة جهاده : ساحة جهاد قلبه وعقله ، وسمعه وبصره ، ولا يتخطاه ، إلا قليلاً ما ، ولضرورات ، مثل الإستئناس بأحاديث أو روايات صحيحة ، وأهم شرط في صحتها أن يقبلها هذا القرآن المجيد .

والابتكار ثالثاً : أن ينظر إلى الكون بمنظار القرآن : في العلوم الإنسانية ، في الفلسفة وعلم الاجتماع ، وعلم الإقتصاد الذي هو رزق الله لعباده ، والسياسة والأخلاق . ثم في الفلك ، ثم النظريات العلمية الظنية . ثم فيما يعلم الله لعباده في مجالات التكنولوجيا والعلوم النووية ، وثورة الاتصالات ، والأشعة وأنواعها وفاعليتها في الأنفس والأبدان والجراحة ، والطبابة ، والعلم بشكل عام .

ولا تنتهي حقول العلم ومواضيع البشر في حياتهم على صعيد الأفراد أو المجتمعات أو هذا الكون الفسيح ، العميق بكنوزه وأسراره . ويظل القرآن هو المرصد لجميع هذا الخلق ، في البر والبحر والجو والسموات العلى .

وجُلّ مسار العالم ، أن يستنبط ، غادياً من روح القرآن ، أي الدعوة إلى الله ، ماراً بالكاشف النوراني ، في جزئيات وأفراد وتجمعات هذا الخلق العظيم راجعاً إلى روح القرآن : داعياً إلى واسع الرحمة عظيم المغفرة ، محذراً من غضباته ونقماته ، التي لا يقوم لها شيء ، لا في مفاجبات الخزي في الدنيا ، ولا في الشقاء الأبدي في الآخرة .

{ .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. . سورة الحج الآية ٤٠ } .

أما في أنصار الله فقولهُ سبحانه :

{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة السجدة الآية ١٧ } .

من هنا ، فإن منهاج بحثنا ، بإذن الله تعالى ، سيكون ، كما كان في كتابينا السابقين " العقل الاسلامي " و " دعوة إلى الله " انطلاقاً من القرآن الكريم متوكلاً على الله وحده لا شريك له ، مهتدياً بهديه ، مستنيراً بنوره ، داعياً إلى التظلل بظله وحده ، وإلى الإستنارة بنوره وحده ، والاستنصار بقوته وحده ، والاعتزاز بعزته وحده .

اللهم وإنني أسألك المزيد من كل خير أحاط به علمك ، لي ولجميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها ، وإنهاضاً لهذه الأمة ، ونصراً مؤزراً لها ، وأنت سبحانك قد قلت في أهلها :

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. . سورة آل عمران الآية ١١٠ } .

فيا ربنا الحبيب ، يا لا إله إلا أنت ، يا حي يا قيوم ، أنت السميع وأنت البصير وأنت على كل شيء قدير :

{ .. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . سورة البقرة الآية ٢٨٦ } .

عبد الكريم آل شمس الدين
عربصاليم – لبنان الجنوبي

الفصل الأول

لمن تُعطى المقاليد

{ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الشورى (١١-١٢) . }

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مفتاح المعرفة

قيل لرسول الله (ص) كيف عرفت الله ، قال : بالله عرفت الله .

المعرفة في هذا العصر ، قضية خلاف بين السماويين والأرضيين ، وسيستمر حولها الجدل بين الفلاسفة وعامة أهل الفكر ، من حيث تعريفها وتحديد عناصرها ، ومضامينها .

وكوننا مسلمين ، أهل دين منزل ، بكتاب منزل ، على نبي مرسل ، فنحن أحقُّ الناس بالتعامل مع هذا الموضوع ، موضوع المعرفة ، تعاملًا واعياً لا لبس فيه ولا شك ولا تعقيد .

المعرفة بالمنظور الإسلامي :

=====

المعرفة هي مجموع الحقائق التي يحتاج الإنسان إلى التألف معها ، ليجد نفسه ، مستقراً ، نفسياً وبدنياً ، وبالتالي حياتياً وأبدياً .

والحقائق العليا هي المطلب الأعلى .

وهذه الحقائق العليا يستحيل التوصل إليها دائماً بالتجارب ، سقوطاً وارتفاعاً ووصولاً وفشلاً ، ولو بعد آلاف الأجيال من عمر البشرية . لسبب واحد ، هو أن الكون الذي أمام الإنسان معظمه مغلق ، أو غائب عن حسه وبصره ، وضمناً عن أدواته وأرقامه واختراعاته . يعلم ذلك الإنسان العادي ، ويؤكد أفذاذ العلماء في مخابرهم ومراصدهم ، وأجهزتهم التي هي على مستوى الإنسان المحدود ، مذهلة ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لما هو مذهب أكثر منها ، وبلا قياس : الكون المرئي ، والفلك المرصود ، وسياسة المجرات الهائلة المعقدة على سبيل المثال ، فكيف بالنسبة لما هو غير مرئي .

أما عن التجربة في مجال الكشف العلمي والبناء العلمي ، فهي من أجمل الضرورات وأجلها وفي الضرورات جمال وجلال .

وأما عنها في مجال الغيب ، غيب ما فوق السماء الظاهرة ، وحتى غيب ما في النفس البشرية ، ثم الأهم الأعظم بلا قياس ، غيب علام الغيوب ، المتقن لهذا الكون المحكم ، شكلاً واتساعاً وجمالاً ، والمحكم روحاً وأسراراً وجلالاً . فإن التجربة لا تؤتي علماً ولا فهماً . قال تبارك وتعالى :

{ الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. سورة البقرة الآيات (١-٢-٣) }

فـ **{ الم }** مفتاح من مفاتيح المعرفة ، من مفاتيح الكتاب ، أي القرآن الكريم ، والقرآن الكريم كون يفهم به الكون الخارجي ، والعكس صحيح ، أي كذلك يفهم القرآن الكريم بدراسة الكون الخارجي ، شكلاً وروحاً ، فـ **{ الم }** كذلك من مفاتيح السماوات والأرض . وهذا أمر يمكن التوصل إليه حتى بالتجربة . وقد سبق أن جرّب ذلك الدكتور رشاد خليفة المصري ، الذي كتب في ذلك دراسة حول هذا الموضوع ، يوم كان مبعوثاً في الأمم المتحدة . ولعلها أول دراسة عن القرآن استعمل فيها الكمبيوتر .

وقوله تعالى : **{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }** أي لا شك فيه منزلاً يقيناً من لدن رب العالمين وفيه من المعارف عن الحقائق العليا الكثير الوافي والكافي شهد الله بذلك ، وشهد أولوا العلم منذ أربعة عشر قرناً وما زالوا يشهدون وكفى بالله شهيداً . وكذلك **{ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }** وكونه **{ هُدًى }** و**{ لِّلْمُتَّقِينَ }** هذا أمر حاصل بالتجربة . كما إنه بالتجربة حصل اليقين بأنه **{ لَا رَيْبَ فِيهِ }** . أما سبب الثناء على هؤلاء المتقين ، وهو قوله تعالى : **{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. }** هو هذا الباب الأعظم من أبواب المعرفة ، أنهم يؤمنون بالغيب ، وبدون هذا الباب تبقى المعرفة ناقصة ، وقد يتزايد هذا النقص مع الغرور العلمي التكنولوجي ، وينعكس سلباً على أصحابه ، قال تعالى : **{**

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . سورة التين الآيات ٤ و ٥ و ٦ { .

وفي قوله تعالى : { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } . إعلام يتضمن مدحاً ، أو مدح يتضمن إعلاماً ، مفاده أن الإيمان بالغيب وإقامة الصلوة ، هما ركنا الهداية الأساسيان . أما الغيب ، ففي مقدمته غيبه هو سبحانه ، أي احتجابه عن خلقه ، وذلك لأسباب أهمها أن خلقه لا يتحملون مواجهة نوره الذاتي : { وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . سورة الأعراف الآية ١٤٣ { .

وأما الصلوة فهي لاستمرار الصلة به سبحانه من قبل عبادته ، وذلك لإدامة تلقفهم الفيض من نوره وعطاءاته ونعمه ، هداية وسداداً ورشاداً ورعاية للأنفس والأبدان ، ولجوءاً إليه من آفات الدهر وآفات الفقر في الدين والدنيا . وبدون هذه الصلة أو الصلوة يحصل الإنقطاع . كمثل انقطاع التيار الكهربائي أو انطفاء السراج : فالله يُعرض بنوره وعزته وجلاله وكبريائه ، والإنسان يقع في الكارثة : في ظلامه وضلاله وضياعه ، بمجرد الإعراض عن ربه وعن آياته وكتبه . قوله تبارك وتعالى :

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ - سورة محمد آية ١١ } . ومعنى { مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا } أي كافلهم وضامنهم وكافيتهم وشافيتهم ومشرفهم بإحدى الحسنين النصر أو الشهادة .

فإذا كنت تسترزق الله وحده ، وتخافه وحده ، وتحبُّه الحب الأعظم وحده ، ولا تظن ألوهة في غيره ، تولاك الله سبحانه ، أي رعاك وحفظك وأجارك ، ورزقك علماً وعملاً ، وكفاك شر ما يرى وما لا يرى ، وكلما زاد ولاؤك لربك ، زادت رعايته سبحانه لك ، حتي ليصبح سمعك الذي تسمع به وبصرِكَ الذي تبصر به وحتى يدك التي تبتطش بها : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . سورة الأنفال آية ١٧ } .

أما قوله تعالى : { وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ } أي لا ولاية لهم من قبل الله سبحانه أي لا رعاية ولا حصانة ، ولا حفظ ، يكلهم لأنفسهم وللمن يتولون هم من خلقه ، ومن يتولَّ المخلوقين من دون الله ، يخذله الله ، ولا يبالي به في أي وادٍ هلك . لذلك نرى الأمراض النفسية والبدنية تستشري على مستوى العالم رغم التقدم المزعم للطب النفسي والعصوي ، ونجد كثرة من أنواع الشياطين تعبت بأجسام الناس وتحير الطب والدواء والمختبرات ،

وهي بين الميكروب والفيروس وأنواع الإيدز والسرطان ، وقائمة المستجدات الفتاكة طويلة ، حتى إنها أخذت تهدد الإنسان من داخل غذائه ، ولا سيما من الأبقار البريطانية المجنونة ، وهي تصدر إلى بلاد العالم بأعداد وفيرة . وقضية التأثير العضوي بما يأكل الإنسان ويشرب ، قضية علمية متفق على صحتها .

فإذا لم يكن هناك حصانة من الله ، فالكوارث واقعة لا محالة ويكفي استعراض أعداد المرضى في المستشفيات التي أصبحت بهم مزدحمة ، واستعراض أمراضهم ، ثم أعداد الموتى المتزايدة بهذه الأمراض .

وهل حصانة الله للمؤمن ، تجنبه هذه الكوارث ؟ يقيناً تجنبه ، ويقيناً تحفظه ويقيناً ترفع منزلته عند ربه وعند الناس وفي منجاة من الشياطين مما دق وصغر أو كبر وعظم . قال تبارك وتعالى :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَافْصَحْ الْقُصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآيات (١٧٥ - ١٧٦) } . فهذه الآية الكريمة من المعارف العالية ، عن الحصانة ، وعن ماهية الحصانة ، وكيفية الحصانة ، ضد الشياطين ، ما دق من أنواع الميكروب والفيروس وما عظم من أنواع ما يرى من البشر وما لا يرى من غير البشر .

تلزم نفسك بآيات الله ، توقن بها ، تعتمد عليها عملياً ، فأنت في حصانة ، وكل ذي قوة شريرة في خوف منك أو في شغل عنك . وأنت في رضى من الله تعالى ، يعني في عافية . لولا بعض العقوبات أو البلاءات للمؤمنين التي هي دائماً في مصلحتهم ، سواء كانت عقوبة بعدها الراحة والفرج ، أو كانت امتحاناً بغية النجاح ورفع الدرجة .

أما إذا انسلخت من الآيات ، يعني صددت عنها وأعرضت ، أو استهزأت بها وكفرت ، وهي تدعوك لرحمة الله ورأفته ورعايته وعنايته وحفظه ، فأنت مكابر ، وأنت مستكبر ، وأنت كما قال الله في الآية العظيمة ، فراجع الآية وتمعن بمعانيها ، لعلك ترجع من الآية معافى ، فتعود إنساناً سوياً .

من أراد مفاتيح المعرفة ، فليصدق مع الله ، يؤته إياها ، أو يؤته منها : { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الشورى آية ١٢ } .

وفي معنى الآية : له مفاتيح السماوات والأرض ، فمقاليد جمع مقلاد وهو المفتاح والسماوات والأرض مجمل الكون جملة وتفصيلاً . و { يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ } أي يُكْثِرُ ويُقِلُّ من كل عطاء فيه خير ومنفعة ومصلحة وحق وجمال ، والمعرفة من جملة الرزق : معرفة الحقائق ، الفصل بين ما هو حق وبين ما هو باطل ، بين ما هو ضار وبين ما هو نافع ، بين ما هو محيٍ وبين ما هو قاتل . وفي خانتَي الثواب والعقاب : التعليم من الله عز وجل والتقريب إليه ، أو الإبعاد عنه انتقاماً ومقتاً . قال تبارك وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . سورة غافر آية ١٠ } .

تقرب إلى الله ، يتقرب إليك ، أدعه تجده قريباً مجيباً ، ادع غيره يعرض الله عنك ويكلك إليه ، والغير فقير ضعيف عند الله ولو كان جبريل أو كان رسولاً نبياً ، أو إماماً ولياً . قوله تبارك وتعالى : { .. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . سورة فاطر الآيات (١٣ - ١٤) } .

أو قوله تبارك وتعالى : { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . سورة الجن الآيات (١٨ - ٢٢) } .

والآيات مشرقات المعاني واضحات ، لولا كلمة { قِطْمِيرٍ } ومعناها ذلك العرق الأبيض الذي في شق النواة ، نواة التمر ، دلالة على أن المخلوقين لا يملكون حتى أقل وأرخص الموجودات . وكذلك أبسط الإمكانات ، فمن كان لا يملك القوة ولا يملك السيطرة على أنواع الرزق ، فكيف يجيب أو يلبي إذا دعاه أحد مستجداً أو مستغيثاً أو مسترزقاً .

أما مجموعة آيات سورة الجن فيزيد فيها عن المنع الواضح والحاسم عن دعاء غير الله . قوله لرسوله محمد (ص) : { قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } . فموجب مجموع هذه الآيات ، إن محمداً (ص) لا يملك من قطمير في مجال الرزق ولا يملك القوة لينفع أو يضر ، فالمالك لكل ذلك هو الله وحده ، وناصية محمد بيده ، وكذلك نواصي جميع خلقه . فمن أين إذن قدرة محمد على التبليغ ، وعلى الصبر ، وعلى الجهاد الأروع في سبيل مولاه رب العالمين ؟ كل ذلك من الله تبارك وتعالى . إسمع قوله سبحانه له (ص) :

{ وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَاكَ لَفَدَّتْ وَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا . سورة الإسراء آية ٧٤ } .

وكذلك قوله تعالى له :

{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَخْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . سورة الزمر آية ٦٥ } .

وهكذا صنع الله محمداً (ص) وأعلاه ونصره بعد أن جعله يقود أعظم ثورة في تاريخ البشرية على الظلم والفساد وألوان الكفر وألوان الشرك في التاريخ العالمي .

رباه وبناه هذا البناء المحكم الفذ ، وعرفه الحقائق الناصعة في نفسه وفي ربه سبحانه ، وفي الخلق وفي الكون ، ومدحه ، قال سبحانه يثبته :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . سورة القلم الآيات (١ - ٤) } .

وهل يكون الإنسان على هذا الأساس ، فقط أداة للتلقي ، لا يملك حتى الاختيار والأهلية لأن يكون شيئاً مهماً أو لا يكون ؟!

نعمة التخيير من مفاتيح المعرفة :
=====

لنسمع عن الاستعداد الشخصي ، وعن ضرورة أن يكون الإنسان مختاراً ، وعن مدى ما يترتب على الاختيار والاعتقاد والبذل من أهمية ، قوله تبارك وتعالى :

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . سورة الليل الآيات ٥ - ١٠ } .

فقضية الاختيار الشخصي ، والاعتقاد بعد التفكير والتأمل ، وبلا إكراه ، والأهلية الأخلاقية من حيث البخل والكرم ، والتصديق بالنفس الطيبة ، أو التكذيب ولؤم السجية ، وما يترتب على ذلك من جزاء هو التيسير بلوغاً إلى أعلى درجات الفلاح ، أو التعسير هبوطاً إلى الدرك الأسفل من النار نجد كل ذلك في ثنايا كلمات هذه الآيات .

ومن وجوه معانيها كمفاتيح للمعرفة :

{ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ } أي من ماله وجهده ووقته في سبيل الله ، حباً وتكرماً ، **{ وَاتَّقَى }** أي على رجاء وتخوفٍ من تقبله سبحانه أو إعراضه ، إضافة إلى الحرص على الاستقامة وعدم التلبس بمعصية ، والمداومة على الذكر ، والتوبة النصوح في حال الذنوب . ثم أضاف إلى هذا ، العلم والفهم ولا سيما في معرفة الله سبحانه وذلك هو معنى **{ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى }** أي بأسماء الله الحسنى وأمثاله العليا وما تتضمن هذه الأسماء من معاني تستقطب الكون ونشاطاته والإنسان ومعطياته وأسراره التي فيه وفي محيطه ، وفي ماضيه ومستقبله . هذا النموذج ، يجزيه الله سبحانه بمقدار ما نوى وما عمل أحسن الجزاء ، بدءاً بإصلاح نفسه ، مروراً بتيسير أموره في الحياة الدنيا ، وصولاً إلى **{ الْيُسْرَى }** النهائية في الآخرة ، بين الزحزحة عن النار ، وبين عليين وسدرة المنتهى .

وأما من بخل بكل مكرمة ، وأعرض عن الله وعن آياته وكلماته ، واستقل أو استغنى عن الله تعالى معتمداً على قوته وعلى القوى المزعومة الأخرى ، مكذباً ، جانحاً إلى الغر والمكر والخديعة ، أو إلى الكفر والعناد ، فجزاؤه أن يمهد له الله سبحانه الدرب إلى .. الهاوية ، بعد ضلال وضياع في الحياة الدنيا ونكبات .

ونعمة التخيير ، هي سبب التفاوت في العزم بين المؤمنين ، وبين الأنبياء وأصحاب الرسالات ، ويكفي لفهم مدى أثرها وأثر المبادرات الشخصية ، في طاعة الله جل شأنه ، أن نتذكر قول الله تعالى في أبينا آدم عليه السلام :

{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً . سورة طه آية ١١٥ } .

أما أعظم مفاتيح المعرفة على الإطلاق فهو الاستشعار الدائم بقوة حضور الله سبحانه . وهذا الأمر يجهله أكثر الناس ولا سيما المشتغلين بالتبليغ أو أي نوع من أنواع الدعوة إلى الله تعالى ، أو الجهاد في سبيله . وللإلمام بشيء من معنى قوة حضوره سبحانه ، يجب اللجوء إلى بعض مفاتيح المعرفة التمهيدية لهذا الأمر ، ولعل أهمها قوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد آية ٣ } .

هو أي الله عزت وعظمته ، الأول ، لا قبل قبله ، فمن استطاع أن يثبت قبل الله شيئاً أو أحداً فليقدمه للبشرية . وقد فعل ذلك بعض علماء الفيزياء في كلام عن المادة ، إلا أن السؤال : ومن خلق المادة ، هوّن من شأنهم وأثبت عجزهم . أما عن وجود أحد ، فلا بد أن يكون خالق الخلق ولا خالق غير الله ، ومعروفة عند أهل المنطق والفلسفة قضية الدور

والتسلسل وبطلانهما ، ولن ندخل في ذلك لاستغنائنا بالدليل من كتاب الله المجيد : قوله تعالى:

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . سورة الرعد آية ١٦ } .

ربّ من يقول هذا استشهاد بكلام الله ، وفي الناس من لا يؤمن أصلاً بالله ، أو أنه يؤمن بالله ولا يؤمن بكتبه ، أو يؤمن ببعض كتبه ولا يؤمن بهذا القرآن .

أما القول في من لا يؤمن بالله ، فهو مدان بقول الله عز وجل : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . سورة الأعراف الآيات (١٧٢ - ١٧٣) } .

أما الإيمان بالله وعدم الإيمان بكتبه ، فكذلك هو نوع من الكفر بقدره الله على إرسال الرسالات مع رسل من الناس ، ففي نفس الوقت إيمان وكفر هو إيمان أخرق ، والإيمان بآله غير قادر ، هو والكفر الأصلي سواء . وأما الإيمان بالله وكتبه ما عدا القرآن الكريم ، فهو كامل الشبه بمن يؤمن بالله ولا يؤمن بجميع كتبه ، أي هو كفر بقدره الله على إنزال كتاب خاتم للكتب مصدق بها مهيم عليها ، على رسول خاتم للنبيين ، خاطبه الله تعالى بقوله : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . سورة المائدة آية ٤٨ } .

أما من لا يؤمن بالله أصلاً ، فلا يضرُّ أجيال البشرية ولا أعلامها الذين هم ذوا بات التاريخ وحججه من أنبياء وأولياء وعباقره وعلماء في كل سبيل من سبل السماوات والأرض كما ولا يضر حتى الذين يؤمنون إيمان العجائز بفطرتهم السليمة وقلوبهم الذكية الطيبة . أما أولئك الذين لا يؤمنون بالله سبحانه ، فقد قال هو فيهم جلّ في كبريائه :

{ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . سورة الشورى آية ١٦ }

ورجوعاً إلى آية سورة الحديد { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ .. } ، أما قوله تعالى { وَالْآخِرُ } أي الأبدى السرمدي ، الذي لا شيء بعده ولا أحد إلا هو سبحانه ، مهيمناً على الكون وما فيه جملة وتفصيلاً ، محيطاً بكل شيء جملة وتفصيلاً . وأما قوله تبارك وتعالى : { وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ } فهذه هي التي من يفهمها يكون الله قد أفرغ عليه صاعاً من نوره ، ومن عمل بها يكون قد أفرغ عليه صاعاً آخر ، ومن لزمها يكون قد استجاب سبحانه دعاءه الذي علمنا إياه : { رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم الآية ٨ } .

ونحن وباللغة الممكنة سنحاول أن نساهم في استظهارها واستبطانها بقدر ما يؤتينا الله تعالى من نوره : { .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير . ولقد تكلمنا وقد نتكلم غالباً بصيغة الجمع ، فقط لكون الإنسان له عدة أنفس وليس هو نفساً واحدة ، ولذلك تفصيل من أراده فليطلبه من مظانه .

وباللغة الممكنة سأعرض موضوعاً أصبح معروفاً ومألوفاً تقريباً عن الذرة والتراكيب الذرية التي في الكون ، وسأعتبر عرضي لهذا الموضوع مداخلة نسبية تقريبية عن الظاهر والباطن المذكورين في الآية العظيمة الكريمة .

علمياً أصبح من الثوابت التي لا مجال فيها للشك ، أن جميع ما يقع تحت الحس أو البصر ، أو أية إمكانية من إمكانيات الرصد العلمي ، حتى الرصد العادي هو ذرِّيٌّ ، أو هو بشكلٍ أو بآخر تركيب ذري ، من أدق ما في الكون إلى أعظم ما فيه من أجرام في الأرض أو في السماء .

ولكي لا نقع في مشكلة وحدة الكون ، إنطلاقاً من الآية ، يجب أن نفصل فصلاً مسبقاً في أذهاننا بين المزج بين الله وخلقهِ فيما يسمى وحدة الكون ، وبين وحدانيته واستقلاله عن مخلوقاته استقلالاً أحدياً لا يشاركه فيه شيء ولا يشاركه فيه خلق . فمن يقول بوحدة الكون ، هو جاهل حتى في معاني الظاهر ، كبرياء الله وعزته وعظمته التي لا تحاول ولا تطاول ، ناهيك بجهله عن الفارق الذي يستحيل قياسه بين الله الذي لا إله إلا هو وبين خلقه.

فبين الآية الكريمة وبين المفهوم الذري علاقة تبدأ من جزيئات الذرة في بواطنها ، ما عرف منها وما يمكن أن يعرف بعد ، إلى أعظم الأجرام في الكون بما فيه السماوات والأرض ، سواء بلغها أو لم يبلغها الرصد البشري ، وسواء بلغها بالقوة أو بالفعل ، فيجب أن نوقن أنها محكومة بهذه الآية العظيمة : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية ٣ } وبالآيتين التاليتين حيث تعتبران من روافدها ، وهما قوله عز وجل : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . سورة الأنعام الآيات : (١٠٢ - ١٠٣) } وقوله سبحانه : { أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . سورة فصلت آية ٥٤ } .

الشاهد في الآية الأولى قوله تعالى : { .. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . } وهذا يعني استقلاله تعالى في خلق الأشياء وكذلك استقلاله بكفائتها وتدبيرها . والشاهد في الآية الثانية قوله تعالى : { إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . } والإحاطة ، تعني تفاصيل الباطن والظاهر ، لأن كل جزيء من الشيء هو شيء كذلك ، وهكذا تكون إحاطته بالأشياء إحاطة المراقب الفاعل في بواطن الأجزاء وظواهرها وفي كلياتها ، لا يفوته منها من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . قوله تبارك وتعالى : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . سورة يونس آية ٦١ } .

ومما يساعد كذلك في تفسير الآية التي نحن بصددتها التي هي : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ .. } الآية التي بعدها مباشرة ، وفيها قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . سورة الحديد آية ٤ } .

هذه المعاني التي واكبتها حول آية سورة الحديد ، تؤكد قوة حضور الله وإحاطته وإشرافه على الكون والإنسان والجن والملائكة وجميع ما خلق سبحانه ، حضوراً وإحاطة وإشرافاً ظاهراً وباطناً يتناسب مع عظمته وجبروته وكبريائه من جهة ، ومن جهة ثانية مع درجات الشرف في أصل خلقته للناس وبقية الخلق ، ثم كذلك في تحولاتهم .

ولفهم ذلك بشكل أوضح نذكر قوله تعالى : { **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . سورة التحريم آية ٤ } .

وهو قول موجه حسب السياق لامرأتين من أزواج النبي (ص) هذا حسب الظاهر والتفسير المتداول ، وهو ممكن وصحيح ، إلا أنه حسب الباطن والحقيقة فهو موجه للقلوب : الإنس والجن ، ومفتاح التأويل فيه ، قوله تعالى : { **قُلُوبُكُمَا** } وهي بصيغة الجمع ، والقلوب تكون لأكثر من اثنين أو اثنتين ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فإن الخطاب يتناسب أكثر فأكثر مع هذين المجموعين من الخلق ، ربطاً بقدره الله وهيمته سبحانه وهكذا فإن هذا التدريج في قوله تعالى : { **هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** } هو حجة على ما قلناه عن التناسب في قوة حضوره سبحانه وإحاطته وإشرافه على خلقه . بسبب جلاله وكبريائه ، ولولا ذلك لكان تولى كذلك هو سبحانه الأمور التي يوليها لجبريل ثم حسب الأهمية لصالح المؤمنين والملائكة على درجاتهم . فإنه على كل شيء قدير ، وهو سبحانه ليس بحاجة لأحد من خلقه ، وفي جميع أصنافهم ومستوياتهم .

حتى إن هناك أمور وأشياء يربأ بأن يعهد بها حتى لهؤلاء المكرمين من خلقه : جبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، فهو يوظف لها أصنافاً من الشياطين تحت سلطة القهر والقوانين التي تمسك بنواصيرهم ، وتحت الرقابة الشديدة وجهوزية العقوبات لمن يتلصق منهم أو يزيغ عن أمر الله جلّت قدرته . نستفيد هذه المعاني وأكثر منها من قوله تعالى في سياق عرضه لملك سليمان وما آتاه سبحانه من عجائب التسخير في شتى الميادين :

{ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** .. سورة الأنبياء الآيات (٨١ - ٨٢) } .

فعبارة { **وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ** } فيها إشارة إلى أنه سبحانه يعهد إلى الشياطين قاهراً ، مطاعاً ، حافظاً لهم وحافظاً منهم ، بأمور وأعمال وأشياء ينزه عنها كرام خلقه .

أما قول رسول الله (ص) : " بالله عرفت الله " . فهو كذلك أول وأعظم مفاتيح المعرفة . وإنما للتوصل إليه ، ينبغي في البداية الإذعان مختاراً ، بعد تأمل وتفكر ، هما أبرز شيم الإنسان ، وهما اللتان تميزانه على أنه إنسان عاقل ، وإذا أهمل الإنسان هاتين الشيمتين ، كان إنساناً غير عاقل .

فالإيمان بالله تعالى ، هو الإذعان لوجوده اعتماداً على آثار عظمته ، وهو إيمان غيبي بالنسبة لقدسية ذاته واحتجابه عن الأبصار ، ثم هو التصديق بما يصدر عنه سبحانه من إرسال رسل وإنزال تعاليم . قال تبارك وتعالى :

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة التغابن آية ١١ } .

التفكير والتأمل من مفاتيح المعرفة :

=====

قال سبحانه عن التفكير والتأمل مشيراً إلى كونهما من المفاتيح الأساسية للإيمان والمعارف ، وكذلك إلى كونهما الميزتين الأصليتين لأولي الألباب ، أي الناس العقلاء :

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . سورة آل عمران الآيات (١٩٠ - ١٩٤) } .

في الحقيقة ، إن في هذه الآيات الأربع ، للتفكير والتأمل ، ثروة معارف . فأولاً قرر سبحانه أن آثار عظمته وعجائب خلقه التي يسميها آيات ، لا يفهمها إلا العقلاء ، أي أولوا الألباب . وهؤلاء إنما كانوا عقلاء بذكرهم الله عز وجل سواء بقلوبهم أو ألسنتهم . وما داموا يذكرون الله ، فإن الله سيذكرهم بأحسن من ذكرهم ، بأن يفتح لهم بالمفاتيح التي يسرها لهم أبواب السماوات والأرض ، فيرون ببصائرهم من خلال التأمل والتفكير والاستنتاج ، كما بأم العين : حقائق فيها القيامة والحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار . كما ويسمعون نداء المنادي من أعماق قلوبهم وكذلك من أعماق الكون : أن آمنوا بربكم ، فيؤمنون ، ويجأرون إلى الله سبحانه بالدعاء ، رهبة وخشية من الحقائق التي يدركونها وأكثرها حقائق غيبية ، وإنما لها قوة الحضور ، وقوة المعاينة ، وكثيراً ما تكون المعاينة بالعقل أقوى وأثبت من المعاينة بالعين (*) ، وهذا أمر قد ثبت علمياً وبالتجربة بالنسبة لما يسمى خداع البصر ، أو عمى الألوان ، أو سرعة أو بطء الحركة أمام العين مما يؤثر على نسبية ضبط الحقيقة بالنسبة للمرئيات . أما الحجج

والبراهين العقلية التي يتوصل إليها بالتفكير والتأمل ، لا سيما في مواجهة هذا الكون الهائل في اتساعه وعمقه وأبعاده ، وجماله وإتقانه ، ودقة ضبطه ودورانه ، ثم قصور الإنسان . رغم كل تقدمه ، عن إدراك اليسير اليسير من ظواهره فضلاً عن غيوبه وبواطنه ، فتكون حاسمة تطمئن إليها النفس أكثر من اطمئنانها للعين المجردة .

أما قوله تبارك وتعالى على لسان العقلاء ، أولي الأبواب : { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ . سورة آل عمران الآية ١٩٣ } . سمع هذا النداء رسول الله (ص) من جبرائيل قرآناً ، ثم أسمعته للخلق آياتٍ وحججاً هي على الأعناق . فأما أولوا الأبواب فيقولون آمناً ، وأما من لم يؤمن فهو قد تخلى عن عقله ، ورهن نفسه بالطواغيت ، حتى لتغدو النفس كذلك طاغوتاً . كلما ابتعدت عن العقل الحقيقي ثم عن الله تبارك وتعالى . وذلك في قوله عز وجل ، وهو من مفاتيح المعارف الكبرى :

{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة (٢٥٦ - ٢٥٧) } .

لا حجة للإنسان على ربه سبحانه وتعالى ، فقد خلقه مخيراً في قبول ربه وحبه بعد استعراض نعمه ، وبعد أن هداه وناداه بكل صوت ونغم ، من حنجرة الكنار أو البلبل إلى صوت الرعد وأصوات القذائف الصاروخية ، إلى أصوات عالية فوق مستوى سمعه إذا سمعها تفجّر دماغه ، مثل صوت دوران الأرض أو اندفاعها واندفاع أقرانها في الفضاء ، ولكن الإنسان علم هذا الصوت بما علمه الله ، فكذلك كان عليه حجة مع ما

(*) انظر (الصورة الإبصارية في العقل والدماغ) مجلة العلوم - المجلد ١٠ العدد ٥ مايو / أيار ١٩٩٤م .
يسمع من الأصوات .

وناداه بكل منطق ، نادى سمعه وكذلك نادى بصره وجميع أحاسيسه ، وفوق كل ذلك نادى عقله .

فعلام الصمم وعلام العمى وعلام الموت ، والسمع متاح والبصر متاح والحياة متاحة .

{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. } .

هذا القرار " اللاإكراه " هو على الإنسان حجة بالغة ، فهو في نفس الوقت تكريم له حيث لا يقاد بالغريزة قود من دونه من القردة وأنواع المسوخ وبقية أنواع الحيوان . كَرَّمَهُ اللهُ عَزَّتْ عِزَّتُهُ ، وسخر له ما في السماوات والأرض جميعاً منه . قوله تبارك وتعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا . سورة الإسراء آية ٧٠ } .

وقوله عز وجل : { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الجاثية آية ١٣ } .

ولنلاحظ قوله تعالى في آخر هذه الآية : { .. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } وفي القرآن الكريم تتكرر كلمة { يَتَفَكَّرُونَ } بلفظها أحد عشر مرة سوى مشتقاتها ، ومثلها تقريباً { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } أو { يَعْقِلُونَ } ومشتقاتها ، وهذا غير العبارات والألفاظ التي تدعو إلى التدبر والنظر والتأمل ، وهي جميعاً متقاربة المعاني . وعلى هذا الأساس نعود للتدبر قوله عز وجل :

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة الآية ٢٥٧ } .

ولفهم هذه الآية كفاية نستأنس بقوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . سورة الشمس الآيات (٧ - ١٠) } فنجد أن النور والظلام أرادهما الله تعالى رمزاً للخير والشر والصلاح والطلاح والحق والباطل والفجور والتقوى وغير ذلك من الأضداد التي خلق الله عليها هذا العالم ، ذلك كله إضافة إلى الحقيقة التي تعني عينية النور وعينية الظلام . وقد خلق الله مصاديق لهذين الضدين . سواء على سبيل الأصالة كالليل والنهار أو على سبيل الإمكان والتحول كما هي الحال في الإنسان .

وعلى هذا الأساس ، نجد أن هذه المتناقضات جميعها ، تتعاور الإنسان في حياته ، فهو يتعرض دائماً لمواجهات نورانية أحياناً وظلمانية أحياناً أخرى ، تتراوح بين الرمز والحقيقة . هنا يتضح التركيب الرائع للآية الكريمة : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. } فكلما أخرجهم من ظلام أبدلهم مكانه نوراً ، يضاف إلى نور

متاح ، وهكذا تتناقض مساحات الظلام بالنسبة لتدرج المؤمن في إيمانه ، ثم في تقربه ، ثم في يقينه ، إلى حين وصوله . حتى تنعدم ظلمات النفس فتصبح النفس نورانية مشرقة ، ويستمر الأمر كذلك إلى يوم القيامة ، حيث يبدو أنه يسود على الناس ظلام دامس ، فمن كان من المؤمنين لم يستكمل نوره في الدنيا ، فيدعو كما ذكر الله تعالى : { رَبَّنَا أْتِمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفُ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . سورة التحريم الآية ٨ . وهنا يشرق أكثر فأكثر معنى الآية الكريمة قوله جلَّ شأنه : { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ } . سورة الحديد الآيات (١٣ - ١٤) .

كما ويتضح الشطر الآخر من الآية والذي هو قوله تعالى :

{ .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } . سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

فكما أقبل المؤمنون على مساحات النور ، وتلافوا مساحات الظلام ، فأعانهم الله على ذلك وزادهم نوراً وهدى . كذلك ، ولكن بعكسهم أقبل الطاغوتيون على مساحات الظلام وتكبروا لنور الله ، لآياته وطاعته وتعاليمه ، فأصبح مثلهم كما قال سبحانه فيهم :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَاءً حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } . سورة النور الآيات (٣٩ - ٤٠) .

وفي نفس منهجية الأمر بالتفكر ، ينبغي التوقف أمام قوله تعالى : { .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ .. } مقابل قوله تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ .. } . فالله عز وجل ليس هو الذي يضل ويربك أحداً من خلقه إذا اختار هذا المخلوق ربّه وهدايته وطاعته ، إن الذي يضيّع الإنسان وقد يمزقه ويحرقه مؤبداً في الآخرة ، وقد يحصل له ذلك في الدنيا والآخرة ، هو طاغوته ، أو طواغيته ، وقد يكون طاغوته نفسه الأمّارة ، فضلاً عن كثرة الطواغيت في ترادف المجتمعات البشرية ، متمثلة في مراكز القوى التي غالباً ما يكون بيدها السلطان الدنيوي :

الحكومات ، الأثرياء ، المتنفيين ، اللصوص القانونيين ، أعني المشرعين لأنفسهم ولأتباعهم قوانين تبيح لهم سرقة الناس وإفقارهم ومنع حقوقهم والإثراء غير المشروع ، وبناء القصور على القبور ، ولا سيما قبور الضعفاء الذين لا يتقنون فن السقوط مع الساقطين ، من المافيات المحلية أو العالمية .

طلاب الدنيا هؤلاء يخرجهم طواغيتهم من النور المتاح إلى ظلمات الجهل والكفر والطمع والبهيمية ، ولو كانوا يحملون أعلى الشهادات التي تمنحها الجامعات الصهيونية أو المبطنة بالصهيونية . هؤلاء يتخلّى عنهم الله سبحانه ويمقتهم . ويتخلّى عنهم ومقتة لهم يصبحون بلا هادٍ ولا معين ، ولا مرشد ولا نصير .

ولأنه ممنوع عليهم حتى أن يضلّوا بدون إذنه سبحانه ، وممنوع عليهم أن يتخذوا قراراً قبل قراره ، أو حكماً قبل حكمه ، لذلك تسبقهم مشيئته ، فيضلّهم ويتركهم في ظلماتهم يتزاحمون . ذلك معنى قوله تعالى : ﴿ .. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ . سورة الزمر الآيات (٣٦ - ٣٧) ﴾ . وهي معادلة إلهية منطقية على الفريقين : طلبة النور الذين ينصرهم الله ، وطلبة الظلام الذين يخذلهم الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

الصدق والتصديق من مفاتيح المعرفة :

=====

جاء في لسان العرب لابن منظور : صَدَقَ : الصَّدَق نقيض الكذب ، صدق يصدق صَدَقاً وَصِدْقاً وَتَصَدَّقاً : وَصَدَّقَهُ : قبل قوله . وَصَدَّقَهُ الحديث : أنبأ بالصدق . وفي التنزيل : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي مبالغة في الصدق والتصديق .

وفي معاني الإيمان ، أنه التصديق بالله وبكلام الله والصدق في الإخلاص له سبحانه ، أي عدم خيانتة ، بإهمال قول من أقواله ، أو بالإصرار على ذنب أو على معصية . هذا بشكل عام ، ولكن لاستفادة أهم مفاتيح المعرفة في هذا الباب ، ينبغي التوقف عند الآيات القرآنية ، التي تستقطب معاني وموضوعات لفظتي الصدق والتصديق .

قال تبارك وتعالى في جملة استعراضه لعناصر الإيمان وشروطه لقبول صلاة المصلين : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ

رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ . سورة المعارج الآيات (٢٦ - ٣٥) { .

والتصديق بيوم الدين أو يوم الفصل أو يوم القيامة والحساب ، شرط أساسي قرآني يتوقف عليه تصنيف الناس بين مؤمن وكافر . فمن يشك في قيام الساعة وما يرافقها من حساب ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار ، يخرج من التصديق إلى الكذب ، حتى ولو كان يؤمن بالله تبارك وتعالى ، فشأنه شأن المشركين ، الذين يرفضون أخبار الله بواسطة كتبه ورسله . وقد ضرب سبحانه مثلاً على هذا الصنف من (المؤمنين) في سورة الكهف : رجلاً أتاه الله حرث الدنيا : حقائق ومالاً وأولاداً وجاهاً بين الناس وأنصاراً . أفصح عن معتقده ، وهو يحاور صاحباً له ، كما جاء في التنزيل العزيز :

{ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . سورة الكهف الآيات (٣٥ - ٣٨) { .

فالرجل في حالة شك وتردد ، فيما يتعلق بعقيدته ، غير مستقر في طاعته لربه ولا مصدق بكلام الله عن قيام الساعة ، وفناء الأرض ومن عليها ، وهو أعلن بصريح العبارة عن شكه بالقيامة بقوله : { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. } علماً أن الإجماع على القيامة في الكتب المنزلة أمر شائع ومعروف عند جميع الناس ، وهو في القرآن الكريم يتكرر ذكره عشرات المرات . وهذا سياق من السياقات التي يذكر فيها دمار الأرض ثم مصير الإنسان بعدها إما إلى عذاب محتوم أو إلى نعيم محتوم ، قوله تعالى في آخر سورة الفجر :

{ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا . يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات (٢١ - ٣٠) { .

والرجل الذي شكك بقيام الساعة ، خسر بتكذيبه الآيات ، وتكذيبه منطق التأمل في النفس والفطرة والكون ، ومنطق التأمل في أقوال الله ، ومن أصدق من الله قيلاً وأصدق حديثاً ، كفر وطمع فوق ضلالته ، بمزيد من العطاء والإنعام ، إذا قامت الساعة وردَّ إلى

ربه الذي يؤمن به على مزاجه وبحسب هواه ، قائلاً : { .. وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } .

هذا إنسان حَكَمَ الله عليه بالكفر وكذلك بالشرك على لسان صاحبه الذي رضي الله حكمه ، قال : { أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ... لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا } اما الكفر ، فهو برِّ قول الله عز وجل أو بتجاهله أو بعدم تصديقه . وواحد من هذه الأمور الثلاثة يكفي لهدم إيمان المرء وتخليده في العذاب ، وأما الشرك الذي يوصل إلى نفس النتيجة ، فهو إقحام رأيه الشخصي في الحكم على الأمور ، وكذلك الاستجابة لهوى نفسه . أما الخلاصة القرآنية الرائعة لهذه الواقعة - المثل ، فهي أن الرجل فوجيء يوماً بانهييار دنياه وآماله وأحلامه دفعة واحدة ، وذلك بخسران مواسمه وخسران ماله ، مع إشارات إلى أن هذه النكبة التي عوقب بها تستقطب دنياه وآخرته . ويعقب سبحانه على نكبة الرجل ، بهذه الكلمات التي هي خلاصة الخلاصة ، وعاقبة التجبر والثوق بغير الله من مراكز القوى الدنيوية ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا . سورة الكهف الآيات (٤٣ - ٤٤) } .

وصحيح أن التصديق باليوم الآخر ، أو قيام الساعة ، هو شرط أساسي لقبول الإيمان عند الله سبحانه . إلا أن هناك مقدمات واجبة من أنواع الصدق والتصديق ، تستقطب حياة الإنسان وعواطفه وأفكاره وأعماله ، فضلاً عن اعتقاده ومنهجيته المترتبة على هذا الاعتقاد .

من ذلك ، التصديق بأسماء الله الحسنى ، وبفاعلياتها ، لا سيما ما ذكر منها في القرآن الكريم تصريحاً ، أو ما خبيء في بعض آياته وفي أحرفه النورانية ، لغة عالم الملكوت . على أن الله سبحانه يكشف الغطاء عن العبارة وعن الإشارة ، ويبيدي ما يشاء من الحقائق ، لمن يشاء ويختار من عباده الأكثر صدقاً وتصديقاً . لكل بنسبة صفاته وإخلاصه ، وجهاده، والله أكرم ، والله أعلم وأحكم ، وهو أرحم الراحمين . قال تبارك وتعالى :

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . سورة الليل الآيات (٥ - ٦) } .

نذكر بهذه الآية كمثال على الواجب الإلزامي بمقدمات الصدق والتصديق ، بعد أن تعرضنا لها كفاية بفضل من الله أنفأ .

ولمدى أهمية الصدق في المواقف ، وفي المقدمات والحيثيات والنتائج فإن الله عز وجل ، تعليماً لرسوله (ص) ولكل مؤمن ومؤمنة ، ورحمة منه سبحانه ، قد أنزل إلينا في جملة روائع ما أنزل . هذا الدعاء : { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا . سورة الاسراء آية ٨٠ } في ظل إخطاره للجميع : { قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّيْ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُوْنُ لِرٰمًا . سورة الفرقان آية ٧٧ } . وهذا من مفاتيح المعرفة .

ومن مفاتيحها أيضاً في مجالات العرفان عامة وضمنها الصدق والتصديق ، وبصيغة الدعاء الذي جعله كذلك أسلوباً من أروع أساليب التعليم والتذكير ، قوله عز شأنه ، حديثاً عما دعا به عبده ورسوله إبراهيم (ع) :

{ رَبِّ هَبْ لِيْ حُكْمًا وَأَلْحِقْنِيْ بِالصّٰلِحِيْنَ . وَاجْعَلْ لِّيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِيْنَ . وَاجْعَلْنِيْ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيْمِ . وَاعْفُ عَنِّيْ لِأَنِّيْ كَانَ مِنَ الضّٰلِّيْنَ . وَلَا تُخْزِنِيْ يَوْمَ يُبْعَثُوْنَ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُوْنَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ . سورة الشعراء الآيات (٨٣ - ٨٩) } .

فمن وفقه الله سبحانه لمثل هذه المفاتيح من مفاتيح السماوات والأرض ، فيكون فضل الله عليه عظيماً . أولاً لأنها لغة القرآن ، يعني كلام الله بعزته وعظمته ، ومعلوم أن الفارق بين كلام الله جل شأنه وبين كلام المخلوقين ، هو كالفارق بينه سبحانه وبين المخلوقين ، أي فارق عظيم بغير قياس . وثانياً ، ولأن الكلام كلام الله فهو يختزن إضافة إلى المعاني الغزيرة المباركة ، أسراراً من الطاقات الفاعلة المحركة في ذات الداعي وفيما حوله ، نفعاً ودفعاً ، وشفاء ، وغير ذلك من المصالح التي هي نعم الله تعالى ، التي لا تعد ولا تحصى { .. وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. سورة إبراهيم الآية ٣٤ } .

وصفات هذا الكلام القرآني يستحيل أن تتوفر في كلام أي مخلوق ، مهما كانت درجة هذا المخلوق في نفسه وعند ربه . ذلك لأن المخلوق ، مهما عظم ومهما علم ، فإنه يبقى فقيراً إلى رحمة ربه ، محدوداً في ذاته ، محدوداً في صفاته وطاقاته .

فقله { وَاجْعَلْ لِّيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِيْنَ . سورة الشعراء الآية ٨٤ } أي في الناس وفي الجن والملائكة ، ابتداءً من تفضلك عليّ بالإيجاد أو بالإيجاب وإلى قيام الساعة وبعد قيام الساعة في الخالدين .

وقد ذكر سبحانه في كتابه المجيد ، أمثالاً من تفضله على أهل طاعته ، واستجابته لهم . فقد عقب بعد توصيف المخلصين من أوليائه بقوله عز من قائل : {

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا . سورة مريم الآية ٥٠ . وقوله تبارك وتعالى : { أَكَاثِرُ النَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ . سورة يونس الآية ٢ } . وقوله عز شأنه : { .. أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . سورة البقرة آية ١٧٧ } .

فقوله تعالى : { .. أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ .. } وقوله : { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا .. } يؤيدان إلى نفس المعنى والنتيجة ، فقد ورد كذلك { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ . سورة القمر الآية ٥٥ } وكل ذلك كناية عن قيمة الصدق في المواقف والإخلاص في الولاء والحب له سبحانه ، والثبات على الجهادين الأكبر والأصغر : مجاهدة النفس ومجاهدة أعداء الله . وبما أنه سبحانه له الأسماء الحسنى وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، فجزاؤه يتناسب مع كرمه ، وقدرته ورحمته ، لذلك هو يثبتهم ويزيدهم تثبيتاً ونصراً في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فبسبوغ النعم وإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وأما في الآخرة فالمستفاد من قوله عز وجل : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة السجدة آية ١٧ } .

فإذا كانت مفاتيح العرفان أو المعرفة ، تؤدي إلى مضامين هذه الآية الكريمة { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. } فكم هو جدير بالإنسان أن يحكم عقله ويفكر ويتأمل ليجد نفسه وبالضرورة ، أحرص ما يكون على أن يكون من أهل العرفان ، أي من أولياء الله الموحدين ، الناجين من كلا الشركين : الظاهر والخفي ، المتمسكين بكتاب الله وحبله المتين ، العاملين بآياته ، الواعظين أنفسهم وهم يشهدون هيجان طوفان الحضارة ، والأمواج المتلاطمة بالصراع على المكاسب والأموال والعقارات ، والتزاحم والتحاسد والتنازع حتى بين أدعياء الدين فضلاً عن الغافلين والمستذئبين .. وكتاب الله ينذرهم :

{ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . سورة الذاريات الآيات (٥٠ - ٥١) } أما وعده سبحانه الذي اتخذ أهل العرفان نهجاً وديناً فهو قوله : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . سورة القصص آية ٨٣ } .

إلا أنه دون الوصول إلى رضى الله ورضوانه ، وقبوله وحبه ، مخاطر ومحاذير ، وهو سبحانه قد نوّه بهذا في سورة يدل اسمها على خطورة مضامينها ، وعلى الشباك والفخاخ التي تنصبها للإنسان نفسه قبل كل شيء ، ثم شياطين الجن ثم شياطين الإنس ، والنفس هي الأدهى في الثلاثة ، وليس شياطين الإنس ، فهم غالباً تحت السمع والبصر وعامة الأحاسيس . وليس شياطين الجن ، ولو كان خفاؤهم يصعب الصراع معهم كما

يخيّل لغير القرآنيين ، ولكن من يعلم ولو القليل عن قوة حضور الله عز وجل مع الإنسان وقوة حضور ملائكته بإذنه ، ومدى رعب الشياطين من مجرد ذكر الله أو ذكر أي اسم من أسمائه الحسنى ، أو مجرد قراءة شيء من القرآن ، يطمئن بالاً على نفسه ومتعلقاته ، يدرك الحقيقة التي أثبتتها لنا الله سبحانه ، وهي قوله تعالى : { .. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . سورة النساء آية ٧٦ } .

وقد تكلمنا في فصل سابق عن الحصانة التي يحصّن الله بها عبده ووليّه ما دام ذاكراً شاكراً لربه متمسكاً بكتابه متدبراً آياته ، مقلعاً عن الذنوب والمعاصي ، تائباً منيباً والله يحب التوابين .

أما إذا كان من مصاديق الآيتين المخيفتين ، قوله عزّ شأنه : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآيات (١٧٥ - ١٧٦) } . فلا تنفعه شفاعة ولا فدية ، وكفى بالآيتين المخيفتين به تعريفاً .

أما السورة التي ذكرنا أنها تتضمن خطراً على المسافر إلى الله ومحاذير ، إذا هو سقط أو رسب في الامتحانات الدنيوية ، فتلك هي سورة العنكبوت .

وقبل أن أتناول الآية أو الآيات ذات الصلة بالموضوع ، أريد بإذنه تعالى ، من جهة أن أجلّ اعتقاداً عند العامة ، عن فوائد العنكبوت واستلطافهم لها . وهو بخلاف حقيقتها ، إذ أن حقيقتها تستدعي الذم ومن أصدق من الله قيلاً ومن أصدق من الله حديثاً ، حيث ذمّها ممثلاً بها أهل الشرك ، أسوأ الشرك ، الذين هم في لعنة الله وسخط الله وعاقبتهم عذاب الجحيم مخلدين فيه ، وذلك قوله جلّت قدرته : { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . سورة العنكبوت آية ٤١ } ولو كانوا يعلمون أبسط العلم عن العنكبوت وهو أنها تصطاد في شباكها في جملة ما تصطاد زوجها وأولادها ، وأكثر ضحاياها من الحشرات المفيدة والجميلة مثل النحل وأنواع الفراش . ومن جهة ثانية أن أردّ سبب اعتقادهم البريء بلطفها وربما بقديسيّتها ، وهو أنها - كما ثبت في الأخبار - نسجت على باب الغار الذي اختبأ فيه رسول الله وصاحبه أبو بكر الصديق ، نسيجاً سريعاً جعل المطاردين لرسول الله (ص) يحسمون أمرهم أنه لو كان دخل الغار أحد لكان هتك هذا النسيج العنكبوتي فرجعوا خائبين . وأنجى الله رسوله وصاحبه .

والمفارقة هنا ، هي أنهم جعلوا الفضل للعنكبوت ، أو أنهم جعلوا لها من الفضل شيئاً ، والحق أنه ليس لها من الفضل شيء ، إلا إذا كان للشياطين الذين سخرهم الله لسليمان يصنعون له ويبنون ويغوصون ويعملون عملاً دون ذلك ، مقهورين لا يملكون خياراً ، ويقول فيهم : **{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوُّهَا شَهَرٌ وَرَوَاحُهَا شَهَرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ .** سورة سبأ آية ١٢ } .

أما ما له صلة بالمخاطر والمحاذير التي تعترض المسافرين من أهل العرفان عبر الدرجات والمعارج ، إلى ربهم العظيم الحليم الكريم ، فهو مطلع السورة ، قوله تعالى : **{ الْم أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .** سورة العنكبوت الآيات (١ - ٣) } .

قبل أن أتناول بداية الآيات ، ألفت الانتباه إلى أن في قوله تعالى : **{ فَلَيَعْلَمَنَّ }** ثلاث قراءات : الأولى هي القراءة المتداولة ، أي لكي يعلم الله أي يحصل عنده العلم وسواء كان لها تخريج معنوي أو لا ، من حيث أنه سبحانه يعلم ما بين أيديهم ، وما خلفهم ، وما قبلهم وما بعدهم وما بين ذلك كله ، فإن القراءة الثانية والثالثة أولى من الأولى ، وهما : **{ فَلَيُعْلَمَنَّ }** الله ، بوجهيهما : تعليمهم العلم ووضع علامات عليهم تعرفهم بها ملائكة الله سبحانه . والثالثة **{ وَلَيُعْلَمَنَّ }** كذلك بوجهيهما : الإعلام أي إعطاء العلم والإعلام أي جعل المرء معلماً أي ذا علامة أو سمة . وهكذا عظمة القرآن وعمقه وغناه .

أما قوله تعالى : **{ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }** ففيها قراءة واحدة إضافة إلى القراءة المتداولة هي : **{ فَلَيُعْلَمَنَّ }** من وضع العلامة أو السمة ، وهذه تكون لتمييز الأشقياء والمجرمين بأنواعهم وأصنافهم من حيث الكفر أو الشرك أو النفاق أو الكذب . قال تعالى : **{ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ .** سورة الرحمن آية ٤١ } .

وقوله تعالى يفتنون ، هنا معناها يمتحنون بأنواع الامتحانات فيكون معنى الآية الكريمة ، أحسب الناس ، أي أظن الناس أن يتركوا على دعواهم في الإيمان ، أو على ادعائهم الإيمان ، دون أن تجري لهم امتحاناً بعد امتحان ، ويفتنون هنا من فتن الدرهم ، أي فركه بيده أو فتن الشيء في النار ليعلم معدنه . وهي من لطف الكلام تعبيراً عن أنواع البلاءات التي يعرض الله لها المؤمنين في تدرجهم إلى حبه ورضوانه . والحقيقة أن الصدق والتصديق في المسار ، هما المعيار الأساسي لإمكان الاستمرار بدون هفوات وسقطات كبيرة ، من قبل المؤمن المبتلى . على أن الله تعالى يعين على الصبر بلطفه وبتسديده ، ولا يترك عبده فريسة للظن أو الشك أو الارتباك ، إذا كان حزم أمره وعزم على الهجرة

إلى ربه الكريم من بيت نفسه المظلم ، إلى عالم آخر سرعان ما يتبين له اختلافه الشديد عن العالم الذي كان فيه .

على أن العالمين هذين لا يختلفان مكاناً ولا تركيباً من حيث ناسهم والأرض والبيوت والشوارع ، وإنما تختلف الرؤية والاحساس والمشاعر . ففي العالم العادي السابق على عزيمة السفر ، ظلمة في النفس وضيق ، وشعور بتفاهة كل ما يحيط بالإنسان من عادات الناس ، ومجالسهم وطموحاتهم ، وطرق تفكيرهم .. إلى العالم الآخر يسافر أو يهاجر ، فيختلف كل شيء ، حتى الصحبة ونوعية الصحبة ، ييسر الله لمحبه وقاصده ، صحاباً آخرين ، خلصاً ، يذكرون الله ، أصفياء أنقياء ، حتى ليعجب من وجودهم في المجتمع ، بعد إذ كان يظن الفساد والسطحية والعمى في جميع من يعاشر من الناس ، ولا سيما الطبقة التي تسمى مثقفة ، وهذه من المفارقات ، التي إنشأها الله ، نحاول أن نعقد لها فصلاً خاصاً بها تحت عنوان : لماذا الخلل في الطبقة المثقفة . طبعاً حسب العرف العادي والأكاديمي للمعرفة .

وينبغي أن نوضح أن ما نعنيه من كلمة السفر أو الهجرة ليس المقصود بهما الانتقال من مكان إلى مكان ، فقد يسافر الإنسان إلى ربه أو يهاجر قاصداً إياه سبحانه ، من مترٍ مربعٍ هو واقف فيه ، فيهاجر أو يسافر ويبقى في نفس المتر المربع الذي هو فيه . فالمعول في هذا السفر أو الهجرة ، على المعاني والتوجه النفسي والفكري ، والانخلاع تدريجياً أو دفعياً ، من دوائر الجذب والمسطحات الحضارية بمفهومها العرفي المبني على فقااعات الاعتقاد ، وعلى برامج هجينة في مجالات التعليم الأكاديمي ، ما زالت تمضي نزولاً إلى حضيض الكفر ونسيان مجد الله وعزة الله وحاكمية الله ، وهو سبحانه لها بالمرصاد ، فتكاً بالأمراض والحروب ورعونة الاستعمار المادي والفكري ، وابتذال التبعية للقوى الغاشمة في جميع أو في معظم أنحاء العالم ، إلا من رحم ربك .

وكل هذا يندرج على صعيد المجاميع الإنسانية والأفراد ، تحت رصد آيات سورة العنكبوت قوله تعالى : { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } . وهنا ، وعلين هذا الأساس ، وعملاً بالغنى القرآني ، يفهم معنى يفتنون أنه الابتلاء بالفتن ، مثل الحروب والويلات الاقتصادية والغلاء وأنواع الظلم والقهر من قبل طغاة العالم .

وعوداً إلى معنى السفر أو الهجرة ، أو حتى الرجوع إلى الله تبارك وتعالى ، نذكر بأن الله عز وجل لا يحده مكان ولا زمان ، ولنتأمل بهذا الصدد في قوله عزت عظمته : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } . سورة الزخرف آية ٨٤ { وقوله سبحانه : { .. وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . سورة الحديد آية ٤ {

وقوله عز شأنه : { .. مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ .. سورة المجادلة آية ٧ } ولنأخذ آية النفس المطمئنة نحاول بها أن نلقي الضوء على مفهوم السفر إلى الله أو الهجرة أو الرجوع إليه سبحانه . قوله تعالى : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات (٢٧ - ٣٠) } .

هذه الآية الكريمة لها مفهومان تستفاد منهما قضية المسافرين إلى الله : المفهوم الأول ، وعلى أساس أن تكون النفس مطمئنة أي صديقة يعني صادقة ومصدقة ، صادقة اليقين ، ثابتة على عهود الله ومواريثه ومصدقة بأنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه ووعدته ووعيده ، كمثل قوله تبارك وتعالى : { أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . سورة القصص آية ٦١ } ثم كانت مطمئنة إلى عملها وصلاحتها وإخلاصها لله عز وجل ولدينه ، تائبة منيية ، مشتاقة إلى ربها والحياة الآخرة . صابرة بالله ، واثقة به ، متوكلة عليه ... هذه النفس وبالمفهوم الأول للآية : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... } تدعى من قبل الله وهي في الحياة الدنيا تمارس نشاطها ولو في زهرة العمر وقمة الصبا والشباب ، تدعى إلى ربها : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . } فهو معك قريب رقيب وحافظ ومجيب ورحمان وراحم ، ودافع عنك ومدافع ، يرجع إليك لا تنسي ذكره وشكره والثقة به ، حاولي أن لا تنسيه ما دمت يقظة ، وإياك أن ترجعي إليه أو تلجئي إليه وأنت مضطربة ، إعتدي عليه واهدي ، وهدئي من انفعالك وتأزمك وغضباتك لغير الله ، هو الله سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد ، هو معكم أينما كنتم ، وعلى هذا الأساس أرجعي إليه راضية بحكمه وحكمه العدل ، وحكمه الرحمة للمسترحمين ، وحكمه الكرم لسائله ، وحكمه أن يمتحنك حتى يشتى البلاءات لتتجحي وتفوزي بالدرجات العلى ، في الدنيا ، وفي ما ينتظرك في الآخرة ، ولو وجدت في ذلك صعوبات ، فكوني بها راضية ، ولو عانيت من أوجاعٍ عارضة ، فكوني بها راضية ، ولو عانيت من بعض الحاجة ، إذا قدر عليك الرزق فكوني راضية ، لأنه هو سبحانه معك وهو حسبك ، وأي غنى أعظم من هذا الغنى الحاضر الناظر الجاهز للعون والغوث والإعزاز ، بوجود الله وحضور عزته ، اعتقدي بذلك ولن تشعري بجوع مع عدم الطعام ، ولن تحتاجي لمتاع أو أي ضرورة مع قلة المال ، { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ .. } سورة الزمر آية ٣٦ } وعلى هذه الأسس كذلك أرجعي إليه وتوجهي إلى وجهه الكريم القريب الحبيب { مَرْضِيَّةً } منه ، راضياً هو عنك ، استغفريه واسأليه العفو والعافية ، تجديه راضياً عنك فعودي إليه سبحانه ، أرجعي إليه ، وادخلي في عبادته في الحياة الدنيا ، عبادته الصالحين ، وعباده المخلصين ، ونعم الصحاب ، إذا كانوا ممن تصاحبين وأكثرين من قولك ، ومن القلب : الحمد لله رب العالمين .

أما المفهوم الثاني للآية الكريمة ، فهو المفهوم المتداول عرفاً وليس عرفاناً . وهو أن مفعول هذه الآية ومضامينها ، وخطابها ، إنما يكون بعد الموت . وهذا صحيح ، إلا أن اعتماده فقط يشكل بترأً للحقيقة ، التي فرضت في الآية ، أن تكون مستقطبة للحياتين : الدنيا والآخرة ، بفضلٍ ورحمةٍ وكرمٍ من ربنا الله رب العالمين .

وهكذا ينبغي أن نفهم أن مواكبته سبحانه للأنفس ، كذلك كما هي في الآخرة ، هي في الحياة الدنيا ، وهي ما بينهما ، وإنما على مستويات عزته وكبريائه ورحمته . ولكل مقام مقال . فهو في المفهوم الثاني ، وبقية المفاهيم وبدون حصر : { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . سورة غافر الآيات (١٥ - ١٦) } .

هكذا ، وبدون نفس مطمئنة ، لا يُنال رضى النفس ولا ينال رضى الله ، بل النقيضان اللذان يشكلان خسارة الأبد وندامة الأبد وعذاب الأبد ، وهما نزاع النفس بدون موت ، حالة من الإختناق المستمر أو الإحتراق المستمر - نعوذ بالله وبه نستجير - ، وغضب الله أو سخطه ، وذلك يعني الجحيم . { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ . سورة الأحقاف آية ١٩ } وبدون صدق وتصديق ، صدق مع الله سبحانه وتصديق لمضامين قرآنه المجيد ، فلا نفس مطمئنة .. ولا راضية ولا مرضية .

أما الصدق مع الله ، فهو في قلب لا يزاحم عزة الله فيه مخلوق ، ولا يكون فيه لغير الله حب ، حب الآخرين ، يكون بما يفيض على جوانب القلب من حب الله . وأما التصديق بمضامين كتابه ، فيكون بتدبر آياته كما أمر وبفهمها وليس ببغاوية تلاوتها وتجويدها .

التجويد ، هذا المرض المستشري ، الذي أخذ يحتل مكانة العقل والفهم والتأمل والتدبر ، وهو اختراع ما أنزل الله به من سلطان . بلى للخشوع في التلاوة ، وبلى للترتيل ، وأما تعليم التشدق والتقعر بالآيات والكلمات والحروف بدون فهم ولا توقف ولو يسير أمام المعاني فهو ديدن قوم قصرت علومهم وهمهم عن تدبر القرآن كما أمر الله سبحانه ، فراحوا يتنافسون بفتح مدارس لتقديم هذا البديل الضحل الذي اسمه التجويد أو التغني باللسن ببغاوات .

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . سورة محمد آية ٢٤ } .

وصفة الصدق التي يريدها الله تعالى في عباده ، ليست من الصفات العادية عند المؤمنين ، وإنما هي من صفات أهل اليقين . فقد لا يصدق المؤمن في عهد من عهوده مع

ربه فيغدو من الفاسقين . قال تبارك وتعالى : { مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... سورة الأحزاب آية ٢٣ } ولم يقل سبحانه : المؤمنون صدقوا ما عاهدوا الله ، . والحقيقة أن جميع الناس ذؤوا عهود مع الله ، ولا سيما منهم المؤمنون .

أما الناس ففي عهدهم مع الله يوم الإشهداد : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ... سورة الأعراف آية ١٧٢ } . أما المؤمنون فجملة عهود الله عز وجل ومواثيقه معهم ، وهي جملة الدين بما فيه الأوامر والنواهي ووجوب الطاعات منها مثلاً قوله عز وجل : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . سورة يس الآيات (٦٠ - ٦١) } وعبادة الشيطان طاعته . وقوله تعالى حاكماً بالفسوق على من لا يصدق ما عاهد الله عليه ويقطع ما أمر الله به أن يوصل : { الَّذِينَ يَتَّقُصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . سورة البقرة آية ٢٧ } .

والله سبحانه إذ يعدد أركان الإيمان عند أهل طاعته المرضيين المقربين ، يقول : { وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . سورة الأحزاب آية ٣٥ } .

وعن تصديق البعث والنشور والتصديق بالجنة والنار ، يقص واقعة من وقائع الآخرة ، تأخذ بأنفاس قارئ القرآن ومشاعره ، فيزداد يقيناً وتصديقاً ، وصدقاً مع ربه الكريم ، وصدقاً مع الناس في دعوتهم إلى الله واليوم الآخر وفي كل تعامل معهم ، إذ أن نقيض الصدق ، الكذب والكفر والفسوق . يقول تبارك وتعالى في آيات جميلات الوقع في النفوس الصافية ، محدثاً عن صحاب في مجلس من مجالسهم في جنة الخلد يتذكرون فيه أخبار الدنيا ، ونحن نختصر بدءاً بكلام أحدهم :

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ . فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ . وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْذِرِينَ . سورة الصافات الآيات (٥١ - ٥٧) }

ومطلبنا في هذه الآيات ، هو محور الواقعة ، التي تربط أحداثها بين الدنيا والآخرة وهو قول الكافر لصاحبه المؤمن : { أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ } . إذ على التصديق أو عدمه يكون المصير إما إلى جنة إما إلى نار .

أما عن نتائج الصدق ، وما يترتب عليه من عطاءات وتوفيق وكشف وتجليات وكرامات وخوارق ، فالحديث طويل ، ومنه ما يقال ، ومنه ما لا يقال . أما ما يجب قوله أو يجوز ، فهو ما كان بإذن من الله تعالى للعارفين ، ذلك بعد أن تستقر نفوسهم عبر الرحلة الصعبة الميمونة ، فيحدثون أو يكتبون ما فيه نفع وسداد ورشاد للمؤمنين خاصة وللناس عامة . وأما ما يمنع قوله ، فهو ما كان في منزلة الأسرار بين الله وبين أصفائه ، وهي أسرار لسببين : سبب اختصاص تحت عنوان الآية الكريمة قوله تعالى :

{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
 . سورة القصص آية ٦٨ { والسبب الآخر هو عدم قدرة الناس الذين لم يرتاضوا رياضة الصدق والتصديق تقريباً وتعبداً لله جل ثناؤه ، على استيعاب أو حتى على قبول الكلام عن بعض الكشف أو التجليات أو الكرامات التي يتفضل بها الله من واسع علمه وعظيم قدرته وجليل ألطافه ، ومن بروق جماله ، ورعاية ملكه وروعة مخبأته ... على عبد من فقراء عباده المطيعين والمغمورين في أكثر حالاتهم أو حتى في أسمائهم وكناهم ، إلا من أراد الله سبحانه إظهاره في جانب من جوانب تميزه ، أو سبيل أو أكثر من سبل الدعوة إلى ربه ذي الجلال والإكرام .

وقد يكون المتحاملون على أخبار العرفانيين ، من أكثر الناس إيماناً وعلماً ظاهرياً ، وصلاًحاً وتقوى ، وإخلاصاً لله وجهاداً في سبيله ، وقد تكون منزلتهم عند الله في الدرجات العلى ، وقد يكونون حتى من الأنبياء والمرسلين . وأفضل مثال على عدم قدرتهم على تحمل سلوك العارفين قصة موسى (ع) وعدم تحمله عرفان صاحبه العالم ، ثم قصة مريم (ع) ملفتين إلى أن الله سبحانه رغم كل الكرامات التي ذكرها عنها أبقى أسراراً في مثل قوله تعالى : **{ وَهَٰذَا إِلَيْكَ بِجُذُعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا . }** سورة آل عمران آية ٣٧ { يأتيها هذا الأمر - كما هو فهمه الظاهري - فور ولادتها وهي نفساء ، أضعف ما تكون المرأة في هذه الحال . في وقت كان يأتيها طعامها جاهزاً وبدون أي علاج له أو عناء في تدبيره وإعداده : **{ .. كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . }** سورة مريم آية ٣٧ { يأتيها طعامها هكذا من عند الله الرؤوف الرحيم بها وهي بعد ، في كامل قواها ونشاطها ولم يكلفها من العناء شيئاً . فكيف يكلفها سبحانه مشقة هرّ نخلة بغية إسقاط بعض رطبها ، وذلك يلحق العياء حتى بالرجل القوي . ومن أجل إبداء بعض كراماتها اتخذها بعض الأقوام إلهة هي وابنها عليهما السلام ، ولذلك قال سبحانه فيهما وإنما مركزاً على أهمية الصدق والتصديق في السيدة الكريمة العذراء **{ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . }** سورة المائدة

آية ٧٥ { .

وفي جملة العبر التي من أجلها سقنا هذا المثل ، نذكر أن بعض العرفانيين يدعون فهم قوله تعالى : { وَهَـزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ... } استبطاناً للآية ومفرداتها ، مع الحفاظ على حجية الظاهر . وذلك تفضل من الله عليهم وتخصيص لا يحط من شأن العلماء ولا حتى الأنبياء الذين لم يؤتهم الله سر ذلك . كما سنرى في قصة موسى وصاحبه عليهما السلام . ولكن يجدر بنا أن لا ننسى أن الله سبحانه أتى محمداً (ص) فوق نبوته وتكليفه بالرسالة الميمونة الخاتمة ، أسراراً ، لم يبدها إلا لقلّة قليلة جداً من أصحابه ، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي قال فيه : (أنا مدينة العلم وعلي بابها) لذلك يعتبر هذا الإمام الذي شغل الأولين والآخرين ، بصفاته الفذة ومناقبه الفريدة ، وعلمه وفقهه وقضائه وفروسيته وأسراره وزهده ، يعتبر بحق إمام العارفين وإمام الصوفيين وإمام العابدين ، وقائد الغر الميامين .

وقد عهد الإمام علي كرم الله وجهه بهذه الأسرار إلى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام وإلى جملة أهل بيته الميامين الأطهار الذين قال فيهم الله عز وجل من فوق سبع سماء : { .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } . سورة الأحزاب آية ٣٣ { وقد ذكرنا ذلك وغيره مفصلاً في كتابنا " الحكمة الإسلامية - بحوث من مقتضيات العصر " . إلا أنه لا بأس بالتذكير هنا ، بأبيات لحفيد أمير المؤمنين (ع) ، هو الملقب بالإمام زين العابدين وهو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم جميعاً أزكى الصلاة والسلام : حيث أن هذه الأبيات تلقي الضوء ، على ما يجب أن يحفظه أهل العرفان من أسرار ، سواء كانوا بمستوى الأنبياء أو الرسل أو الأئمة أو أولياء الله الصالحين . وأن لا ييؤحوا بذلك إلا لأهل الخاصة الذين هم أهل لحمل مثل هذه الأمانات وأهل لتصديقها وعدم الإفتتان بها . يقول الإمام زين العابدين عليه السلام :

إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن إلّالحسين ووصّى قبله الحسن
يارب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وهذه الأبيات من أغنى الكلام الإنساني بالرموز والإشارات إلى لباب الحقائق العرفانية ، ولا سيما البيت الأخير الذي يعرّض بأدعياء الإسلام وأدعياء الإيمان الذين يبرزون تحت أثقال البدع مكبلين بشباك الضلالات التي أبرزها الشرك الظاهر والشرك الخفي . والشرك الخفي فتح الله على وليّه أمير المؤمنين علي (ع) بمقلاد من مقلد مدنية

العلم ليقول فيه : " الشرك الخفي أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . " والله عزّت عظمته يقول : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .. سورة النساء آية ٤٨ وآية ١١٦ } . وكفى بالله شهيدا .

أما قصة موسى (ع) مع صاحبه الرجل العارف الصالح ، فهي قصة غنية بالدروس والعبر ، ونحن نعول على عظيم أهميتها والحقائق التي فيها لأنها قرآنية ، ونوجب التقيد بمضامين الآيات تفسيرا وتأويلا ، ولا نسمي الرجل صاحب موسى الذي أمر الله موسى أن يتعلم منه ، لأن القرآن لم يصرح باسمه .

ونحن الآن نذكر مقدمة الآيات ذات العلاقة ، متأملين بمضامينها ، متعجبين من غرابة الحوار ، بين رجل اكتسحت شهرته الآفاق نبيا ورسولا من لدن الله عز وجل ، أرسله إلى فرعون مصر وطواغيته ، يتحداهم ، ويذهلهم بخوارق المعجزات التي أجراها الله على يديه ويقهر بقدرة ربه العظيم غلوهم وكفرهم وسحرهم ، ويكلمه الله سبحانه فيتلقى منه الألواح التي عرفت باسم التوراة . هذا الرجل ، موسى (ع) كليم الله يبعثه الله إلى رجل مغمور لا يعرفه أحد ولا يشعر به أحد وكان مع موسى فتاه الذي لم يسمه كذلك القرآن الكريم ، يسأله موسى (ع) هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ، فيقول له : إنك لن تستطيع معي صبرا . الحق ، إن ذلك من العجب العجائب . ولكن مشيئة الله وحكمته وموازينه هي الأعجب وهي الأحكم وهي الأرحم بغير قياس . وهذه هي مقدمة الآيات . قال تبارك وتعالى :

{ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . سورة الكهف الآيات (٦٥ - ٧٠) } .

هذه الآيات لا تحتاج إلى كبير عناء لفهمها ، فوضوحها شاف كاف ، ونحن نكتفي بهذا المقدار منها وقد حصلنا على المطلوب ، وهو عدم تحمّل موسى عليه السلام عرفان صاحبه ، وهو من هو عند ربه وبين أقرانه من الأنبياء والرسل . أما من يتشوق إلى بقية تفاصيل القصة ، فليرجع إلى سورة الكهف في القرآن الكريم ، وهنيئا له تعلمه واعتباره .

وأقصصة ثلاثة موجزة من سورة النمل نختم بها بإذن الله فصلنا هذا ، عن سليمان وعرش ملكة سبأ فقد جاء في التنزيل العزيز :

{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مَنِ الْجَنُّ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . سورة النمل الآيات (٣٨ - ٤٠) } .

المجلس مجلس سليمان (ع) وفيه ما فيه من الجن والإنس وقاداتهم وعلمائهم وجبابرتهم ، وسأل سليمان من منهم يأتيه بعرش ملكة سبأ ، من اليمن إلى بيت المقدس . وهنا تقع المباراة بين القوة التي تكاد تكون خارقة والتي وهبها الله سبحانه لعفاريت الجن ، والعفريت هو المارد القوي الداهية ، وبين العلم الذي به أو ببعضه فعل صاحب موسى ما فعل وبه قد تفتح أبواب السماوات لمن يريد الله أن يصعده فيها في إسرائ أو في معراج ، وهو وإن لم يكن بمستوى معراج محمد (ص) ولا بغنى معراج محمد (ص) بالآيات الكبرى ، وإنما يكون صورة من صورته ، ومنازل من منازلها ، وبهذا العلم أو ببعضه أمكن لمن يعلمه الله إياه أن يحبس مرده الجن في مقام وبهذا نفهم قول الرجل العالم الذي كان في مجلس سليمان والذي جعله الله من أهل العرفان : { .. أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } ونفذ قوله على الفور ، { .. فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. } . ذلك ما لم يقدر عليه سليمان (ع) وهو من هو في عجب ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، والذي وهبه الله إياه بسبب تخليه عن أجمل ماله وأغلاه - الصافنات الجياد - خشية من الله وتكفيراً عن تأخير فريضة صلاة عن ميقاتها . وذلك ما لم يقدر عليه المردة من أقوياء الجن ودهاتهم .

ويبقى السؤال الذي لا بد منه وهو : هل كل عارف أو عرفاني يستطيع أو يعلم علم صاحب موسى ، أو صاحب سليمان . طبعاً لا ، فالعرفان ، عقلاً ، درجات هي رهن بقابليات أصحابها ونسب صدقهم وتجردهم لطاعات الله سبحانه وتخليهم عن الدنيا وحفرياتها ، وفخاها وشباكها ، وحتى عن التطلع إلى نعيم الآخرة ، حيث يجدون في الله وحده حبه ودنياهم وآخرتهم ونعيمهم وجنتهم ، ومن الطبيعي أن يوجد بينهم فوارق من حيث مقادير فهمهم لحقيقة التوحيد والألوهة ، من جهة ، ومن جهات أخرى لتطبعهم على ما يحب الله ويرضى ، ويرضى ويحب من سلامة قلوبهم من الشرك والله في خلقه شؤون وهو أسرع الحاسبين .

أما نقطة الإنطلاق ، في الطريق الشانك ، الذي ينتهي إلى الوردى فالأزوردي
فالنوراني ، فنور على نور ، فهي الصدق والتصديق ، يعني أن يكون عبد الله من الصديقين
: { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .. سورة الحديد آية ١٩ } . والحمد لله
رب العالمين أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً كما حمد نفسه وكما شكر نفسه وكما ينبغي لكرم
وجهه .

من مفاتيح المعرفة

الإيمان بما نُزِّل على محمد (ص)

أصل الإيمان هو الإيمان بالله ، أي التصديق به والصدق بتوليه . والإيمان بالله والصدق معه يقتضي التسليم بشروطه ، ومن شروطه كمفاتيح لمعرفة دينه ، الإيمان بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي القرشي نبياً ورسولاً من لدنه تبارك وتعالى وإلى الناس كافة . والإيمان بالله وبرسوله محمد (ص) يقتضي بالاصالة شرط الإيمان بما نزل الله سبحانه على رسوله محمد (ص) من كتاب ومن آيات بينات . هذا الإيمان إذا تكامل يكون مفتاح الدخول إلى معرفة محمد (ص) والكتاب الذي أنزل على محمد (ص) والدين الذي أرسل به محمد (ص) . أما معرفة الله ، فبالله عرفنا ونعرف الله ويُعرف الله استقراءً واستنتاجاً ، وتبصراً وتذكراً وإشهاداً .

وإصلاح النفوس واجب إلزامي : قال تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } . سورة الشمس الآيات ١٠ - ٧ . {

والنفس إذا صلحت ، خلص الإنسان من العنت ومن القلق ومن الأرق ومن المنغصات على أشكالها . وخلص من الوقوع في حبال النفس الأمارة وحبال ما يرى من شرار الخلق وما لا يرى .

والنفس إذا آمنت بالله وبرسوله وبما نزل الله على رسوله دخلت في العرفان من باب إلى باب .. فصلحت وسعدت ، ونستفيد هذه المعاني بشكل حاسم ، إذا تأملنا بقول الله عز وجل في هذا الباب من العرفان ، متيحاً لعباده مقلداً من مقاليد الدخول إلى الإيمان الحق والدين الحق والتوحيد الحق ، يعني إلى رحمته ورضاه ورضوانه ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } . سورة محمد الآية ٢ . {

ولقد نجا قوم محمد (ص) وتسئموا قمم البطولة والفتح والتاريخ ، بعدما استجابوا لأمر الله ونهيه ، وتشريع تعليمه ، وتوحيده ونفي الشركاء المزعومين عنه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، نجوا وهم مهتدون كانوا بالإبادة والإستئصال إذا لم يستجيبوا لله ولرسوله ، ونكبات الأمم والأقوام غيرهم ماثلة أمامهم ، ولعل أبرزها كان الطوفان حيث لم يستجب الناس لرسول الله إليهم ، نوح عليه السلام ، وعنتوه وأذوه وكذبوه ، وأقفلوا دونه أذانهم وقلوبهم ... { فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ } . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ

مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرٍ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . سورة القمر (١٠ - ١٧) { .

نجا قوم محمد (ص) ربما لأن أكثرهم آمن ، إذ لو أن أكثرهم بقي على كفره ، لكان
الإجتثاث ، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم ، أن الله عز وجل كلما أنزل العذاب بأمة من الأمم
يقول : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } . سورة الشعراء الآيات (٨ و ٦٧ و
١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠) { .

ولو أن جميع قوم محمد (ص) آمنوا وصدقوا الله ورسوله ، لكان خير الإسلام عمّ
الدنيا بأسرها . ولكن قوماً من فراعين العرب أظهروا إيماناً واستبطنوا كفراً ، وقد عرّض
ببعضهم الله عزّ شأنه . وأسرّ ببعضهم الآخر إلى رسوله النبي الأمين (ص) وذكر أوصافهم
بشكل عام تحت عنوان : المنافقين . وهؤلاء وأبنائهم وأحفادهم وأمثالهم فيما بعد انقضوا
على الدنيا وسلطانها ، فأخذ الفريق الآخر ، فريق المؤمنين الأبرار ، والأئمة الأطهار ،
وأولياء الله الصالحين ، الخط الآخر ، خط المعارضة ، هذه التي كانت تحتدم أحياناً غيضاً
وغضباً لله ، فتتفجر سخيةً بالدماء الغالية الزكية عند الله ، فتزلزل الأرض وتخضب
بالحمرة الآفاق وتهدم العروش على رؤوس أصحابها ، وتمضي على درب الشهادة لله
وفي سبيل الله كما حصل في كربلاء . أو أنها تحكم بعد بذل ودماء غزيرة ومواجهات
عنيفة مع جيوش ودول . كما حصل في الثورة الإسلامية المظفرة في إيران . وهكذا ظل
الخطان خط الكفر من جهة وخط الإيمان من جهة عبر التاريخ العام ، والتاريخ الإسلامي
الخاص ، في مواجهة . وكأنما ذلك كان وما زال وسيبقى إلى قيام الساعة مصداقاً لقول الله
عز وجل ، ينطبق على الأفراد والشعوب :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْسَى . سورة طه الآيات (١٢٣ - ١٢٦) { .

ثم يفصل عن أهل الضلالة في مثل قوله عز وجل : { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ
رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } . سورة الأنعام آية ٤ { أو قوله سبحانه { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى
كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } .
سورة الأنعام آية ٧ { .

وفي أهل الإيمان مثلاً من أقواله تعالى في أوصافهم : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . سورة الأحزاب آية ٢٣ } أو في توجيهه لعامة المؤمنين وتعليمه لهم وعنايته بهم ، وسخّي تعويضه عليهم وما يخبّيء لهم من العطاءات والنصر في الدنيا والآخرة ، قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَاطِقَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ . سورة الصف الآيات (١٠ - ١٤) } .

هذه المفاتيح من المعرفة التي يبسر الله منها لمن يؤمن به ربّاً وبمُحَمَّدٍ (ص) رسولاً نبيا وبالقرآن كتاباً منزلاً ، حسب درجات الإيمان ونسب الصدق ومقادير الأعمال الصالحة . هذه المفاتيح أو المقاليد ، يفتقدها من يكفر أو يشك أو يتردد ، فيغدو مقلداً مغلقاً دون الحق والمعرفة الحقة ، مهما نتقف وقرأ وكتب وتفنن . وأمثال هؤلاء الذين ينكرون أو يشكون بالله جلّت عظمتهم أو بإرساله محمداً (ص) أو بتنزيله عليه القرآن كتاباً ، تجددهم لو كشفوا عن حقائقهم ، كثرة في المجتمعات الراهنة ، بعد هجمات الإلحاد المعاصرة ، بين الفلسفات المادية وانفلات حضارة الغرب عامة بفواحشها ، ومخالفاتها للأخلاق والقيم الدينية .

هؤلاء يغلب عليهم القلق ، والتأزم النفسي والعصبي ، والضياع ، والخوف مما يخبئه المستقبل ، والخيبة ، والشعور الدائم عند كل واحد منهم بأنه لم يحقق وجوده ، ولا آماله وأحلامه ، فهو مهزوم في داخله ، ناغم إذا كان مقدوراً عليه رزقه ، ظالم إذا كان ميسور الحال . تجد كل هذه النماذج أينما ذهبت وحيثما احتككت بعامة الناس أو بخاصتهم ، وتجد اعظم محور من محاور اهتماماتهم : الاقتصاد . فهم يعتبرونه في الحقيقة رباً ورسولاً وكتاباً مقدساً .

وهؤلاء أبرز ميزاتهم أنهم يجهلون كونهم مقلدين دون الحقيقة ومغلقين . وإذا جادلوا فبالباطل ، وتراهم أكثر الناس غروراً بما يظنون أنه ثقافة وأنه تقدم ، وأنه سلوك العقلاء . قال فيهم تعالى :

{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا

تَذْهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . سورة فاطر آية ٨ } وقال عز وجل مظهراً حقائقهم الباطنة ومصائرهم المرتقبة :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . سورة المجادلة آية ٥ } .

ومعنى يحادون يخالفون ، فالمحادة الخلاف والعداوة ، وتجاوز الحدود التي أقرها الله لعباده . وكبتوا ، الكبت في الأصل صرع الشيء لوجهه ، ومعناه كمدوا وغيظوا وخذلوا ، من الكمد وهو الحزن الذي يثقل على الدماغ والقلب والغيظ والخذلان معروفان .

فيكون معنى الآية الكريمة أن الذين يخالفون الله ورسوله وطبعاً يخالفون ما أنزل سبحانه على رسوله ، أي القرآن الكريم ، ويتنكرون لكل ذلك أو يشككون بشيء من ذلك ، هؤلاء يحرمهم سبحانه من مفاتيح المعرفة أو العرفان ، وفي العرفان فرج ومخرج من الضيق ومن كل مشكلة . أو أن الله سبحانه يمضي حرمانهم بعد أن حرموا هم أنفسهم منها ، ومعاذ الله أن يظلم سبحانه أو أن يعتدي ، وهو لا يحب المعتدين ، وهو الأرحم وهو الأكرم ، وهو يسر السبل للهداية والخلاص بما وهب من العقل والسمع والبصر والفؤاد ، وهو سبحانه { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . سورة الزخرف آية ١٠ } وأوضح السبل وأهمها أنبيأؤه ورسله ، وكتبه المنزلة ، وقد ختم النبيين بخاتم رسوله محمد الأمين (ص) وختم كتبه ورسالاته بالقرآن المجيد مصداقاً لما بين يديه من الكتب المنزلة ومهيماً عليها كما جاء في التنزيل العزيز .

من هنا يتبين إلى أية مدينة عظيمة من العرفان يؤدي هذا الباب الذي يفتح بمحمد (ص) رسول الله ، وبالكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأطهار الميامين .

ووظيفة محمد (ص) ودينه ودينه ، وليله ونهاره ، وأنفاسه وجهاده ، وكيانه كله عاملاً ناشطاً ، كان هو الدعوة إلى الله ، تلك إرادة الله ، ورسالة الله إلى البشر مع محمد رسول الله ، { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } . سورة الحج آية ٦٢ } .

روح القرآن : الدعوة إلى الله

في بيوتِ أذن الله أن ترفع

على محمد (ص) أنزل القرآن العظيم ، هذا الكتاب الذي ملأ الدنيا دويماً ، وملأها بركات وملأها علماً ومناهج سلامة واستقامة ، ونظماً سديدة ، ومجتمعات رشيدة ما دام الناس ، يعملون ويستترشدون بكتاب الله العظيم ، القرآن الكريم .

والقرآن الكريم لباب ما يتوخاه الناس من حصاد المعاني ، في رحلة اللغات والأفكار ، والأخلاق والنظم ، في تاريخ البشرية ، وتتويجاً لتاريخ البشرية ، وذلك جدُّ بديهي ، وجدُّ طبيعي لأنه كلام الله ﷻ .

فأي عالم من المعارف ، وأي كون هو هذا القرآن الكريم الذي وصفه الله تعالى بقوله : { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ . سورة البروج آية (٢١ - ٢٢) } وقوله عز شأنه : { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . سورة الواقعة الآيات (٧٧ - ٨٠) } . وإشارة إلى عظمة القرآن ، وعظيم ما فيه ، وسمو ما فيه ، وعميق معانيه ، وبلغ مراميهِ ، يقول سبحانه : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ } ويكررها لجلاء جواهر الحكمة فيها ، عدة مرات في سورة القمر .

أما ما هي روح القرآن ، وهدف توجهاته وتوجيهاته ، وهدفه الذي يختصر كلام أهل السماوات والأرض ، وتطلعات أهل السماوات والأرض ، وشرف أهل السماوات والأرض ، فهو بين الدفتين ، وبكل وضوح : الدعوة إلى الله ، إلى كلمة { لا إله إلا الله } إقراراً بنعمته وإخلاصاً لوحْدانيته ، والتقرب إلى كرم وجهه ، والتشرف بمعرفته ، كل ذلك بالطاعة والعبادة والحب ، والجهادين الأكبر والأصغر . بهمة مستفادة من فضله سبحانه ، ومن قرأه هذا العظيم وهذا الكريم ، يخلع معها العارف ثياب الدنيا ثوباً ثوباً ، ليجد نفسه متوجهاً إلى ربه العظيم بثوب نوراني لا أثر فيه لألوان الثياب وجفاف الثياب ، وما تكشف الثياب من سوءات ، هو { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور آية ٣٥ } .

إذن تكامل الإستنارة بنور الله ، يؤدي إلى السعادة المطلقة في الله ، تلك هي روح القرآن .

وإذا أردنا أن نتوسع أكثر عن نورانية أهل اليقين ، من الذين يرزقهم الله من العرفان درجات ، نذكر الآية التي بعد هذه { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } مباشرة ، وهي قوله تعالى :

{ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور آية (٣٦ - ٣٨) { ففوله تعالى : { فِي بُيُوتٍ } إلى قوله : { بِغَيْرِ حِسَابٍ } هو إعراباً خبر بعد خبر ، بعد قوله عز وجل : { نُورٌ عَلَى نُّورٍ } ، وقوله : { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ } وكان القارئ الواعي لا بد أن يسأل : { نُورٌ عَلَى نُورٍ } ؟ كيف ؟ و { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ } من هم الذين يشاء أن يهديهم الله لنوره ؟ من هم ؟ وأين هم ، وكيف ، ومتى ... ؟ فيأتي الجواب الشافي :

{ فِي بُيُوتٍ أذنَ اللَّهُ أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ... } .

فإن قيل هي المساجد ، كان صحيحاً ، وإن قيل هي كذلك بيوت عادية من حجر في أهل حضر ، أو شعر في أهل وبر .. كان ذلك صحيحاً . وإن قيل هي أبدان العابدين التي هي بيوت نفوسهم ، كان ذلك صحيحاً . إنما هذه البيوت لا يرفع شأنها إلا بإذن الله ، ولا يذكر فيها اسمه سبحانه إلا إذا أذن هو تبارك وتعالى بذلك . وقوله عزت عظمته : { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } أي حالها كذلك ، أي ، لكي يأذن لها أن ترفع ، ينبغي أن يكون من صفاتهم ومن نهجهم ، أن يذكروا اسم الله بالغدو والآصال أي في أوقات تكاد تكون موصولة بذكره وبالتسبيح بحمده ، لا تقطعها تجارة بمقايضات وصفقات وأنواع تثمير ، لتجميع المال والإنشغال بتجميعه ، زيادة عن حاجة الأسرة في مسكنها ومآكلها ومشربها .

أما إذا قيل : واضح تفسير قوله تعالى : { رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ .. } ولكن ما المقصود بقوله تعالى : { .. وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. ؟ } وهم ، أي هؤلاء المستنثرون بنور الله ، بعد أن تفرغوا للجهاد بأنواعه وللعبادة آناء الليل والنهار ، فمن أين لهم المال لكي يؤتوا الزكاة ؟ الإجابة ذات وجهين ، قد يتفقان وقد يفترقان . ويفهم ذلك إذا عرفنا أن الزكاة لا تكون فقط بأداء المال ، وإنما قد تكون زكاة علم وزكاة أبدان جهاداً في سبيل الله ، فإذا فتح الله على عبده باب علم وباب مال ، فلا كلام في أن العبد الصالح يؤتي الزكاة من هذين الرزقين ، وإلا فمن العلم والجهادين الأكبر والأصغر . وقد جمع الله كل ذلك بقوله عز وجل في آخر هذه الآيات ، حيث قال : { لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } . وذلك بعد ذكر صفة مهمة من صفاتهم ، هي كونهم { يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } .

لا تستغرب ! ...

فبين يديك مصاديق كثيرة لهذه الآيات ، ولما ذكرناه في تفسيرها ، وهذا غير محصور كما قد تظن بالأنبياء والأئمة المعصومين ، وإنما هو مشاع للصالحين من عباد

الله في كل زمان ومكان . ولو أنك تفحصت تاريخ أولياء الله وحيواتهم وما قد يصلك عن سلوكهم في الماضي والحاضر والمستقبل ، لبدلت استغرابك بالإعجاب بمدى لطف الله وكرمه وحبه لأوليائه .

ولا تنس روح هذه المطالب ، وأساسها الذي هو في قوله : { فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ... } وتوقف طويلاً عند { .. اسْمُهُ .. } فقط وتأمل ، وسافر إذا شئت - مقبولاً إن شاء الله - في فكر التوحيد والحب ، فإن أخلصت القلب لله ، وتخلصت من خفايا الشرك وتآليه المخلوقين ، فأنت بإذنه تعالى من الواصلين ، ترفل بقلب من نور وعقل من نور وثياب من نور .

ولا تستعجل ! ...

واسأله تعالى وحده ، أسأله لنفسك السكينة ، لنتفاهم بروية ، فإننا قد ذكرنا لك عن هذا العلم ، أنه لشرفه ، ليس كثيراً أن تخاض إليه اللجج ، وتسفك دونه المهج ، كما قال الإمام السجاد عليه السلام .

ولسنا نكتب لك لتترك دنيائك ، هكذا بجرة قلم تقفل بها باب ماضيك وحاضرك وتفتح بها باباً لمستقبلك . فإنني وإن كنت أحبك في الإنسانية وأحب لك الهداية فإنني لن أقدر على هدايتك ما لم يأذن الله ، فإن الشفاعة لله جميعاً ، أولاً تذكر قوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. } .

هذا القول قاله الله تعالى لعبد (ص) عبده ورسوله ، وفحواه أن محمداً لا يستطيع أن يهدي من يحب ، لأن الله هو وحده الذي يهدي من يشاء ، فإن اهتدى بعبد (ص) أحد ، فلا يكون ذلك إلا بإذن الله ومشية الله وشفاعة الله . فلا تسألن إلا من الله الهداية وكل خير . لأن بيده الخير ، كل خير ، وهو على كل شيء قدير .

ولا تخش من هذه الكتابة وهذا التفسير على الناس ، أن يتركوا قصورهم ويتخلوا عن تجاراتهم واختراعاتهم وغزوهم الأسواق .. والأفلاك ، أو حتى عن مقعد في مقهى أو تخصص في جامعة أو بناء ناطحة سحاب .

وإياك والقيود عن الجهاد أو الدعوة إلى الجهاد ، جهاد الفرد وجهاد الأمة ، فإن ههنا دليل الجهادين ، وبغير هذا الدليل وأمثاله ، يبقى الجهاد كما هو مطروح في الساحات

، محلياً وعالمياً ، جهاداً تعبدياً للتراب والصخر ، والأرض والعزة والكرامة ، والوطن والإقتصاد ... إلى آخر حلقة من حلقات الحياة الدنيا . وصحيح أن كل هذا مطلوب الحفاظ عليه ، إنما - إن لم تكن من المتبحرين - ستصدمك الحقيقة التي نسوقها إليك ، وهي أن كل ذلك الذي ذكرناه ، إذا لم يكن مقروناً بالإيمان بالله ، سيكون عملاً حابطاً ، أي مردوداً على أصحابه ، وسيحاسبون عليه حساباً عسيراً . فأين هم من الله ، من ملك الله وحكم الله وقيومية الله وحق الله ؟ جلّ وعلا تعالى عما يشركون .

لن يتأثر بهذه الكتابة ، ولن ينتفع بها ، إلا من أراد الله هدايته ونقله من درجات الإيمان إلى درجات اليقين ، ومن أدنى درجات الجنان إلى عليين . فإن هذه الكتابة فقط لأهل الإيمان ، وتحت عنوان قوله تبارك وتعالى : { وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . سورة الذاريات آية ٥٥ } .

أما كيف يصبح ما في رأسك نورانياً ، وقلبك نورانياً ، ودمك نورانياً ، فمعاً فيما وفقنا الله تعالى إلى تأويله في بعض وجوه آيات النور ، التي ذكرنا بعض انعكاساتها ، والآن نعود إلى أصلها ، وهو قوله تبارك وتعالى : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور آية ٣٥ } .

لن أتكلم عن أنوار الله تعالى ، التي بها نرى حمرة الورد ، وبياض الياسمين وغير ذلك من الألوان والأشكال ، في الأرض وفي السماء وما بين الأرض والسماء ، حيث أنه ثبت علمياً كما أنه ثابت بالنظر العقلي والنظر الظاهري ، أنه لولا أنوار الله التي بها نرى ، وعلى أساسها نحيا ونتحرك ويعمر هذا الوجود ، لكان الناس عمياناً والكون ظلام دامس . إنما سأتكلم عن نور هو أعجب مما نرى وندرك في ظواهر الأشياء ، هو نور الإنسان الذي يجتبيه الله أو يصطفيه نبياً أو ولياً ، أو صالحاً في الصالحين ، في كل زمان وإلى يوم الدين ، وهذا النور هو في قوله جلّ شأنه : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... } .

قوله تعالى : الله نور السماوات والأرض ، واضح المعنى ، فلا نور في السماوات والأرض إلا نوره ، وهو إما مادي وإما معنوي ، فأما المادي فكنور الشمس ونور الفجر وأنوار النجوم والأقمار ثم أنواع النور التي علم الإنسان استنباطها من الزيت إلى الطاقات النووية ، وأما المعنوي فدينه سبحانه ، ودينه الإسلام ، أرسل به الأنبياء تترى ، منذ آدم عليه السلام إلى نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد صلوات الله عليه وعليهم ،

وغيرهم من الأنبياء كثير ، ودليلنا التمهيدي على أن المراد بـ { مَثَلُ نُورِهِ } : الاسلام دينه الحنيف ، قوله عزت عظمته :

{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . سورة الزمر آية ٢٢ } .

ويعني أن من لم يشرح الله صدره للإسلام ، فليس على نور من ربه ، يعني هو في ظلام ، ومعلوم أنه كذلك يكئى بالظلام عن الضلالة والجهالة والعمية ، والتلبس بالباطل والبعد عن الحق ...

ودين الله تعالىمه . يقول رسول الله محمد (ص) في بعض الدعاء : " وبنور وجهك الذي صلح عليه أمر الدنيا والآخرة " . فتعالىمه سبحانه لأهل السماوات وأهل الأرض نور من نوره .

وقبل أن نستبطن بعض رموز آية النور التي نحن بصدها ، من البديهي أن نشرح ظاهر الألفاظ : مشكاة ومصباح ، زجاجة ، كوكب دري ، شجرة ، زيتونة ، أمثال ... فالمشكاة هي الطاق أو المجسم المتعدد الأشكال الذي يوضع فيه المصباح ، والمصباح كل ما يستنار به في الظلام ، قلّ ضوءه كمصابيح الزيت أو الغاز ، أو كثر كمصابيح الكهرباء . والزجاجة ، ما شفّ وصفاً من القوارير ، وهي لحماية قبس النور من الريح والمطر وهي كذلك لحصر الضوء ونشره في كل الاتجاهات . والكوكب واحد الكواكب التي في السماء ، ودريّ لعله يفهم هذا العصر أكثر من العصور السالفة ، حيث عرف أن مادة الكواكب بشكل عام ترابية أو صخرية ، ومع ذلك فهي تتلأأ وتضيء ، بما ينعكس عليها من ضوء الشمس ، فكيف إذا كان أحد الكواكب دريياً أي من الدُرّ .

والدُرُّ واحدته درّة ، وهي الجوهرة التي تؤخذ من المحار الذي يغاص عليه في البحار ، ويقال لها لؤلؤة ، فإذا كان الكوكب دريياً فسيكون نقيّ الجوهر من داخله وخارجه . وشجرة ، كل ما اشتجر بأصول وفروع ، وكثيراً ما يتداخل فيها الرمز أو المجاز بالحقيقة ، فنقول شجرة الأخلاق ، وهو مصطلح عند علماء الأخلاق يدعى معه أن الشجرة التي نهى عنها القوم - آدم ، أو آدم النوع ، إنما كانت شجرة مفاسد الأخلاق . ويقال شجرة الأنساب { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... سورة إبراهيم الآيات (٢٤ - ٢٥) } وزيتونة ، يعني خضراء نضرة مثمرة بزيتها يستضاء ، وبثمرها الطيب ينتفع . وأمثال ، واحدها مِثْل ومِثْل ، وتستعمل للتشبيه ولتقريب المعاني العميقة إلى الأذهان ، وكثيراً ما يستعمل معها الرمز للدلالة على الحقيقة : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . سورة الرعد آية ١٧ { وَمِثْلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . سورة البقرة آية ٢٦١ { وَمِثْلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . سورة البقرة آية ٢٦٥ } .

نلاحظ في هذه الأمثلة أن الله سبحانه لكي يقرب إلى الأفهام المعاني المجردة ، والكبيرة ، والعظيمة ، وأحياناً غير المحدودة ، أي المطلقة ، فهو يعرض لها أمثالاً من الملموس والمجسم ، ومن الأشياء التي يتداولها الناس أو يتداولون بها بكثرة في حياتهم اليومية ، ولا شك أن هذا الأسلوب أسرع في إيصال المعاني إلى القلوب والأذهان ، إنما يزداد تعقيداً وحماً للوجوه ، كلما كانت المعاني أعظم وأقدس ، وكلما كان المخاطبون أفهم وأعلم ، وبالتالي أملك لأدوات التحليل والتعليل ، والاستقراء وسبر الأغوار والإستنتاج . وذلك بما يعلمهم الله ، واتقوا الله ويعلمكم الله ، ف { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ . سورة يوسف آية ٧٦ } .

ففي الآيات الكريمة التي أوردناها بين يدي قوله تعالى : { مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... } نجد في الآية الأولى ، المعنى المجرد الذي أراد سبحانه تعليمه للناس ، هو الكلمة الطيبة ، ضرب لها مثلاً بما هو محسوس ومتعارف : شجرة طيبة . وفي الآية الثانية ، المعاني المجردة التي أراد ، المذكورة في الآية : الحق والباطل ، والمجردة المستفادة من كلمات النص وما بين الكلمات : هي العقول والأفهام ، وقد تمثل سبحانه لكل ذلك ، بالأنهار والجداول على اختلاف أعماقها وأحجامها من جهة ، ومن جهة أخرى ، على ما تحمل ، أي على مضامينها ونتائجها ، والمحسوس جداً في هذا النص الكريم ، هو الماء الصافي والنمير الشافي أصلاً ، وهذا مثل أولوا الألباب من أهل الحق ، وما تكن صدورهم وما يقولون وما يفعلون ، ثم الزبد ، أي غشاء السيل وما فيه من قش ونفايات ، وكذلك ، حتى ما يستخرج من الأنهار من ذهب وغير ذلك مما يوقد عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ، هو كذلك كالزبد وغشاء السيل لا قيمة له عند الله تبارك وتعالى ولا نفع له في الحقيقة عند أولي الألباب يفتتن به أهل الدنيا ، وهو بمنزلة الباطل يذهب جفاء .

وفي المثل الثالث الآية الكريمة تتعرض لمعنى البركة والخير الكثير المعنوي والمادي وفي الدارين الدنيا والآخرة ، مثل لذلك بالسنبلة والقمح الذي فيها وهو في مفهوم الناس وفي الحقيقة رمز خير وبركات . وكذلك في المثل الرابع عن الذين ينفقون أموالهم

ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم وهما معنيان تجريديان ، فيهما من الجمال المعنوي الخير الشيء الكثير ، ولم يترك سبحانه في هذه الآية قضية النسبية ، إذ ليس كل الصالحين يتقربون إلى الله تعالى بنفس المقدار من الحب والولاء والبذل ابتغاء مرضاته وإخلاص أنفسهم له سبحانه وتثبيتاً على صراطه . فجاء المثل الرائع المعجز ببلاغته ، التي هي من السهل الممتنع ، قوله تعالى : { .. كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ .. } وجعل الجنة في هذا المثل وهو ما نسميه نحن في العادة الروضة أو الحديقة أو البستان ، جعلها في ربوة ، أي في مرتفع من الأرض لا صعباً كالجبل ولا منخفضاً ، دلالة على مكانة المنفق ابتغاء مرضاته عنده سبحانه ، والوابل المطر الغزير الذي يتضاعف منه نتاج الأرض ، وهذا لمن يسخون ويكرمون ببذلهم حباً بالله وتقرباً إليه ، وقوله : فإن لم يصبها وابل فطل ، كناية عن الإنفاق قد يكون قليلاً أو إخلاص العبد لربه ، قد لا يكون كاملاً ، فيعطيه الله سبحانه ما يتناسب مع نيته وقدرته ، من حيث كثرة ماله أو قلته ...

هكذا نكون قد قدّمنا لفهم قوله عز وجل ، { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... } ما يساعدنا على الكشف عن وجه من وجوه تأويلها ، وهي الآية التي ما زال يتصدى لتفسيرها وتأويلها أهل الفضل من العلماء ممن تفضل عليهم الله سبحانه بألوان من أنواره ، سواء كانوا من الصوفيين أو العرفانيين أو عامة أولياء الله الصالحين ، وبنور وجهه الكريم أهتدي وبه أستعين ، وعليه أتوكل ، وهو وحده ربي وحسبي وحيي .

بين المشكاة والمصباح والزيتونة :

=====

قلنا إن { .. نُورِهِ .. } في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... } هو دينه وتعاليمه ، أما التجريد والإطلاق الذي لا يحده عقل ولا واقع ، فهو قوله تبارك وتعالى أول الآية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. } نقول هذا تجريد مطلق ، والتجريد كما نوهنا هو اللامحسوس ، واللامدرك ، إلا بآثاره ، وآثاره كذلك فيها المجرد وفيها المحسوس نجد ذلك في نفس الآية بعد قوله عز وجل : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. } قوله : { .. مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. } فقوله تعالى : { .. مَثَلُ نُورِهِ .. } فيه تنويه عن آثار النور المطلق ، فإن قلنا - كما قدمنا - إن المقصود بالمثل هو دينه ، فهذا صحيح ، وإن قلنا - بناءً على مفردات الآية - هو مجسم دينه ، فهذا كذلك صحيح ، وإن قلنا إنه الإبداع في دينه أو الإبداع في نوره أو الإبداع في خلقه ، فهذا كله كذلك صحيح . وإن قلنا أنه سبحانه قصد بذلك مجدداً (ص) أو قصد بذلك النموذج البشري الأول السوي آدم ، أو نوحاً أو موسى أو عيسى

أو كل نبيٍّ أو رسولٍ أو ولي من أوليائه المنتجبين وعباده الصالحين ، كان كل ذلك صحيحاً .

فخلاصة القول في الآية الكريمة : { .. مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ .. } أنها حمالة وجوه نورانية غنية بالدلالات واضحة الظهور ، كثيرة الإشارات ، بليغة الرموز ، نستخلص منها عبر قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . سورة الشورى الآيات (٥٢ - ٥٣) } عامة حقائقها : بعد أن فسرنا مفردات الآية بالمتعارف في حقيقة اللغة ، علينا الآن أن نعرض مجازاتها المقصودة بإذنه تعالى :

فالمراد بالمشكاة ، الإنسان المجتبي ، المؤمن الموقن الصالح ، شكلاً ومضموناً ، عرضاً وجوهرأ .

{ .. فِيهَا مَصْبَاحٌ .. } المصباح قلبه المستنير المنير بالإيمان المكتوب فيه ، لا يَمَحِي ، لأن الله سبحانه هو الذي كتب فيه ، أي في القلب المخلص لله . ومن الأدلة المشرقة ، قوله تبارك وتعالى : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . سورة المجادلة آية ٢٢ } .

هؤلاء الموصوفون في هذه الآية تجردوا لله ، إخلاصاً وطاعة ، وجهاداً في سبيله وحباً ليس فوقه حب .

رهنوا أنفسهم بالشروط الثلاثة المنجية : الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، وأما الثالث فمستنتج ، إذ من أعلى الأعمال الصالحات ، أن تضحي بمحبتك ، تلك التي تربيت عليها طفلاً وصبيّاً حتى كادت أن تتملكك ، ما هو مكنون منها أكثر مما هو ظاهر ، وهي لأقرب الناس إليك نسباً وتعاملاً واحتكاكاً يومياً ، في عشرة العمر ، هم الأهل أباً وأماً وأبناءً وإخوةً وعشيرة ، هؤلاء إن خرج أحد منهم على حدود الله ، إن { .. حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. } ، أخرجت من نفسك حبه ، وإذا توافقت أنهم جميعاً حادوا الله ورسوله ، تجاوزوا حداً من حدود الله أو أكثر ، كذلك تخرج محبتهم جميعاً من نفسك ، ولا أقول من قلبك لأن القلب كله لله ، كم هو صعب ذلك ؟!

كم يلزم من التصفية ثم الصفاء ، كم يلزم من التحليل والتعليل والمقارنة ، التي تنتهي إلى أن تختار الله ، أو أن تختار أباك أو أمك أو ابنك أو أخاك أو عشيرتك على فسوق منهم أو إخلال في دين الله ، خروجاً على حدوده أو على حد من حدوده ، والله يأبى عليك أن تكن لهم مع ذلك ودّاً أو محبة . اخترت الله عز وجل ؟ وأخلصت له قلبك وحبك وطاعتك ؟ إذن كتب الله في قلبك الإيمان .

وما يكتبه الله عزت عظمته لا يمحي أبداً . وأكثر من ذلك وأعظم ، أيّدك بروح منه ، لا يؤيد به إلا أمثالك على درجاتٍ من تقدمهم عليك أو تأخرهم عنك فـ { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . سورة الأحقاف الآية ١٩ .

ثم ما هو هذا الروح الذي يختص الله سبحانه هذا النمط من الناس به ؟ أهو الروح الذي في آية الشورى : قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا... } إلى قوله : { .. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا .. الآية ٥٢ } هل هو هو أم أنه روح آخر ونور آخر ؟

المهم أن أهل اليقين المخلصين ، الذين يريدون وجه الله وحده ، يؤيدهم سبحانه - إضافة للملائكة الذين يصحبون كل إنسان في العادة - بروح منه ، هو أعلى درجة ، وأميز نوراً ، وبالضرورة أكثر خيراً وبركات وتسديداً ، وتجنيب عثرات .

فالقلب الذي يكتب الله فيه ، لا بدّ أن تكون كتابته بحروف النور ، فكلامه نور وحروفه من نور ، ولذلك هو سبحانه ، وفي أكثر من آية ، سمى القرآن الكريم نوراً ، لأنه كلامه . هذا إضافة إلى الروح الذي يؤيد ويختص به عبده الصالح ، وقد جعله الله نوراً كذلك ، كما في آية الشورى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا... } : فاجتمع في القلب المخلص لله ، ما كتب سبحانه بحروف النور ، مع الروح النوراني المنوه عنه ، فكيف يغدو هذا القلب وفيه كتابة من الله وروح منه نوراني ، يغدو أبهى وأزهى وأزهر المصابيح ، بل أين منه المصابيح العادية ؟ يتلألأ نوره بحروف نور الله ، فهو فوق المصابيح التي من صنع البشر ، مهما تقدمت الصناعة ، وتصفى الضوء ، وأين في مصابيح البشر ما قاله الله عز وجل . عن مثل هذا القلب ، حيث تابع سبحانه قوله : { .. الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. سورة النور الآية ٣٥ } .

في تقدم صناعة المصابيح ، كان لا بد لكل مصباح مهما كان نوع وقوده ، من زجاجة تحمي الوقود من عاديّات الجو ، وتزيد في قوة انعكاسه وصفاء إشعاعه . وما لم يكن من المصابيح في زجاجة ، سرعان ما يخبو وينطفئ .

وحتى يظهر الله عز وجل الفارق بين مصباح المؤمن الذي هو قلبه ، وبين المصابيح المصنوعة المتطورة ، وفي زجاج متطور ، أعطى هذا المثل عن قلب المؤمن المصباح ، الذي يستحيل على البشر ، تصنيع مثله .

وكيف يستطيعون ، وهو في زجاجة كأنها كوكب دري ؟ هم قد يحصلون على الدرّة من محارثها ، ولكن أن يحصلوا أو يصنعوا كوكباً درياً ، مثل الذي يصفه الله تعالى وقد يكون أكبر من حجم الأرض ، هكذا وببساطة ، تلك هي اللغة عن الكواكب . إذن هو التميّز النوراني ، في قلوب أهل اليقين .

ضوء القمر الجميل الهاديء ، هو انعكاس لأشعة الشمس عن جرم القمر ، والقمر تبين أنه صخري ترابي ، وكذلك ضوء الشمس يصدر عن جرم غازي مركب متفجر ملتهب بدرجات الحرارة الهائلة . فلا ضوء إذن يمكن أن يكون أصفى من نور يصدر عن كوكب دري من داخله وخارجه ، هكذا وصف الله تعالى له : { .. الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. } .

فلا أبهى ولا أصفى ولا أروع ولا أجمل ، ولا عجب فهو من نور الله ، تبارك وتعالى وعز وجل .

هل في هذا الوصف لقلب المؤمن الموقن المخلص لله ، ثناء على المؤمن ؟ بلى ، لأن الله يقول الحق ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ومن أصدق من الله حديثاً ؟ فما دام الحق كذلك فهو من أجمل الثناء من مقام عزته سبحانه ومن مقام كرمه ورحمته ، وهنيئاً للمؤمنين أنوار الله ، المصابيح التي في صدورهم .

أما الزجاجة التي كأنها كوكب دري ، فهي في صدر المؤمن الموقن الواهب نفسه وكل كيانه لله عز شأنه . كناية عن ندرته بين الناس العاديين ، وعن صفائه وشفافيته وفوق ذلك كله عن قيمته المميزة عند الله . مقارنة مع الكثرة التي لا تفقه ولا تعي أو التي اتخذت نهج أصحاب الشمال ، أو التي قست قلوبها عن ذكر الله ، فأظلمت ووقعت في خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

وصدر المؤمن الصديق ، كونه كأنه كوكب دري ، فهو لشفافيته ورقّة نوره وصفائه ، مهبط أو مقام أو مزار للملائكة ، ملائكة الرحمة ، يقول تبارك وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ

فِيهَا مَا تَدْعُونَ . سورة فصلت الآيات (٣٠ - ٣١) . {

والمؤمنون الموقنون ، فعلاً ، كأنهم كواكب دريئة في الأرض ، ليس غيرهم يلوح للملائكة مضيئاً متألقاً ولأهل السماء . هكذا ، قلوب ذات جمال متوقد أخاذ ، كلما ازداد واحد منهم من الله قرباً والله حباً ، زاده الله نوراً وجمالاً وألقاً . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة ، فبحسبك قوله تبارك وتعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة السجدة الآية ١٧ } .

وإلا فما هو الشيء الذي مثّل له الله عزوجل وقال فيه هذه الآيات النيرات ، إذا لم يكن الإسلام لله والإيمان بالله والعرفان بجميل الله وجماله وجلاله ، وآثار نوره في الأبواب وأولي الأبواب؟! ...

الدماغ هو الشجرة المباركة :

=====

قوله تبارك وتعالى : { .. يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. سورة النور الآية ٣٥ } أي المصباح يوقد . وإذا كان المصباح هو قلب الرجل الصالح ، فالتركيب الفسيولوجي للإنسان يقضي بأن يكون تفعيل القلب من الدماغ ، كما هو المحسوم في علم الطب والتشريح . فالدماغ إذن هو المرموز إليه ، في جملة ما ترمز إليه كلمة { شَجَرَةٍ } في الآية الكريمة . وليس أبلغ من وصف الدماغ وجملة الجهاز العصبي بكلمة { شَجَرَةٍ } فهو يشترج في جميع انحاء الجسم انطلاقاً من الرأس وعبر النخاع الشوكي ، حتى أنه لا يوخز موضع في الجسم برأس دبوس إلا أصاب فرعاً من فروع هذه الشجرة التي هي الدماغ والجملة العصبية ، التي تتفرع منه وتستقطب البدن كله ، وتديره - انطلاقاً من الرأس الرئيس - ضمن هيمنة رب العالمين ، هي { .. لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. } .

أما لماذا هي مباركة هذه الشجرة ؟ فلأنها شجرة الإنسان الصالح ، ولأنها على هذا الأساس { مَثَلُ نُورِهِ } تبارك وتعالى . فإذا فسد الإنسان ، فسدت شجرته ، أي نزلت منها البركة . وهذا تراه حولك في كل مجتمع : فساد في الأدمغة وتبعاً لذلك فساد في القلوب ، والعكس صحيح . فإذن ، ليست كل شجرة هي مباركة ، فقط أدمغة الصالحين ، يباركها الله ، وينورها ، ويجعلها في عافية من كل فساد مادي أو معنوي .

أما قوله تعالى : { زَيْتُونَةٍ } ففيها ثلاث دلالات على دماغ الرجل الصالح : الصبغ ، والدهن أو الزيت ، والخضرة الدائمة .

وهذه الصفات هي مشتركات بين الدماغ الصالح والزيتونة المباركة ، نستفيد منها من المداخلة مع قوله تعالى : { وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٌ لِلْأَكْلِينَ . سورة المؤمنون الآية ٢٠ } الحقيقة أنها في باب التفسير ، زيتونة حقيقية وفي باب التأويل ، زيتونة مجازية ، إنما هي كأنها زيتونة بسبب دهنها وصبغها للأكلين .

ثم إن في هذه المداخلة ، مقارنة لطيفة مستفادة ، وهي أن الزيتونة الحقيقية صبغها للأكلين ، أما الزيتونة المجازية المباركة فصبغها : { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً . .. سورة البقرة آية ١٣٨ } .

بقي أن نقول إن التأويل في قوله تعالى : { وَشَجَرَةً .. } هي زيتونة النبوة التي خرجت من طور سيناء . يعني هي قطعاً دماغ موسى عليه السلام ، الذي تفاعل معه قلبه ، ضمن هذه الرموز :

{ اللَّهُ نُورٌ ... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ { ...

وهنا لا بدّ للمتأمل أن يلاحظ هذه الأبهة وهذا الجمال ، في اللغة والرموز ، فلو افترضنا أن هذه الأشياء سميت بأسمائها كما يفعل علم التشريح : قلب ودماغ وكتلة عصبية ... لافتقدنا أولاً نعمة المجاز وعمق التأويل ، وثانياً هذا الرونق الأخاذ لأولي الألباب ، في اللغة والرموز ، وهذا مثال كذلك ، في جملة الأمثلة التي تكاد لا تعدّ عن إعجاز هذا القرآن العظيم .

أما قوله تبارك وتعالى في وصفها : { .. لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. } .

فالقول فيه :

إن موسى حين تلقى كلام الله على الطور ، غدا لا شرقياً ولا غربياً ، أي انفصل عن الزمان والمكان ، وخرج هكذا من طور سيناء حاملاً الألواح ، منعقة نفسه من جهات الكون ومن حدوده ، فصح في دماغه ونفسه العصبية المشتجرة فيه ، أن يقال في وصفه وقد تمكنت منه النبوة : { وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٌ لِلْأَكْلِينَ . } أما الدهن أو الزيت الذي قال عنه سبحانه في آيات النور { .. يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. } فسيأتي ذكرها إن شاء الله في كلام علمي عن الدماغ . وأما الصبغ ، فهو لعباد الله ، صبغة الإيمان ونور اليقين في وجوههم وسلوكهم . والصبغ أو الصبغة في الإيمان والسلوك والأخلاق بشكل عام ، هي ما يتمكن من الإنسان بدءاً بالإقتناع فبالخشوع

فالحب لعزة الله ، بحيث تصبح هذه الأمور عند صاحبها عادة ثم تصبح ملكة ، لا تختلف عنه ولا يختلف عنها .

فقوله تعالى : { وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ .. } هو موسى خرج من هناك بنبوته وكامل ألواحه .

وقوله تعالى : { ... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. } هي تخصيصاً نبوة محمد (ص) وتعميماً عامة الأنبياء والصالحين .

إذن هي النبوة ..

تلقاها موسى من عزة الله الذي لا إله إلا هو على طور سيناء .

وتلقاها محمد من عزة الله الذي لا إله إلا هو من فوق سبع سماء .

موسى أكمل الله له نبوته على الجبل الذي في سيناء .

ومحمد أكمل الله له نبوته فوق السماء السابعة .

موسى أكتبه الله التوراة في أربعين ليلة .

ومحمد أقرأه الله القرآن في ليلة واحدة فحفظه . ثم أنزله عليه نجوماً مدة نبوته على الأرض .

تلك الليلة هي ليلة القدر ، وهي لا شرقية ولا غربية ، بل هي على مستوى الكون ، متضمنة عشر ليالٍ على مستوى أرضنا الدنيا ، هي العشر الآخر من شهر رمضان من كل سنة .

فنبوة محمد (ص) التي استكملها فوق سبع سماء ، كانت هنالك لا شرقية ولا غربية ، ومن أين الشمس ومشارقها ومغاربها وقد أصبحت دونه تفصل بينه وبينها السماوات السبع ، وبلغت هذه الأيام ، مليارات السنين الضوئية .

وعاد محمّد (ص) إلى الأرض ، بالشجرة المباركة الزيتوننة اللاشرقية واللاغربية ، مستمراً بها (ص) سراجاً منيراً إلى أن قبض إلى الرفيق الأعلى .

{ .. لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ .. } من مفاتيح العرفان :

الله عز وجل بكثير من آياته البينات ، يستشرف للإنسان مستقبله { .. لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ .. } واحدة من هذه الآيات المنجيات ، إذا فهمت وعمل بها وجوباً .

أنواع الولاء ، لمراكز القوى على مستوى الحياة الدنيا ، كثيرة . تضيق فتكون على مستوى الأفراد والجماعات الصغيرة النافذة . وتتسع فتستغرق جهات الأرض ، ودول الشرق والغرب .

هذه الولاءات التي تحدّها الأمكنة وتحدّها الأزمنة وتحدّها قطاعات الناس ، هي بخلاف المطلوب في تعاليم الله التي فرضها عليه ، توخياً لسلامته وخلاصه في الدارين .

هذه الولاءات تحكمها الجهات ، تشرّق وتغرّب . كمصاديق ، كمتمزق الناس ، وما زال أكثرهم يتمزق نتيجة الولاء للطواغيت في المشرق والمغرب ، وبشكل عام نتيجة الولاء لغير الله .

المطلوب هو التجرد لله ، حتى من قومك حتى من بدنك ، حتى من نفسك . وإذا لم تصل إلى أن تفنى في فناء الله ، فلن تفهم هذه الإشارات .

أن تتأمل وأن تتجرد لله جلا وعلا ، وأن تهاجر إليه من وطنك ومن بدنك ومن الناس باقياً في وطنك وبدنك وفي الناس ، تفنى في فناء الله ، ثم يعيدك بكرمه ورحمته ولطفه للصحو بعد المحو ، فتعلم أن دماغك أصبح لا شرقياً ولا غربياً ، وكذلك قلبك ، وكذلك جملة أحاسيسك : السمع والبصر ، وكلية الرصد في الشجرة المباركة الزيتوننة اللاشرقية ولا غربية .

{ .. يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. } كذلك من المفاتيح :

الدماغ ، قبل أن يغدو شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، هو من أعاجيب خلق الله دقة وتعقيداً ووظائف مذهلة وعمليات مذهلة ، نحاول إن شاء الله في نهاية هذا الفصل أن نختصر بعضها ، مما توصل إليه العلم من الكشف عن القليل من أسرار عوالم هذا الدماغ . ولكن الآن - ونحن بصدد الآية الكريمة - وجب علينا أن نتحدث عما يتعلق بها بخصوص قوله تعالى : { .. يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. } .

فالدماغ مادة دهنية فوسفورية - هذا في تعريفه العلمي - والدهن والزيت في اللغة العربية بمعنى واحد ، والفوسفور مادة عجيبة ذاتية الإضاءة . والعلم الحديث قال عن خلايا الدماغ أنها عبارة عن ملايين البطاريات التي تشحن نفسها بنفسها ، والتي كل واحدة منها تصدر الشرار تبعاً ، بحيث أنها وهي تعمل مجتمعة يكاد الدماغ بها يضيء ، هذا هو الخبر العلمي الذي توصلوا إليه فقط في القرن العشرين الميلادي ، واعتبر - وهو كذلك حقاً - من الكشوف الجلية ، التي ترتبت عليها فتوحات علمية كثيرة ، فيما يتعلق بالإنسان وحياته وحركاته وسكناته ، وأسواره النفسية والجسدية .

إلا أن هذا الخبر ، سبق إليه القرآن الكريم بما يقرب ألف وأربعمائة سنة ، وقد كان هذا الخبر في القرآن وما زال ، كنزاً من روائع كنوزه . حتى قضى الله سبحانه ، اليوم ، فتح هذا الكنز له الحمد أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً .

هل هذه خصوصية لعباد الله الصالحين ؟ أعني أن يكون الدماغ مكوناً من مادة فوسفورية دهنية يكاد زيتها يضيء بمليارات انقذاحات المحاور في ملايين البطاريات الذاتية الشحن والتفريغ الدائيين في الليل والنهار ومدى العمر ؟ الجواب : لا ، من حيث مبدأ خلق الله لأدمغة جميع البشر ، إلا أنه يصبح خصوصية ، أقصد البناء السوي للدماغ واستمرارية عمله المخلوق بعد سن التكليف عند ذكور الناس وإناثهم . وباختصار شديد : إن الدماغ مع تصاعد العمر ، إما أن يخبو تدريجياً ، حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وإما أن يقتصد ، أي يأخذ طريقاً مستقيماً ليس فيه عوج . وإما أن يزيد استنارة من نور الله ، شأن الأنبياء والرسل وخاصة الله وأوليائه . وهذا موضح في سياق آية النور هذه ، قوله تبارك وتعالى : { .. يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ .. } .

فإذن { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } كذلك هي من المفاتيح .

نور في الدماغ يزيد { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . سورة مريم الآية ٧٦ } يلقيه إلى جميع أنحاء الجسم عبر النخاع الشوكي واشتجار تفرعاته المتماسة في جسم الإنسان

الذي هو الآن العبد الصالح - وضمن عملية التغطية هذه لجسم الإنسان - طبعاً يفيضه على القلب الذي بدوره يضخه عبر الدم والدورتين الدمويتين الصغرى والكبرى في جميع الأوردة والشرابين والشعيرات الدموية التي كذلك تلتقي أطرافها بالنهايات العصبية الدقيقة لتغطي أيضاً باطن البدن وظاهره جملة وتفصيلاً : { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } . سورة سبأ آية ٣ } . هذا في رأس معاني قوله تبارك وتعالى : { .. نُوْرٌ عَلَى نُوْرِ .. } .

بقي أن نذكر ، وبغبطة كبيرة ، أن الله عز وجل قد هدى الإنسان ، منذ أيام قلائل ، على مستوى الطب وعلم الأشعة ، إلى العلاج بأشعة الليزر ، يعني إلى إجراء عمليات داخل جسم الإنسان ، بالليزر ، بديلة عن العمليات الجراحية ، أي بدون جراحة ، وكذلك حتى رتق ، وخياطة بعض الجراح الباطنية . هذا بعد أن كان سبحانه هداه ، منذ منتصف القرن العشرين إلى الكشف بالأشعة على أنواعها وبغيرها مما تفضل الله به على البشرية .

قلنا إننا نذكر هذا الخبر ، وبغبطة كبيرة ، لأنه سبحانه ما إن يكشف للإنسان عن علم يعلمه إياه ، حتى يكشف مقابله في قرآنه المجيد عن علم من سنخه وإنما بفارق أعظم ، طبعاً لمصلحة الذين يستشفون بالله - إذا احتاجوا - وبقرآنه العظيم . وطبعاً هذا العلم القرآني ، لا يستطيعه ، ولا يدركه ، إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان .

قد يقول قائل مظلم الدماغ : بلغ أهل الغرب بعلمهم الأفلاك ، وما زلنا بالنسبة إليهم كالإنسان الأول جهلاً وأمية . أقول هذا صحيح ، من حيث مقارنة ظلمانيين بظلمانيين . أما المستنيرون بالله جلّت عظمتهم ، فيقولون : بلغ أهل الغرب بحضارتهم الزنديقة دركات الجحيم ، عاجلاً أو آجلاً ، ويرفع الله النورانيين فوق هذا الفلك الدوار ، وعبر أقطار السماوات السبع ، وليس فقط هذه السماء التي لم يبلغ علماء الأرض بعدُ حدودها :

{ .. فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. سورة الكهف الآية ٢٩ } و { .. اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } . سورة آل عمران الآية ٩٧ } .

أما عن الذين اتخذوا العلم رباً ، ونسوا ربهم الله فأنساهم أنفسهم ، يقول عزت قدرته : { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَّخُوا بِمَا عَنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } . سورة غافر الآيات (٨٣ - ٨٥) } .

ومن يمنع الذين يعترضون على الدعوة إلى الله سبحانه ، وإلى دينه وطاعته ، من يمنعهم أن يكونوا هم وأبناؤهم وأحفادهم وأقوامهم أعلم أهل الأرض سواء تلقوا علمهم في المغرب أو المشرق .

والحقيقة أنه ما من داعٍ إلى الله وإلى دينه وقرآنه ، وما من رباني أو عرفاني إلا وهم يدعون إلى العلم الأمة جمعاء ، ولكن الذي قعد بالأمة عن تلقي العلم من أعلى مصادره وأصدق مصادره ، هو الإخلال بعهود الله ومواثيقه ، والشرك الظاهر والشرك الخفي اللذين اكتسحا المذاهب وعصبياتها وانشغالها فيما بينها بالفتن والخلاف والترهات ، ثم تشقق الأمة إلى دويلات متنازعة سرعان ما ضعفت وهانت حتى استبدَّ بها طواغيت أهل الأرض كفاراً ومشركين ، فابتزوها أصالتها وهيباتها وقواعد علومها ، التي كانت حكراً عليها طيلة سبعة قرون من الزمان حكمت بها المشرق والمغرب ، حتى بلغ الأمر بأحد خلفائها إذ أعجبه منظر سحابة كبيرة تتهدى في السماء ، أن يقول لها كلمته التي حفظها التاريخ : إذهبي أنى شئت فإن خراجك سيعود إلي .

حرم الأمة من العلم الحق ، خيانتها لله ولرسوله ولكتابه المجيد .

ومع ذلك فالله يتحداكم فكونوا علماء . من يمنعكم أن تكونوا علماء ، وأن تحكموا الأرض وأفلاك السماء ؟

أقول لكم ؟ لن تكونوا كذلك إلا إذا رجعتم إلى الله خاشعين خاضعين ، تائبين مستغفرين ، وإلا أن تنصروه وتنصروه ، وهو عنكم غني وعن جميع خلقه ، ولكنه هو سبحانه قرر ، والمشينة مشيئته والحكم حكمه ، قال : { .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. سورة الحج الآية ٤٠ } وقال جلَّتْ أسماؤه : { إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ .. سورة آل عمران الآية ١٦٠ } وقال .. ولكنكم لا تقرأون كتاب الله ، وإذا قرأتموه لا تتدبرونه .. وإنما تقرأون الفكر الصهيوني المملب في الغرب ، في الجامعات والكتب المسممة ، والأفلام والبث الفضائي الذي يزلزل أركان الأسر والبيوت ويصدع الشخصية الإسلامية والإنسانية ، ثم تسمون ذلك حضارة وثقافة وتقدم .

ثم إذا تليت عليكم آية من آيات القرآن المجيد ، وتوافق أن أصابت وترأ من أوتاركم فارتحتم لها فتسألون : وهل هذه في القرآن .. ما شاء الله .. تقرأون عشرات ، بل مئات كتب الثقافة التبئية ، والأفلام الحقيرة والفاجرة ، وإذا أردتم أن تتفاصحوا ، انطلقت ألسنتكم بالنقد الهدام للدين وللمؤمنين ولعباد الله الصالحين . واتهمتم الدين وعلماء الدين

بالحيلولة بينكم وبين أن تكونوا أنتم أو أبنائكم من عباقرة العلم الحديث بين الذرة والمجرة

{ .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } . هي كما ترون ، بعض آية في القرآن المجيد ولكن سرّها وقد انكشف وأثرها الذي عرف وسيعرف ، أليس كل ذلك علمٌ بها ، عنه يتفرع علم العلاج بالليزر وبقيّة أنواع الأشعة الصادرة بالضرورة عنها ، لأنها مثلٌ من نور الله الذي هو نور السماوات والأرض .

وإذا كان الله بعزته أو بملأئكته أو بأسراره الغيبية الخفية ، ينور نفس وبدن عبد صالح من عباده ، وطبيب من أساطين الطب من خلقه يعالج بالليزر مريضاً من مرضاه ، فأيهما أولى بالسلامة والعافية والحصانة من كل داء خطير ، العبد الصالح الذي يتولاه الله سبحانه بنوره ورحمته ؟ أم المريض الذي يتولاه الطبيب بأشعته ؟

صحيح أن الله خلق الطب والطبيب وخلق الأسباب ، إلا أنه فضل سبباً على سبب ، إذ جعل الأسباب درجات ، من البديهي أن يكون أعلاها أفضل من أدناها . واسمعه سبحانه في الشفاء يقول : { وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا . سورة الإسراء آية ٨٢ } . ويقول : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ آذَانِهِمْ وَعَمَىٰ أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . سورة فصلت آية ٤٤ } .

ونلاحظ في الآيتين أن الاستشفاء بالقرآن وآياته نعمة على المؤمنين وليس على عامة الناس غير المؤمنين . ففي الآية الأولى : { .. مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. } وفي الثانية : { .. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. } ثم { .. الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىٰ أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } .

بينما هو سبحانه فرّق بين كون القرآن يشفي المؤمنين دون سواهم ، وبين أشياء أخرى تشفي أو قد تشفي بقية الناس ، حتى من غير المؤمنين ، وإنما لا يكون لهؤلاء شرف الاستشفاء بالله وحده أو بكلام الله تبارك وتعالى وحده . وأعطى مثلاً عما يشفي الناس مما خلق لهم من الأدوية والأغذية تفضلاً عليهم ورحمة بهم دون أي استحقاق منهم لذلك : عسل النحل ، وقوله تعالى في ذلك ، في معرض كلام عن النحل : { ... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة النحل الآية ٦٩ } والقوم الذين يتفكرون هنا وتفكراً سليماً قطعاً ، كذلك هم المؤمنون . وتفكرهم إنما يكون أولاً على تفضيلهم على بقية الناس ، وثانياً تشريفهم وتكريمهم بالتداوي بكلام الله سبحانه ، أو بأعلى درجة من ذلك : بالصبر به عز شأنه وبحسن التوكل عليه ، لعلمهم أنه :

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد آية ٣ } وثالثاً أن يتناولوا العسل إذا استطابوه ، لا كدواء غالباً يكون فيه شيء من الإكراه أو الكراهية شأن كل دواء . كما أن فيه للعارفين شيء من الشك الخفي ، حتى إذا تناولوه كمقوٍ أو كمغذٍ ، أو أي معنى آخر يعتمد عليه من دون الله وحده سبحانه وتعالى عما يشركون .

والشفاء شفاءان : شفاء من الأمراض ، ومصدق ذلك في قوله تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : **{ وَإِذَا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِيكَ }** وشفاء من العماية والغواية والضلالات ، وقد نوّه سبحانه بالشفاءين وبخطاب للناس الكافرين منهم والمؤمنين بقوله تبارك وتعالى : **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . سورة يونس الآية 57 }** .

فقله تعالى : **{ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ . سورة الشعراء الآية ٨٠ }** يشترك فيه شفاء غير المؤمنين من الكفر وأنواع الضلالات وكذلك الشفاء من الأمراض النفسية والعضوية ، من قلبية ورئوية وغير ذلك ، كما هي الإشارة في الآية - فقط بالمؤمنين - وذلك في حال إعراض الإنسان عن الموعظة وعن اللجوء إلى الله سبحانه ذاكرًا شاكرًا .

قال تعالى : **{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا . سورة الكهف الآية ٥٧ }** .

وتأكيداً على التفريق في الخطاب بين الناس عامة وبين المؤمنين ، نذكر بقوله تعالى : **{ ... وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . سورة الحج آية ٢ }** . ونقابل هذا بقوله عز شأنه : **{ ... أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ... سورة الأنبياء الآيات (١٠١ - ١٠٣) }** . ترى الناس سكارى من شدة العذاب يوم القيامة . إلا أن المؤمنين

لا ينالهم شيء من هذا العذاب . بدلالة الآيتين الأنفتين اللتين هما إخبار عن حال المؤمنين الموقنين ، كذلك يوم القيامة . فاقنضى التنويه .

ونعود إلى قوله تبارك وتعالى : **{ .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. }** ، أي نور التفضّل المميز من الله ، على النور الجاهز في الزيتونة أو جملة كيان العبد الصالح ، وهذا لا يكون لغير أهل اليقين أو لغير أولياء الله الصالحين .

ويظهر بوضوح أن معنيين أساسيين يتداخلان في نورانية هذه الآية الكريمة : أما الأول فقد أشرنا إلى بعض حقائقه الإشعاعية التي قد تصل إلى حالة غامرة عند الواصلين .

وعلى كل حال ، وفي جميع مصاديق قوله تعالى : { ... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... } إلى هنا ، يكون للنور الذي يتعاور كيان العبد الصالح من عباد الله المهاجرين إلى ربهم ، ميزة النور المنعكس كما من كوكب دري على النور المنعكس كما من صخر أو تراب . ومن البديهي أن تكون آثار النور الأرقى ، أفعل في مجالات السلامة والعافية والإدراك ، من آثار النور الأدنى ذلك في الأنفس والأبدان ، وفي الدنيا والآخرة .

هذا هو المعنى الأول لنورانية الآية ، وهو المعنى الحقيقي الملتبس بظاهر العبارة .

أما المعنى الآخر ، فهو المجازي ، والمراد منه الهداية إلى كل ما يتعلق بالحقائق الظاهرة والباطنة ، حسب وسع وأهلية المتقربين إلى ربهم . وفي أساس عناوينه : العلم اللدني ، أي الذي هو مباشرة من لدن الله تبارك وتعالى ، وضمن قوله عز شأنه : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ... سورة الشورى الآية ٥٢ } فعبرة : { ... نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ... } تقتضي استكمال الهداية لمن يجتنبهم الله سبحانه في مراحل الزمان وإلى قيام الساعة . يؤيد هذا وبقوة ، قوله تعالى في نهاية آية النور هذه التي نحن بصدددها ، وهذا هو نص آخر مفاتيحها : { ... نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . } .

الدماغ - الزيتونة أو المفاعل النووي المعجز :

=====

هل لوزن دماغ الإنسان أهمية لتمييزه عن بقية المخلوقات المعروفة ؟

قبل أن نجيب على السؤال ، لا بد من التنبيه ، إلى أننا عندما نتكلم عن وزن الدماغ والفوارق فيه بين الإنسان والحيوانات ، فإنما نعني دائماً الوزن النسبي ، أي المتناسب مع أوزان الأبدان . (فالفيل مثلاً يزن دماغه ثلاثة أضعاف وزن دماغ الإنسان ، والحوث الكبير يزن دماغه خمسة أضعاف دماغ الإنسان . ولكن النسبة ما بين وزن الكائن ووزن

دماغه هي أرقى وأكبر شيء عند الإنسان فقط ، حيث تعادل النسبة تقريباً : ٧٣ , ٢ ٪ (*)
بينما هي عند الحيوانات القاضمة : ٢ , ٠ ٪ (**) .

وهكذا على الصعيد الإنساني ، فقد يكون وزن دماغ إنسان نحيل بالنسبة لجسمه ،
هو أرجح وزناً من دماغ إنسان ضخم أو يعادله ، أو تنعكس القضية ، فالأمر متعلق بأمور
متداخلة بين النشأة الأولى والنشأة الثانية (***) .

إلا أن الأهم في الموضوع ، هو أن رجحان الوزن ، وإن كان دليلاً على السعة ، إلا
أنه ليس دليلاً على العقل المؤمن الفعّال ، ولا على سلامة التفكير واتباع الحق .

ولتفصيل ذلك ، فإنه ما من شك أن لفارق الوزن بين دماغ إنسان ودماغ إنسان آخر
، دلالة أكيدة على الفارق بالطاقة والكفاءة ، والقدرة على الإنتاج والفاعلية ، ولكن يتضح لنا
من القرآن المجيد ، أنه مع كل رجحان ، تكون هناك زيادة في التكليف وحمل المسؤولية ،
قوله عز وجل :

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... سورة البقرة الآية ٢٨٦ } .

(*) (الطب محراب العلوم) للدكتور الجلي .

(**) (الطب محراب العلوم) للدكتور الجلي .

(***) أنظر كتابنا (العقل الإسلامي) .

وقوله تعالى :

{ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ... سورة التوبة الآية ١٠٥ }

وقد ضرب الله مثلاً على سعة وأوزان الأدمغة وأصحابها ، ومقادير ما تنتج ونوعية
ما تنتج ، وما ينفع من نتائجها وما يضر ، والمحق منها والمبطل ، والسقيم منها والصحيح
، بقوله عز شأنه : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .
سورة الرعد الآية ١٧ } .

وفي الآية التي تليها ينقلنا تبارك وتعالى من روعة المثل البليغ وجمال رموزه ، إلى ما يترتب على هذا المثل من واقع الحال وخطر المسؤولية ، بسبب ما تحمله هذه الأدمغة من حريات عامة وحرية خاصة هي حرية الاختيار ، وبخصوص انقيادها للعقل المهتدي بالله ، أو انقيادها لهوى النفس وأهواء الآخرين ، وبكيفية تفاعلها مع ما تحمل ، وأيضاً بخصوص ما تترك من آثار .. ونتيجة كل ذلك .. بقوله سبحانه :

{ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . سورة الرعد الآية ١٨ } .

ثم هذا النص المدهش في كتاب الله الكريم ، وفيه حوار بين التابعين الضالين ويسميه الله **{ المستضعفين }** ، وبين الذين ركبوا رؤوسهم عناداً وبهيمية من أصحاب الأدمغة الوازنة ، ويسميه الله **{ المستكبرين }** يقول عز شأنه :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنْ صَدَقْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة سبأ الآيات (٣١ - ٣٣) } .

الإنسان ليس أفضل خلق الله :

=====

قوله عز وجل :

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا . سورة الإسراء الآية ٧٠ } .

فيستفاد من هذه الآية الكريمة أن الإنسان ليس هو أفضل مخلوق في خلق الله ، ومن الأدلة على ذلك ، قوله عز وجل مخاطباً إبليس لعنه الله عندما امتنع عن السجود لله سبحانه ، باتجاه آدم ، بعدما أمره الله بهذا الإتجاه :

{ ... أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ . سورة ص الآية ٧٥ } إذ إِنَّ { الْعَالِينَ } خلق لم يدخل في الملائكة الذين أمرهم الله بالسجود لآدم عليه السلام .

يبقى أن الخلق الكثير الذي فضل الله آدم عليه هو المدرج في الآية الكريمة :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ... سورة الجاثية الآية ١٣ } .

وقوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... سورة لقمان الآية ٢٠ } .

مع الإلتفات إلى لفظة (ما) في الآيتين ، حيث تستعمل في اللغة عامة لأصناف الحيوان وللأشياء .

يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول :

=====

أما ذوا الأدمغة الكبيرة الذين ضلوا وأضلوا فمن شأنهم على اختلاف درجاتهم وحقول نشاطهم ، أن يبرزوا وينشهروا ، ويتصدروا المواقع في المجتمعات والأمم ، ويكون لهم من ذوي الأدمغة الأدنى وزناً ، أو من ذوي النفوس الضعيفة ، أتباع وأتباع ، كان فرضاً عليهم وبالحد الأدنى من التفكير السليم ، أن يتبعوا أولي الألباب من الأنبياء والأولياء والصديقين . وقد أوجب الله عليهم ذلك ويسرهم لهم إلى قيام الساعة .

أما وقد هانوا وانقادوا إلى ذوي الأدمغة الكبيرة الشاردة ، والنفوس المجرمة ، بين إلحاد وعلمنة ونرجسية ، أو قوة مالٍ وجاهلية ، في شتى نشاطات الحياة ، من سياسة وعلم

ظني ، وشعر وأدب وفن ، وأخلاق ، كل ذلك مما تمارسه أبالسة الأقلام أو أبالسة الإعلام ، فسيكون لهم مصير لا تنفع معه ندامة . والله عز وجل يصور مصيرهم بقوله :

{ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ . سورة الأحزاب الآيتان (٦٦ - ٦٧) } .

الفوارق في الأدمغة :

=====

كما رأينا بخصوص المفاعل الذي هو المخ ، فإن الفارق التقريبي بين وزن دماغ الإنسان ومتوسط دماغ القردة العليا هو : ١٣٦٠ - ٣٦٠ = ١٠٠٠ غراماً لمصلحة الإنسان ، أي بنسبة واحد عند القردة العليا إلى أربعة أمثال عند الإنسان المتوسط .

روعة الإنسان بين العقل والنفس والدماغ :

=====

إن الدماغ هو (اللب) الأوسع نشاطاً ، أو هو المفاعل الأعلى خطراً في عالم الجواهر المادية . فهو مركز التبليغ والترجمة والتفسير ، إضافة إلى الإحساس والذاكرة ، والعواطف والقدرة على الحركة . فإن ضاق عن العقل ، تحوّل إلى الآلية والغريزية بنسبة ما يضيق ، وبقيت له هذه الأمور كما هي للدماغ الألكتروني أو المخلوقات الغريزية الراقية .

أما العقل ، فهو الروح المؤيد بعلم الفطرة ، السابقة على البدن ، ومن ميزاته إدراك الحقائق المجردة ، البسيطة والمركبة ، غير مستقل عن ربه تبارك وتعالى ، خالد ، يغضب ويتأذى ، ولكنه لا يتعب ولا يتعذب ، . تأخذ منه خلايا الدماغ توجيهاً وتعليماً

وهداية حسب استعدادها ، يرجع إلى ربه ، والنفس هي التي تسعد أو تشقى ، ووظيفته دعوة النفس إلى خالقها الله الذي لا إله إلا هو ، ومقاضاتها بتعاليمه سبحانه ، مبيناً لها الحق من الباطل ، والمطلوب من السلوك في معراج العباد . موصلاً إياها إلى أعلى درجات اليقين والعلم - في حدود العقل الإنساني - والسعادة الحقيقية في الدارين - قول أحد العارفين : لو عرف الملوك سعادتنا لقاتلونا عليها بالسيوف .

كل ذلك برموز تفهمها جميع لغات البشر ولهجاتهم . هذه الرموز يقوم الدماغ بترجمتها بناءً على ما عِلِمَ وَلِقِنَ ، ليقدمها للنفس باللغة التي ترتاح إليها ، وذلك أثناء التزام النفس بكلية البدن والجهاز العصبي . أما إذا تحررت النفس ، فلا تعود بحاجة إلى الدماغ ، ولكنها تحتفظ بأدائه ، وتفهم لغة الرموز الكونية بدون ترجمة ، فضلاً عن إمكانية تعبيرها بأية لغة شاءت لم تكن تعلمتها في حالة الارتهان .

وإن العلاقة بين العقل والدماغ ، هي علاقة الطاقة الغيبية الموجهة لبرمجة مفاعلهما الأرقى في جواهر المادة . والنفس هي التي تسبب انفتاح الدماغ على العقل أو انغلاقه دونه ، أو جعله في حالات بين الحالتين . يعني يكون هذا الواقع المتكيف ، رهن بمدى إقبال الإنسان على ربه ، أو تباعده عنه جَلَّتْ عظمتة .

وفي حال تلبس النفس بكفرٍ أو شركٍ أو استكبار ، أو الوقوع في هوىٍ أو إثم ، ينشغل الدماغ والنفس بالحدث منصرفين عن العقل ، فتفقد النفس بذلك الهداية والسداد والرشاد ، وتحاول الاستئثار ظالمةً بموقع القيادة ، مآذوناً لها بذلك تبعاً لاختيارها وتنكرها لولاية الله ورعايته ، فيتخلّى عنها الله امتهاناً وإمهالاً وتحجيماً ، وليس إهمالاً وتفويضاً ، وفيها قال سبحانه :

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . سورة الشمس الآيات (٧ - ١٠) }

ومن حيث رعايته سبحانه ، للأنفس البارة النقية المجاهدة ، وخذلانه للأنفس الجاحدة المعاندة البهيمية في الحياة الدنيا وعند الموت ، وحين الانتقال من محطة الأنفس ، هذه الأرض الدنيا ، إلى الأرض العليا على اختلاف درجاتها ، قوله تبارك وتعالى في الأبرار :

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ... سورة النحل الآية ٣٢ } .

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي .
وَادْخُلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات (٢٧ - ٣٠) } .

وقوله سبحانه في أهل الضلالة :

{... وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا
أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْتَكْبِرُونَ . سورة الأنعام الآية ٩٣ } .

وهنا يخطر سؤال مهم ، وهو كيف يكون مستوى الإنسان الفكري والإنساني عامة ،
إذا هو لم يقلع عن غيبه ولم يعقل ؟ والجواب ، ولو أنه قد مرّ موزعاً خلال البحث ، إلا
أنه ينبغي إيجازه بالقول : يكون شأنه كشأن حيوانٍ راقٍ متحضر ، متعلم ، أمثال الأنواع
العليا من القرود ، إنما يميزه شكله وذلاقة لسانه وقلمه ، وكثرة الأرقام التي يتعامل معها ،
والمهارات التي يباشرها في شتى حقوله ، وكذلك حجم دماغه المتناسب مع بدنه . وقد
تتراوح هذه الحالة بين التضيُّق في التعامل مع العقل ، مع رحمة الله وسمائه وأسمائه ،
وبين تجافي الإنسان وتباعده عنها ، ثم انقطاعه بشكل نهائي ، حيث لا يفلح بعد ذلك كيد في
إذهاب غيظ ، قوله تعالى :

{ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ
لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ . سورة الحج الآية ١٥ } .

حقيقة الإدراك من الذرة إلى المجرة :

=====

لا شك أن العقل هو الميزة الكبرى التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات ، إلا أن
هذا لا يعني عدم الوعي أو الإدراك النسبي لدى المخلوقات غير العاقلة ، من الجمادات إلى
النبات إلى الحيوان ، إلى الإنسان الذي سخر له الله ما في السماوات وما في الأرض
جميعاً منه سبحانه .

والحقيقة ، إنه ثبت بوضوح ، أن لا شيء في الكون المعروف ، له صفة الجمود
الحقيقي ، من الذرة إلى المجرة ، بل الأشياء كلها في حركة دائمة دائبة . حتى تماسك الحديد
الظاهري ، ليس هو كما نحسُّه ونفهمه ، بل هو ربما بالنسبة لمخلوق أرقى من الإنسان ،

وأكثر إحاطة وأبصر ، سيبدو مختلف المظهر والملبس ، وقد تظهر ذرات الحديد لهذا المخلوق الأعلى من الإنسان ، كما تظهر لنا نحن ، عبر التلسكوب ، المجموعة الكوكبية في أبعادها عن بعضها في حركتها المتصلة .

المناظير المكبرة والمقربة العجيبة ، التي علمها الله للعلماء ، تحكي حكايا من هذا القبيل . ومن هنا أيضاً ، إن لهذه الأشياء نسب من الوعي ، درجتها فيها خالق كل شيء ، المحيط بكل شيء الله العلي القدير .

ومن الأهمية بمكان ، معرفة أن الإنسان مجرداً من العقل ، هو أرقى وعياً وإدراكاً وغرائز ، من جميع الكائنات المحسوسة . أما بالعقل ، فهو أقدم من ذلك ، إذ أن العقل صلته مع خالق الأكوان الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . فأرضنا هذه التي نحن عليها والصخور التي فيها ، والجمادات (ظاهرياً) لها نسبة من الوعي. إلا أن النبات أظهر حياة وإحساساً ، كما أن الحيوان درجته وميزاته على النبات واضحة . وهكذا ترجح المعطيات عند الإنسان على الجميع ، وعياً وإدراكاً وغرائز ، وإرادة ومنهجية . وكل ذلك بدون العقل ، فالعقل أقدم من كل ذلك .

وهكذا ، فلم يعد عبثاً ، أو مجازاً ، فهمنا لقول الله عز وجل ، للسموات والأرض :

{ ... إِنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . سورة فصلت الآية ١١ } .

وقوله تعالى :

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . سورة الإسراء الآية ٤٤ } .

ثم قوله عز وجل :

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . سورة يونس الآية ٦١ } .

فإذن نستنتج من الآية الأولى أن الأشياء واعية ، والحقيقة أنه لا معنى لتسبيح الأشياء وهي لا تعي ما تفعل .

حتى الحياة ، هي مفهوم نسبي أيضاً ، فكما نفهم الحياة للإنسان وللحيوان والنبات بدلالة الحركة وردود الفعل ، فكذلك هي للجمادات (الظاهرية) ، وحتى لأرضنا هذه وللشمس والقمر وبقية الأجرام السماوية ، وذلك أيضاً في صريح قول الله عز وجل في الآية الثانية .

فكل هذه المجسمات ، من الإنسان إلى المجرات إلى بقية الكائنات الأرضية والسماوية ، مبنية على الذرة ، أو النظام الذري . وأصبح معلوماً وببساطة أن في الذرة حركة لأجزائها لا تهدأ . و (الكتاب المبين) المذيلة به الآية الكريمة ، هو الحقائق الباطنية للأشياء ، فضلاً عن حقائقها الظاهرية ، ومن قبيل ذلك ، التركيب الذري للكون وأجزائه ، بما في ذلك أسرار الذرة وأسرار أجزائها .

وهكذا فإن جميع ما في هذا الكون متناغماً ، متناسقاً ، يسبح بحمد ربّ ذه ، واعياً مدركاً حقيقة لا مجازاً . إلا البشر ، فإنهم انقسموا فريقين : فريقاً للجنة وفريقاً للسعير .

إن درجات الوعي في الكائنات ، هي حقائق مرهونة بالألوان والأشكال . والجواهر هي معاني الحقائق وتفاعلها ونتائجها وتوجهاتها ضمن النواميس الإلهية . ندرك أن فيها من وجوه الحكمة ، وإظهار سلطان العقل ، وقوة النفس إذا انقادت إليه وانعقدت به ، فتحررت من حبس ما تحت السماوات السبع إلى سدرة المنتهى ، مرتمة بنوره منغمرةً برحمته ، على أنفاس مشتاقٍ إلى الله الحبيب الأبدي ، في صعوده يخترق السماوات بصوته يقول : لا إله إلا الله .

بلى ، هكذا فإن من خصائص العقل ، أن تنفتح له السماوات بإذن الله الحبيب الأبدي . وهذا لا يقال عن النبات أو الحيوان أو الإنسان اللارباني . فالنبات ليس له قدرة على فهم الحيوان ، أو الإفادة منه ، والحيوان يفهم النبات ومنافع النبات فيقبل عليه وكذلك يتفاعل مع أبناء جنسه ، ولكن دائماً موجهاً بدافع الغرائز ، توجهاً لا يخالفه مختاراً أبداً ، وذلك لأنه ليس لديه الملكة التي تحدد له المسار والهدف ، يعني ليس عنده خيارات لأن ذلك يحتاج إلى نفس فيها قابلية أن تستلهم وتختار ، كما هي الحال عند إنسان النوع قبل أن يصبح ربانياً ، فإذا أصبح ربانياً ، تصنّف درجة عليا دونها درجة إنسان النوع وما دونه نزولاً في سلم الخلق .

من مهمات العقل وحده إذن ، المنهجية التي تؤدي إلى الكمال ، الكمال الذي يتناسب مع العقل ، هذا الذي يسود ما دونه ، ويقود إلى الأبقى والأجمل .

ورضوان من الله أكبر لو كانوا يعلمون .

الإنسان مثلث النفس :

=====

من خلال مشاهداتنا واتفاق أكثر الفلاسفة الاسلاميين ، واستثناساً بكتاب الله وعرضاً عليه ، ثبت لنا بفضل من الله تبارك وتعالى أن لذات الإنسان ثلاث أنفس ، بينما هي أربع للرسل والأنبياء والأولياء .

أما الثلاث فهي : النامية المادية ، والحسية البهيمية ، والملهمة فجورها وتقواها .

وأما الرابعة التي هي للرسل والأنبياء والأولياء إضافة لهذه الثلاث ، فهي النورانية الملهمة .

١- فالنامية المادية ، هي البدن بحركاته العضوية ، الداخلية والخارجية ، ولها خاصية التنامي فالتناهي إلى الضعف ، وماهيتها هي المقصودة بقوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . سورة غافر الآية ٦٧ } .

٢- والحسية البهيمية ، هي الجهاز العصبي ، من الدماغ إلى النخاع الشوكي إلى أدق تشعباته العصبية في جسم الإنسان ، وقد قلنا عن الدماغ إنه المفاعل الأعلى خطراً في جواهر المادة ، وأنه هو مركز التبليغ والترجمة والتفسير ، إضافة إلى الإحساس - سيما الحواس الخمس - والذاكرة والعواطف المتضادة .

٣- والملهمة فجورها وتقواها ، هي حقيقة الإنسان ، وجوهره الباقي ، ووجهه الذي لا يفنى ، المقصود بقوله تعالى :

{ ... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ سورة القصص الآية ٨٨ } .

ويقوله تعالى :

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... سورة الروم الآية ٣٠ } .

الفصل الثاني

أطراف الجنة في الحياة الدنيا

=====

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ }

. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . سورة فاطر الآيات (٣٤ - ٣٥) { .

سَلَطْنَا اللهَ عَلَى مَا فِي الْكَوْنِ :

=====

الكون بالنسبة للإنسان - تعريفاً - هو كل ما يقع أو يُسَبَّر بحواسه أو يكون ضمن حدود عقله ، وما زاد عن ذلك فليس لنا شأن ولا حق في التعرض له .

والكون الذي يمكن سبره بالحواس أو يمكن إدراكه بالعقل الراهن - قبل الإنعتاق من البدن - هو ما حدث عنه القرآن الكريم ، بين العبارة والإشارة والتوصيف ، وبين ما يكشف لخاصة أولياء الله من ظهور الغيب وبطون الحقائق .

على هذا الكون ، سَلَطَ الله الإنسان ، سَلَطَهُ عَلَى مَا فِيهِ جَمَلَةٌ وَتَفْصِيلًا . يقيناً سيبدو هذا الكلام غريباً عجيباً لأكثر الناس ، وقد بدا لي كذلك ، لدرجة أنني أَلْقَيْتُ الْقَلَمَ مِنْ يَدِي خَشْيَةً مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، خَشْيَةً مِنْ أَنْ أَكُونَ قَدْ بَالِغْتُ أَوْ تَجَاوَزْتُ حَدَّ الْفَهْمِ ، عندما خطر ببالي هذا المعنى ، وهو أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ، قَدْ سَخَّرَ هَذَا الْكَوْنَ لِهَذَا الْإِنْسَانِ جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا . ثم تناولت القلم واثقاً بالله وبكلام الله وبياناته .

إنما قادني لهذه الكتابة ، ولهذه العبارة ، قول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ، ومعاني كلمة (سَخَّرَ) في القواميس . أما قوله عز وجل فهو :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الجاثية الآية ١٣ } .

فكلمة (مَا) في قوله تعالى : **{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ .. }** ، تعني جميع ما خلق الله تعالى في هذه السماوات ، ابتداءً بالسماء الدنيا ، وانتهاءً بالسماء السابعة .

أما في السماء الدنيا ، فمن مجموعتنا الكوكبية أو الشمسية ، إلى المجرات التي فيها مليارات الشمس ، مروراً بمجرتنا درب التبانة ، إلى الثقوب السوداء المدّعة ، إلى آخر سرٍّ من هذه السماء لم يكشف بعد ، إلى حدود السماء الدنيا التي إلى الآن لم يتوصل إليها علم الفلك الرائع على تقدمه المذهل ، وأجهزته العجيبة العملاقة .

كل هذا أصبح سهلاً فهمه ، لا سيما لمن يتتبعون خطوات العلم الجبارة في مجال السماء الدنيا وأخبارها وكشوفاتها التي تصيح من أعماقها : **{ لا إله إلا الله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة ولا عزة ولا وصول إلا بالله العليّ العظيم . }**

كذلك أصبح سهلاً فهم أن الله سبحانه سخر لنا الميزان الذي وضعه بعد أن رفع السماء : **{ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . سورة الرحمن الآية ٧ }** والميزان بالضرورة ، هو التوازن في كل شيء أوجده الله تعالى تحت هذه السماء . بما فيه الأرض وحركات الأرض وما يتعلق بها من شمس وقمر وكواكب ومجرات ، إلى نباتات وحيوانات البر والبحر . والحشرات ما دقّ منها وما كبير ، وهو ما يسمى بتوازن الطبيعة .

كذلك أصبح من البديهيات فهم قوانين الجاذبية المسخرة للإنسان تحت السماء الدنيا وحتى في باطن الأرض وجميع ما يتعلق بها أو يشبهها من قوى خفية كالضغط الجوي وضغط الماء وقوانين الحرارة والمغطة إلى آخر ما هنالك من قوى تفعل في الإنسان وفي الكون دون أن نراها وحتى دون أن نحس بها إلا بعد التأمل والتبصر والحساب .

كل ذلك أصبح يسيراً فهمه ، وما زال يتناول العلم متتبعاً تفاصيله ، كاشفاً خفاياه مستفيداً مما خلق الله له فيه من قواعد وقوانين ، ما كان للإنسان فيها أدنى فضل ، حتى كشف أسرارها ما كان ولن يكون إلا بإذن من الله تبارك وتعالى ، وضمن هذا القانون المبارك : **{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... سورة فصلت الآية ٥٣ } .**

إلا أن ما لم يتعرض له العلم بعد ، وقد نصَّ الله سبحانه على أنه موجود تحت هذه السماء الدنيا ، بقوة وبكثرة ، هو القوى الملائكية والقوى الشيطانية المسخرة كذلك جميعاً لمصلحة الإنسان ، وذلك ضمن نص الآية الكريمة : { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... } .

أما النصوص القرآنية المتعلقة بالقوى الملائكية وفعاليتها في جميع وجوه حياة الإنسان تقريباً ، ولا سيما المؤمنون ، فكثيرة جداً ، وقد عقدنا لذلك فصلاً مسهباً في كتابنا " دعوة إلى الله " فلا ينبغي لذلك التكرار .

وأما النصوص المتعلقة بالقوى الشيطانية ، فكذلك كثيرة ، وقد ذكرنا عن أنواع الشياطين وفعاليات الشياطين معاني وعبراً ، كذلك في كتابنا " العقل الإسلامي " إلا أن نصاً عنهم في سورة الصافات ، أودُّ أن أذكر به ، ملفتاً إلى ما فيه من عبر ، وما في هذا الصنف من الشياطين من قوى هائلة ، هي مسخرة كذلك لمصلحة الإنسان ، لضرورة الإيحاء في الآية الكريمة : { وَسَخَّرَ لَكُم ... } .

أقوى من المركبات الفضائية وأقوى من الصواريخ:

=====

قال الله تبارك وتعالى :

{ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنِ خَطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقْنَا أَمْ مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ . سورة الصافات ، الآيات (٦ - ١١) } .

وبين عفاريت سليمان عليه السلام وهذه العفاريت أو الشياطين التي ذكرها سبحانه في سورة الصافات ، نستطيع وبالمقارنة أن نفهم مدى القوى التي جهَّز الله تعالى بها هذه المخلوقات غير المرئية والسابحة في هذا الفضاء الشاسع .

قال تعالى ذاكراً نقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى بلاد الشام ، في كلام عن سليمان الحكيم :

{ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . سورة النمل الآيتان (٣٩ - ٤٠) } .

ففي آيات سورة الصافات هذه الأوصاف : { وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . الآية ٧ } ، ومعنى المارد ، القوي والمتمرد والخبث . ثم { لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِّن كُلِّ جَانِبٍ . الآية ٨ } والملا الأعلى هو عالم ثم عوالم ما فوق السماء الدنيا ، وهو عالم الملائكة وأخبار السماوات وفيها هندسة ما يجري وما قد يجري على الأرض وأهل الأرض في مجالات العلم والمشية والتقدير ثم القضاء الحتم الذي لا راد له . وقد كان هؤلاء المردة من شياطين الجن يتخذون - قبل بعثة محمد رسول الله (ص) - مقاعد للسمع ، كما أخبر الله سبحانه على لسانهم في سورة الجن :

{ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . سورة الجن الآيات (٨ - ٩) } .

ثم في أوصاف هذه المخلوقات في آيات الصافات : { دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . الآية ٩ } والدحر - كما في القواميس - الدفع الشديد المذل المهين مع الإبعاد ، والعذاب الواصب - في اللسان - الوصب الوجع الدائم . فيفهم من ذلك أن هؤلاء الشياطين في واقع حبس في أجواء ما تحت السماء الدنيا ، معذبون ، ذووا نفوسٍ عدوانية ، حيل بينهم وبين ما يريدون هم من سماع أخبار السماء أو من أذى لبقية ما خلق الله تحت السماء الدنيا . والصفة الأخيرة في الصافات تحسم عدم معرفتهم بشيء من أخبار غيب السماوات : قوله تعالى : { إِمَّا مِّنْ خَطِفِ الْخَطْفَةِ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . الآية ١٠ } يصدِّعه أو يمزقه أو يفجره تفجيراً .

أما قوله تبارك وتعالى : { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِّنْ خَلْقٍ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ . الآية ١١ } فيه دلالة قوية على مدى الفارق الكبير بين قوة الإنسان وقوة أمثال هؤلاء المردة ، يذكرنا بذلك بالضرورة القرآنية أحد عفاريت سليمان ، ذلك الأنف الذكر ، الذي سخره الله فيما سخر له من شياطين وعجائب .

وهذا ينقلنا أيضاً بالضرورة ، إلى مقارنتهم - أي هؤلاء الشياطين المردة ، ليس فقط بالإنسان - الذي من طين لازب - وهم كما في سورة الرحمن { ... مِّن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ . الآية

١٥} . وإنما مقارنتهم كذلك بما يصنع الإنسان من طائرات وغواصات ، ومراكب فضائية ومحطات وصواريخ وأقمار ، وما نعلم من أخبار العلم المذهل في مجالات التكنولوجيا الظاهرة والسرية وما لا نعلم .

فإذن ، إنَّ بين كل هذه الأعاجيب الآلية التي اخترعها الإنسان وأطلقها أو سيرها في البر والبحر وأجواء ما تحت السماء الدنيا ، إنَّ بينها مخلوقات هائلة غير مرئية ، هي أقوى وأعظم بكثير ، مما خلق الإنسان على دعواه ، تروح وتجيء بين آلياته وعجائبه ، تنتظر إليها ، إلى ما صنع الإنسان ، وتتمنى لو يأذن لها الله رب العزة والجبروت ، فتدمر بلحظات ، جميع هذه الأدوات الإستفزازية التي أصبحت والعلم الذي وراءها أوثاناً تعبد من دون الله عزت عظمته وجلت قدرته .

ومنها ما قد يظهر للعين المجردة ، لحكمة أرادها الله سبحانه ، وهو أحكم الحاكمين .

فإننا نعتقد - بإذن الله تعالى - أن ما يسمى بالصحن الطائرة ، التي كثر وما زال يكثر عنها الكلام . ما هي إلا حقائق ، وأشكال من هذه المخلوقات التي سخرها الله للإنسان .. الإنسان الذي ما طغى بعد في الميزان .

.. ألا تطغوا في الميزان :

=====

قال الله تبارك وتعالى : { أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ . سورة الرحمن الآيات (٨ - ٩) } . وقال تبارك وتعالى : { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى . وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى . سورة طه الآيات (٨١ - ٨٢) } .

إنسان حضارة اليوم ، طغى في الميزان .

على أبواب القرن الواحد والعشرين يتأرجح العلم مختل التوازن . الولايات المتحدة الأميركية تمسك بالميزان العالمي وتتحكم بأركان الحضارة : الإيديولوجيات والسياسة والاقتصاد وثورة الاتصالات .. تحاكم الدول ورؤساء الدول والشعوب ، أميركا هذه هي النموذج الأعلى عالمياً بالمفهوم الحضاري السائد . وأميركا هذه هي الزنديقة الكبرى والنموذج الأعلى في الطغيان في الميزان .

مثلاً واحداً نعطيهِ عن وجه أميركا التي تقود وتحكم العالم ، لنفهم مدى التردي في بقية المجتمعات ، شعوباً وحكومات ، خلا بعض الدول المباركة التي هاجرت أو تهاجر إلى الله ، متحدية الحضارة الزنديقة وأسيادها في العالم ، بين روسيا وأميركا وأصحاب الشمال :

جاء في جريدة السفير عدد الإثنين ٥ تشرين الأول ١٩٩٨ الموافق ١٤ جمادي الثانية ١٤١٩ وتحت عنوان : " بكلمات " للمفكر والشاعر الكبير سعيد عقل ما يلي :

"في روسيا ٢١٠٠٠ عصابة وفي الولايات المتحدة ؟" من أخبار " السفير " - والخبر من موسكو هذه المرة - أن " مكتب التحقيق الفدرالي " عندهم أحصى وجود ٢١٠٠٠ عصابة إجرامية تنشط داخل البلاد .

من المستحيل القبض على أفراد ٢١٠٠٠ عصابة وتحويلهم إلى المحاكم . فما تعمل الدولة ؟ تكتفي بأن تسكت مسجلة وجود المصيبة ، وتروح تتأقلم معها . هذا في روسيا . وما في الولايات المتحدة ؟

اقرأ هنا ملخصاً لما نشرته ، قبل بضعة أشهر " تايم " أهم مجلة لا في أميركا وحدها وإنما كذلك في العالم .

في الولايات المتحدة عصابات مسلحة ومنظمة التسليح والقيادة ، يبلغ عدد أفرادها ١٢ مليوناً .

وإن عرفت أن عدد جيش الولايات المتحدة هو نصف مليون فقط أدركت أن عندهم ، كما في روسيا ، مصيبة تروح الدولة تسكت عنها وتتأقلم معها .

قلنا : (والكلام ما زال لسعيد عقل)

- هذا الوضع المأساوي يضرب الدولتين : "الأولى كبرى دول العالم ، والثانية كانت ذات يوم نَدَّتْهَا ... "

طغوا في الميزان .. طغوا في العالم في ذبح الشعوب وفي حرق الشعوب وفي تجويع الشعوب ، وطمغوا مع حليفهم الصهيونية العالمية ، متوسلين كل الغدر وكل الخساسة ، وكل مفردات الشر بمضامينها لينالوا من دين الله ومن عباد الله المسلمين تحت كل كوكب .

اليوم ، على أبواب القرن الواحد والعشرين ، همُّ العالم ، بما فيه طواغيت المسلمين ، همُّ الجميع محاربة دين الله ، الإسلام ، وهذا يعني محاربة الله ، وهذا يعني أنهم أعداء الله .

وهذا يعني بمنطق الآية التي يقول فيها الله تبارك وتعالى : { ... وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ } ، هذا يعني أن غضب الله قد حلَّ عليهم ، وأنهم في الحقيقة قد هَوَوْا إلى أسفل سافلين . ومن ثم إلى الجحيم .

أما هُوِيُّهم فهو شديد الوضوح في شتى جبهات الحياة ، فكل جبهة عندهم هي من مستدعيات غضب الله جلَّتْ عظمته .

ويكفي أن نذكر مدى طغيان الفحشاء عند قذواتهم رؤسائهم ، حتى نعلم كيف يكون الناس على دين ملوكهم في الحقارات التي بعضها شذوذ الجنسين ، وأكثر من ذلك إباحة هذا الشذوذ وحمايته بقوانين .

القرآن الكريم ، يندد بهذه الفاحشة ، في تسع سور . ولعلها أكثر معصية يندد بها بهذا التكرار ، كما ويفصِّل أنواع العذاب الذي أنزله بأصحابها ، وهو من أشد أنواع العذاب .

يطول تعداد مستدعيات غضب الله في أهل هذه الحضارة .

لذلك ليس عجباً أن تكون الكرة الأرضية اليوم محاصرة بالغيوم الحرارية ، وبانشقاقات الأوزون ، وانقلاع الجبال الجليدية الهائلة من قارة الأنتركتيكا في القطب الجنوبي ، لكي ترفد بدايات طوفان ، يحدثه ارتفاع الحرارة العالمية ، هو آت على أوروبا وأكثر سواحل العالم بدءاً بأوروبا الوسطى ثم الغربية ، ثم .. وصولاً إلى نيويورك .

هذا الكلام ، هو شديد الاختصار من تقارير علماء المناخ عندهم .

هذا في التقارير المعلنة ، التي صدرت عن أكثر من عشرين مؤتمراً تداعت إليها الدول الصناعية الكبرى وعلى رأسها أميركا ، بداعي الرعب مما تحمله إليهم السماء والأرض من غضب الله العزيز المنتقم الجبار .

مفزعة تقاريرهم المعلنة ، وقد تسرّب أن ما هو غير معلن أشد إرهاباً وترويعاً .
فهل نحن على أبواب قيامة أرضية - سماوية أم على أبواب قيامة كونية ؟

قلنا في كتابنا " العقل الإسلامي " أن كليهما وارد ، وقد تحدثنا هناك بإسهاب عن أشرار الساعة ، وأنها قائمة ، ماثلة لكل ذي علم وذو عينين مؤمنتين ، تقرأن وتتبعان ما في الكتابين العظيمين : القرآن والكون .

إلى هنا حقّ للقارىء أن يسأل : وما علاقة كل هذا العرض بآية التسخير ، قوله تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... } .

تركوا الكتاب والتسخير .. وانشغلوا بالتكنولوجيا :

=====

قد - وكالعادة - قد يثور ذوو الرؤوس المملوءة بالأفكار الحضارية الدسمة ، الثائرون على الدين وعلى المتدينين المتخلفين عن التكنولوجيا وغزو السماء .

في الحقيقة ، نحن معكم من الثوار ، وإنما مشكلتنا التي باعدت بين منهجيتنا ومنهجيتكم ، هي أننا آمنّا عميقاً بكتاب الله ، وأيقنا أنه الحق من رب العالمين : { ... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . سورة فصلت الآيات (٤١ - ٤٢) } كما قال الله تبارك وتعالى .

ووجدنا في هذا الكتاب ، العجب العجيب ، من إمكانيات التسخير بآيات الله بإذن الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

لا سحراً ولا شعوذة ، وإنما تسخيرات لقوى غير مرئية فاعلة ، سمّها نورانية إذا شئت ، وبشتى أنواع الأشعة المعروفة ، وربما غير المعروفة في علومنا الأرضية .

يعرف ذلك كل عالم ديني ، وكل مؤمن ورعٍ تعرض بشكل أو بآخر لبعض ما تعلم من الغير ، أو لبعض ما علمه الله سبحانه من الرقى والتعاويذ .

تعامل بذلك أنبياء وأولياء وأئمة أطهار ، وهذا أمر مجمع عليه عند كافة المسلمين . لذلك أقدمنا على عرضه بقوة المحقّ وعنفوان المحقّ ، وبروح التحدي في مواجهة المستقيين من الدين ومواجهة المبطلين .

نحن هنا ، ندعو إلى كتاب الله المجيد ، دون أن نتنكر للتكنولوجيا ، ويا حبذا لو أننا ركبنا أجنحتها منذ العباس ابن فرناس ، المسلم الذي اخترع أول طائرة في العالم ، ولكن لله في خلقه شؤون ، تبعاً لإقبالهم عليه وعلى كتابه سبحانه ، أو تأجيلاً لهم أو تجميداً تبعاً لإدبارهم .

وهل الله سبحانه أعطى التكنولوجيا لأهل الغرب وأهل الحضارة الزنديقة حباً وكرامة ؟ لن نخوض في هذا لأنه يخرج بنا عن أصل موضوعنا .

وموضوعنا الذي هو آية التسخير الكريمة لا يدخل إليه إلا بمفتاح أساسي وكبير ، والمفتاح هو هذا السؤال :

هل الله سبحانه وتعالى ، سخّر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، وجعل أيدينا فوق كل ذلك ، ليكون كل ما في السماوات وما في الأرض في خدمتنا بسلطان منه أم بسلطان منا ؟!

هذا أولاً .. وثانياً ، هل للإنسان سلطان خارج عن سلطان الله عزّت عظمته .

ولنحسم الأمر وبسرعة بالنسبة للسؤال الثاني ، فنرى بعين العقل أنه يستحيل الخروج من هذا الكون أو الوجود بأطواله وأبعاده وأعماقه وأسراره لأنه كله خلق الله وملكوت الله .

فيبقى السؤال الأول ، وجوابه أن الإنسان لا يمكن أن يتوصل إلى علم أو إلى دراية أو انتفاع بشيء مما خلق الله في السماوات والأرض إلا بسلطان من الله .

هذا السلطان هو نسبي ، يعطيه الله عز وجل للأقوام والأمم والأفراد مترتباً على قربهم أو بعدهم منه سبحانه . ومنهم من يعذبهم به فيكونوا من مصاديق قوله : { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ... سورة مريم الآية ٧٥ } وليري جميع البشر

صدق وعده جل شأنه : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .
سورة فصلت الآية ٥٣ } .

ولشرح ذلك نذكر ما جاء في سورة الرحمن قوله عز وجل :

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَافْذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ
وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . سورة الرحمن الآيات (٣٣ - ٣٥) } .

يروى أن الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه ، استدعى أحد كبراء علم الكلام
عباية بن ربعي الأسدي وكان له أتباع يقول ويقولون إن الإنسان يستطيع بدون الله أن يفعل
وأن .. وأن .. وقد دبجوا في ذلك مقالات ورسالات . فسأله أمير المؤمنين يا عباية ماذا
تقولون في الإستطاعة . قال كما تسمع عنا يا أمير المؤمنين . قال : يا عباية والله إن كنت
تقول أنك تستطيع بدون الله قتلتك . وإن كنت تقول إنك تستطيع مع الله قتلتك . قال : إذن فما
يجب أن نقول يا أمير المؤمنين . قال تقول : أن لا استطاعة إلا بالله العليّ القدير وحده لا
شريك له . يا عباية أو ما تسمع العلماء وعامة المؤمنين يتعبدون بالقول : لا حول ولا قوة
إلا بالله . هنا سأل عباية : يا أمير المؤمنين معلوم معنى لا قوة إلا بالله ونحن نعلم أن الحول
من معاني القوة فلماذا التكرار . قال : ليس كذلك . وإنما المعنى : لا حول عن معاصي الله
إلا بلطف من الله ، ولا قوة على أداء الطاعات لله إلا بتوفيق من الله جلّت عظمته ..

وفي كلام لأحد الصادقين سلام الله عليهم : " هو سبحانه المالك لما ملّكهم ، وهو
القادر على ما أقدرهم عليه .. "

بومضة عين أتى بالعرش من اليمن إلى بلاد الشام :

{ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ
مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ... سورة النمل آية ٤٠ } .

قوله تعالى : { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ .. } هذا الكتاب أي كتاب ؟ ما دام
القائل الذي عنده علم من الكتاب ، في مجلس سليمان عليه السلام ، فلا يمنع أن يكون
الكتاب الذي عناه هو التوراة . أي الكتاب الذي أنزله الله تعالى قبل سليمان على موسى

عليه السلام . وما دام الأمر كذلك ، ففي التوراة مفاتيح من مفاعيلها ما علمناه من نقل عرشٍ من اليمن إلى الشام ، كان يقتضي مارداً من مرده الجن بذل جهدٍ وقوةٍ ومدةٍ زمنيةٍ ليتمكن من حمله ونقله إلى المكان إياه . بينما استطاع الذي عنده علم من الكتاب أن يأتي به بومضة عين . وذلك معنى قوله : { .. قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. } .

وما دام الأمر أيضاً كذلك ، فحتماً إن في القرآن الكريم مفاتيح من شأنها أن تكون أعظم فاعلية من تلك التي في التوراة ، لسببين أقوى من وضوح الشمس :

أولاً : أن الله سبحانه نصَّ على أفضلية القرآن الكريم على الكتب السماوية التي من قبله . قال سبحانه مخاطباً رسوله محمداً (ص) :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... }
سورة المائدة آية ٤٨ {

فقوله تعالى : { .. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. } يعني القرآن الكريم ، وقوله : { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... } أي ما قبله من الكتب السماوية المنزلة . فجميع المنزلات أصلها كتاب واحد ، تدرج مع الأنبياء من البدائية إلى الكمال المتناسب مع ترقى البشرية ، بثورات العلم عقلاً ونقلاً وتجاريب . يتمحور ذلك كله حول التعاليم الإلهية ، حتى كان آخر الرسالات مختوماً بكمال الرسالة الخاتمة المنزلة على رسول الله محمد (ص) ، متمثلة بالقرآن العظيم . والكتاب الذي يهيمن عليه القرآن الكريم ، هو كذلك حصراً ، التوراة والإنجيل . وإشارة إلى هذه المعاني بخصوص لفظة (كتاب) نستفيد منها من قوله تعالى :

{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . سورة البقرة آية ٢١٣ } .

والسبب الآخر في أفضلية القرآن المجيد وبلغ أسرارهِ في ظواهرهِ وبواطنهِ ، هو حفظه من قبل الله تبارك وتعالى ، من أن يزداد عليه أو ينقص منه أو يحرف الكلم فيه عن مواضعه كما فعلوا بالتوراة وفعلوا بالإنجيل . قال تعالى فيه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . سورة الحجر آية ٩ } .

وفي إشارة لفاعلية ما فيه من مفاتيح بإمكان القرآنيين إذا أوتوها ماذونين بتفعيلها ، أن يغيروا بها وجه الأرض ، والحضارة الزنديقة هذه إلى حضارة كريمة ، يحكمها الشرف والعدل والمحبة ، وليس وحوش البشر وطواغيتهم ، قوله تعالى :

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . سورة الرعد آية ٣١ } .

بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا :

=====

{ .. بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } هذه الخلاصة هي خلاصة الآية السابقة : { وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ... } وهي قلبها ومحورها التي تدور عليه حقائقها وأسرارها ، بل هي المحور الذي يدور عليه القرآن العظيم كله ، والوجود الأزلي الأبدي السرمدي كله .

وغاية درجات العلم هي إدراك هذه الحقيقة : أن { .. بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } .

ولن تقوم للمسلمين قائمة من حالة التردّي التي هم فيها حتى يدركوا هذه الحقيقة : أن { .. بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } .

ولن يدركوا هذه الحقيقة حتى يتبعوا هذه المنهجية الرائعة البسيطة المنجية ، على مستوى الأمة وعلى مستوى القيادات :

أولاً : على مستوى الأمة ، فإن يتوخى المسلمون العلم بالله . العلم الذي آتاهم الله إياه عن نفسه وإحاطته بهم ، وقوة حضوره سبحانه معهم وهيمنته على الكون جملة وتفصيلاً . وأن يتفهموا معنى الإحاطة ، انطلاقاً من الآية الكريمة ، التي فيها أعظم تعريف لله تبارك وتعالى عن نفسه :

قوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . سورة الحديد الآية ٣ .

وبعد هذه الآية مباشرة قوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . سورة الحديد الآيات (٤ - ٥) } .

هذا أولاً . وسنعود إنشاء الله لتفسير هذه الآيات .

أما ثانياً ، وعلى مستوى الأمة ، فإن يكثر المسلمون من قراءة القرآن الكريم ، ويعملوا بطواهره ، فإن كانوا صادقين صديقين ، يؤتهم الله من بواطنه وأسراره ، ومن مفاتيح أرضه وسماواته التي فيه ، مع تفصيل ما شاء منها لمن شاء منهم سبحانه له الحمد .

على أن تلاوة القرآن وتدبره واجب عيني ، وهي من أفضل العبادات وأفضل الطاعات التي لا يقبل في حال الإعراض عنها وعدم الإحاطة بها عذر لمعتذر ، وذلك في نذيره سبحانه إشارة إلى محاكمته الجاهلين بالقرآن المعرضين عن آياته أو المكذبين بها . قوله سبحانه :

{ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . سورة النمل آية ٨٤ } .

مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ مخيف هذا السؤال يوم الحساب ، يوم القيامة . ولا سيما لأكثر الأكاديميين من المسلمين والذين يطلقون على أنفسهم إسم النخبة ، أي المتقنين من حملة الإجازات فما فوق .

ومن البداهة لهؤلاء حتى يحملوا إسم النخبة المتعارف ، أن يكونوا قد قرأوا وتمعنوا بعشرات الكتب والمجلدات وربما بالمئات منها إضافة إلى مواد الاختصاص وهم مع ذلك لا يعرفون القرآن الكريم . وربما بعضهم يتلوه خطأ إذا تلاه ، وقليل منهم يقرأونه قراءة صحيحة وإنما لا يتدبرونه ، أي أنهم لا يفقهون معانيه ولا مرامييه ولا عظمائه ، ناهيك بأسراره ومفاتيح السماوات والأرض التي فيه . هؤلاء ستمتقع وجوههم وترتعد فرائصهم ويتمنون لو أن الأرض انشقت فابتلعتهم ، عندما يطرح عليهم السؤال المخيف : { .. أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ؟! وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ؟! أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟! } .

ويقينا - كونهم النخبة ، ولو أنهم هم سموا أنفسهم كذلك - فسيتحملون ، بل ويحملهم سبحانه ، مسؤولية فشل هذه الأمة - زمانهم - وإحباطاتها ، بعد أن يحبط أعمالهم ، مهما كانت في أنظارهم وأنظار العامة مجيدة وجيلية ، حيث لا يقبل عمل بلا إيمان حقيقي ، ولا إيمان حقيقي لمسلم بلا قرآن ، وتدبر واعٍ للقرآن .. الكريم والمجيد والعظيم ، تصديقاً وتطبيقاً .

هل يعدم القرآني العادي فاعلية المفاتيح ؟

=====

أعني بالقرآني العادي ، الذي ليس في درجة الأولياء الذين يفتح عليهم الله سبحانه من فضله ورحمته ، من المعارف والحكمة ومغاليق المعاني والأسرار ما شاء أن يفتح ، وهؤلاء في العادة أهل عبادة ونسك واجتباء ، وهجرة عن مفاتن الدنيا وحتى عن مغريات الآخرة ، إلى الله وحده ، الحبيب الأعظم .

هؤلاء العارفون بالله ، قد يؤتي الله بعضهم كذلك من المثاني التي أتى منها محمداً (ص) ما شاء سبحانه ، وهذه المثاني هي من أعلى مقامات الذكر والثناء والدعاء والتقرب إلى الله في آن واحد . وقد جاء عنها في القرآن الكريم قوله تعالى :

{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . سورة الزمر آية ٢٣ } .

ولقد عقدنا عن المثاني ومعانيها ومغازيها فصلاً في كتابنا " الحكمة الإسلامية ، بحوث من مقتضيات العصر " . وينبغي هنا أن لا نطيل فيها ، لكي لا نبعد عن السؤال : هل يعدم القرآني العادي فاعلية المفاتيح ؟ أو المثاني ؟ إذا لم يكن يعلم أنها من أسرار الله في كتابه ؟

في الحقيقة أنه من فضل الله العظيم على القرآنيين خاصة وعلى المسلمين ، بل وعلى جميع أهل الإيمان عامة ، أن جعل الله سبحانه في قراءة القرآن الكريم فوائد جلية

للقارىء العادي في نفسه وبدنه ومتعلقاته ، وكلما كان أكثر تدبراً كان أكثر فائدة ، فضلاً عما فيه من أدعية خاصة وعامة تنال بركاتها المؤمنين أينما كانوا ، ولا سيما تلاوة ما أسماه الله سبحانه مقاليد السموات والأرض ، أي المفاتيح التي نحن بصدددها . قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٦٣ :

{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . }

وقوله تبارك وتعالى في سورة الشورى الآية ١٢ :

{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . }

من هنا وجوب الاعتبار ، أنه كلما زاد عدد قراء القرآن على مستوى الأمة ، في البيوت والمساجد والمدارس وكل مكان تمكن فيه التلاوة ، حتى في جبهات القتال ، رفع الله عن الأمة بعضاً من غضبه وخذلانه ، وآتاها نصره على أعدائه وأعداء دينه ، وأنقذها من الهوان التي هي فيه إلى العزة التي يحبها لها والسؤدد والكرامة .

وحتى يوم القيامة ، تتفاضل الأمم بمدى التزامها بكتبتها وستحاسب أمة القرآن بالقرآن ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . }
سورة الجاثية الآية ٢٨ .

كما سيحاسب كل فرد عن نفسه ، كذلك بالقرآن ، وعن اعتقاده في كونه منزلاً من الله سبحانه على قلب رسوله محمد (ص) جملة وتفصيلاً . وأن القرآن المجيد فيه صفوة دين الله ، وهو الصراط المستقيم . وقد وصف الله سبحانه من يشك في القرآن المجيد ، أو من يكفر بكونه من لدن الله تبارك وتعالى ، وصفاً تختلج له العروق ، وتضطرب القلوب التي في الصدور خوفاً وجزعاً ، قال تعالى في سورة المدثر :

{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأَصْلِيهِ سَقَرًا . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي

وَلَا تَذَرُ . الآيات من (١١ - ٢٨) { .

ثالثاً : لكي تكون مقبولاً عند الله ولياً من أوليائه :

=====

فأول عمل تعبدى يتفضل به عليك سبحانه هو أن يتقبلك في فناءه . ثم أن تفنى في فناءه .. طاعةً وحباً . والفناء دار البيت .

أما كيف ؟ فيستحيل أن تعرف قبل أن تصل .

وهذه أول وأهم مراحل الهجرة إلى الله سبحانه وتبارك وتعالى عما يشركون .

ثم أن تحب الله أعظم الحب ، وإذا أحببك هو سبحانه أدخلك في بحر أحديته ، وآتاك أنواراً تصيرك من مصاديق قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور الآية ٣٥ } .

ثم قوله تعالى :

{ .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } .

وأن تكون :

{ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور الآيات (٣٦ - ٣٨) { .

وأظهر هذه البيوت ، بيت نفسك .

وأن تعي هذا الحديث الممثل لروح القرآن وأصالة العقل ومغزى التوحيد والتفريد والشمولية والإحاطة والهيمنة وسائر معاني الأسماء الحسنى ، وأن تقع فيه ، وهو حديث مهيب بن الورد :

" إذا وقع العبد في ألهانية الرب ومهيمنية الصديقين ورهبانية الأبرار لم يجد أحداً يأخذ بقلبه . "

يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من أنوار الربوبية والأسماء الحسنى ، وصرف همه وإرادته إليها ، عزف عن الناس ، حتى لا يميل قلبه إلى أحد ، وأحب الله الحب الأعظم حتى ليملك عليه قلبه وعقله ونفسه وأشرف أحاسيسه .

وفي تفسير هذا الحديث في اللسان (*) قال : أي لم يجد أحداً يعجبه ولم يحب إلا الله سبحانه .

وفيه (*) " قال ابن الأثير : هو مأخوذ من إلهٍ وتقديرها فعلائية بالضم ، تقول إلهٌ بين الإلهية والألهانية ، وأصله من إله ياله إذا تحير . يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف همه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد . "

نحن قلنا : عزف عن الناس ... وأحب الله الحب الأعظم ... هكذا تكون - إذا واليته حق ولايته سبحانه - من الذين اجتباهم الله وأورثهم الكتاب وأذهب عنهم الحزن في الدنيا والآخرة ، قوله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله محمداً (ص) ومنوهاً بورثة الكتاب من أوليائه :

(*) لسان العرب لابن منظور ج ١٣ باب هـ مادة أله ص ٤٦٧ دار صادر .

{ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . سورة فاطر الآيات (٣١ - ٣٥) { .

يبدو إذهاب الحزن - في الآية - مقروناً مع الآخرة بعد دخول الجنة ، والحقيقة ، أن العبد الصالح قد يؤتى أن يكون من مصاديق هذه الآية { .. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ } .. في الحياة الدنيا ، ولكن بعد أن يكون قد مرَّ في أنفاقٍ من الابتلاءات في الجهادين الأكبر والأصغر : جهاد النفس وجهاد أعداء الله وأعداء دينه على اختلاف أنواعهم ومشاربهم . فبعد أن يكتب له الفوز إذا كان من الصديقين وأهل اليقين ، يؤتية الله سبحانه ، وينسبٍ تتناسب مع مؤهلاته ، أن يجد نفسه في ظلال هذه الآية الكريمة ، متعبداً بتلاوتها بين نوم ويقظة وإحساس عميق بانطباق معانيها عليه في المراحل المتقدمة من هجرته إلى الله سبحانه . يداخله معها شعور عميق بالأمن والطمأنينة ، والراحة النفسية والعصبية ، ولو كان في قبضة عدوه أو تحت قذائفه أو في حميا معركة أو أية مواجهة معه ، ومن البديهي أن يصحبه هذا الشعور ، في جميع المواقف في حياته الاجتماعية ، فيطيعه بالحكمة والشجاعة والصفاء ، والقدرة على الفصل بين الأسود والأبيض في مجالي المعاني والضمائر ، وحتى بين الرمادي والأبيض . فيكون ذلك له من جملة الثوابت التي تثبته ولياً من أولياء الله تبارك وتعالى .

فإذا أصبح على بيئة من ربه ، وأنه أصبح من عباده الصالحين ، يصبح همه الله وحده ، ذاكرةً شاكرةً ، متهيباً ، خائفاً من الوقوع في أدنى خطأ قد لا يرضي الله سبحانه ، لا الماضي يشده فيتحسر على فواته ، ولا المستقبل يشغله عن حبه لربه وعن ذكره وشوقه إليه ، حتى أنه ينشغل بحب الله سبحانه عن الجنة والنعيم الموعود ، فيصبح الله عنده ، هو جنته ونعيمه وروحه وراحته ، يأنس أكثر ما يأنس به وحده ، بمناجاته وبالتأمل في آياته ، وكلما ناجى وتأمل ، كلما فتح الله عليه فتوحاً من العلم ، ومن بواطن الآي المدهشات ، ومن القوة والعافية في النفس والبدن ، وتجنبيه الآفات ، ويكشف له من الحقائق ما لم يكن يحلم به ، ويؤتية من الإحساس بالسعادة والفوز ، وقوة اليقين ، وجمال الهداية ، ورونق الصلاح ، ما لو عرضت عليه الدنيا بأموالها وكنوزها ومغرياتها كبديل عن قرب لربه وانشغاله بحبه ، لا يرضى بكل ذلك بديلاً .

فهل يعيش العبد الصالح بعض معاني الجنة الموعودة ؟ لا بدَّ من ذلك ، وقد يكون في طرف من أطرافها ، وهو ما زال في الحياة الدنيا ، فروحه ونفسه في حالة اعتناق ، تتجولان حتى في عوالم الملكوت ، وحتى - بالنسبة لبعض المقربين - وصولاً إلى سدرة المنتهى .

أما الدليل على ذلك فآية { ..النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } ، وآيتا : { .. الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. } .

قال تبارك وتعالى : { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخِلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات (٢٧ - ٣٠) } .

وقال سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . سورة فصلت الآيات (٣٠ - ٣١) } .

وقوله جلَّ وعلا : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . سورة الأحقاف آية ١٣ } .

ليتيم لنا تحسس اطراف الجنة الموعودة والنعيم المقيم ، أول شرط ينبغي أن يتوفر فينا هو طمأنينة النفس ، أي الشعور شبه الدائم بالطمأنينة والسكينة . لكي يصح - بموجب الآية الكريمة الأولى - أن النفس راضية وتبعاً لرضاها بالله وبما قسم الله تكون مرضية . ولا يحصل الإطمئنان الكلي إلا مع اليقين بوجود الله وبإحاطته بالكون ومفرداته - ومنها الإنسان - إحاطة كلية . وبأن الله سبحانه وتعالى : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية ٣ } .

فإذا حصل هذا الإيمان بأعلى درجات اليقين . يأتي شرط آخر لا ينفك عن الشرط الأول لحصول الطمأنينة ومعها الرضى ، هذا الشرط هو الإستقامة . والإستقامة هي الطاعة ، والطاعة هي الإلتزام بأوامر الله والإنتهاء بنواهيه .

فإذا تكامل هذان الشرطان : الإيمان بالله ومعها الاستقامة ، كان الإنسان معهما على أطراف الجنة ، مقبولاً عند الله ، راضياً مرضياً في الدنيا والآخرة .

وهذه المعاني هي من الحقائق القرآنية ، فيقول الله عز وجل أنه في السماء إله وفي الأرض إله وقوله سبحانه أنه معكم أينما كنتم ، وقوله عزت عظمته ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم . ثم قوله للنفس المطمئنة : يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية .. الآية . ألا يعني هذا

، أن جنته سبحانه وتعالى لها أطراف في الدنيا تتحسسها النفوس المطمئنة الراضية بربها المرضية عنده في الدنيا وفي الآخرة .

ومن حقائق كون النفس المطمئنة تلامس أطراف الجنة الموعودة أن الملائكة يواكبون أهل الطاعات وأهل الصلاح في الدنيا ، والملائكة خيرات وبركات ، هم قوى نورانية واعية مأمورة بحفظ الإنسان المستقيم في نومه ويقظته ، وحله وترحاله . وعندما نقول بحفظ الإنسان المستقيم ، يعني توليه بالحراسة والحماية وتجنبيه العثرات ، وطرد الشياطين عامة ومنها الميكروب وأنواع الفيروس وجميع مسببات أو مستدعيات الأمراض الخطيرة . والملائكة يقومون بمهماتهم وخدماتهم بموجب منهجية من لدن الله تبارك وتعالى ، إذ يكون هو رقيبهم وحسيبهم بواسع علمه ورحمته : قال تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُوْسٌ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ... سورة ق الآية ١٦-١٧ } والمتلقيان ملاكان كما هو محقق .

ذلك معني الولاية ، ولاية الملائكة للإنسان المستقيم في الآية : { .. تَنْتَزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا .. نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. } فقوله تعالى : أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا : يتداخل فيه الأمر بالخبر . فالأمر من الله على ألسن الملائكة يأمرهم المؤمنين إلهاماً أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا .. والخبر أن الملائكة كذلك مأمورون من الله جل شأنه أن يحولوا بين المؤمنين هؤلاء وبين أن يخافوا أو أن يحزنوا . وجميع هذه الحالات ، يحكمها الله سبحانه ويرعاها بمبدأ النسبية المتعلقة بتفاوت إيمان المؤمنين وتفاوت إخلاصهم وصدقهم وولائهم لله سبحانه وتعالى عما يشركون . فالمؤمن بالله ، المستقيم على الطريق المؤدي إلى الله ، لا يخاف ولا يحزن ، وهو مأمور ألا يخاف ولا يحزن . وهذا معنى الآية الثالثة : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . } .

الفصل الثالث

لباس التقوى

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ
وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ
يَذَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآية ٢٦ }

اللباس اثنان : مادي ونوراني :

=====

لننظر أولاً في هذه الآية الكريمة التي صدرنا بها الفصل والتي من دلالاتها أنَّ
اللباس اثنان : مادي ونوراني .

فالقسم الأول المادي في الآية : قوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا
يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا .. } وهو خطاب للبشرية في جميع مراحلها وحتى قيام الساعة ،
قوله تعالى : يا بني آدم . أما قوله : { .. قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا .. } ، فواضح أنه أمرٌ

باللباس الغاية منه هنا ، ليس تلافي حرٍّ أو برد ، وإنما قيده في الآية أن يوارى السوءات ، أي يستتر عوراتكم . وهو من مثل الأمر في استعمال الحديد سلاحاً - في جملة ما يستعمل - لينصر به دينه وينصر رسله . قال تعالى :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . سورة الحديد آية ٢٥ } فليس المقصود بقوله تعالى : { .. أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ .. } ، أنه أنزله من السماء ، ولكن المعنى أنه قضاه أمراً منزلاً من عليائه . وكلمة أَنْزَلْنَا لا تعني دائماً - في القرآن - الحالة المكانية من حيث العلو والسفل ، وإنما تعني تعالي الله سبحانه عن خلقه ، وكبريائه في أرضه وسماواته وعرشه العظيم : ففي ختام سورة الجاثية قوله عز وجل : { فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . } .

أما كلمة { .. رِيْشًا .. } في اللغة ، فالمقصود بها " الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر " كما جاء في لسان العرب لابن منظور .

وقد خصَّ القرآن الكريم البالغين بهذا اللباس الساتر للبدن عامة في سورة النور ، قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . سورة النور الآيات (٥٨ - ٥٩) .

إلا أن الله سبحانه أراد للمرأة خاصة أن تحفظ أنوثتها وما في عامة جسدها من مستدعات الإثارة التي ميزها الله بها ، أن تحفظها كما يحفظ الدرُّ في المحار وأنواع الجواهر في علبها وخزائنها ، حتى لا يعبت بها ويحط من قيمتها وكرامتها ، كما هو الحال اليوم ، حيث باسم الحضارة والحرية اللاواعية ، تمتهن المرأة وتسترخص ، وتشترى وتباع ، وتفضح على الجدران وشاشات التلفاز ، ناهيك بسحق كرامتها وقتلها المعنوي بين المخدر والمسكر وأنياب الذئاب .

عرّوا المرأة من ثيابها ، مخالفين أمر الله ، وعرضوها أو عرضت نفسها لتكون في الدنيا من مستدعيات غضب الله وفي الآخرة طعاماً لنيران الجحيم .

الله عز وجل أراد للمرأة عِزَّ طاعته لا أن تذللَ بمعصيته ، وأراد لها عفوان الحرائر لا استكانة العبيد . أراد سترها لا افتضاحها ، ثم لها هي أن يكون مصيرها إما من الحور العين ، أو من الأفاعي والزحافات .

وكما رأينا في آيات الحشمة في سورة النور : وجوب الاستئذان على الأهل في غرفهم ثلاث مرات في اليوم ، في الأوقات التي لا بد لهم منها من خلع بعض ثيابهم استعداداً للوضوء كمقدمات للصلاة .

أي أن الأبوين في البيت وجميع أفراد الأسرة كباراً وصغاراً وكذلك الخدم ، كل هؤلاء ملزمون بالتعليم الإلهي : الراشدون يحتجبون أثناء خلع ثيابهم والآخرين أطفالاً وكباراً يستأذنون عند ضرورة الكلام معهم أو الحاجة إليهم . ذلك كله ، لكي لا يطلع أحد على عورة أحد ، ولا سيما الأولاد على عورات الأبوين . ومعلوم في فقهاء الإسلام أن بدن المرأة كله عورة . فالمرأة المسلمة في البيوت الفاضلة ، نجدها دائمة الحشمة والحرص على ستر جسمها حتى أمام أولادها وعامة أرحامها .

إلا أننا نجد المفارقة العجيبة بين هذا التعليم الإلهي المعمول به في البيوت الفاضلة ، وبين سلوك أدعياء الحضارة والتحرر ، حيث لا يبالي الآباء ولا يتخرجون من الظهور أمام أولادهم شبه عراة ، وبـ (الشورتات) التي أصبحت الزي السائد داخل البيوت وحتى خارجها ، وقد تكون النساء - كما ينقل إلينا - أسرع إلى ارتداء (الشورت) وتعريّة الصدر بمعظمه والكتفين ، بحجة الحرّ أو بحجة التحرر . هذا التحرر المزعوم ، ينتج عقداً ، في الأولاد والأحفاد وكل من له علاقة بالأوضاع المنفلتة ، عقداً لا يعلم مداها ومدى الأضرار التي فيها إلا واضع القانون ، قانون الحشمة ، رب العالمين .

ولسنا بحاجة لكبير جهد لإثبات ما نقول ، فتكفي نظرة استطلاع لأحوال المجتمعات ، على أبواب الألف الثالث للميلاد ، لنرى مدى الانهيار الأخلاقي ، ابتداء بتفسيخ الأسرة ، وحتى انعدام الأسرة الشرعية ، مروراً بالشذوذ بين الجنسين ، وانتهاءً بالإيدز القتال الذي ما كان إلا نتيجة للعهر والتسيب ، والتفلت من الدين ، أي من وصايا رب العالمين .

ولا يظنُّ أحد أن الدين المسيحي أكثر حرية أو تحرراً من اللباس ومن الثياب ومن الحرص على الحشمة بارتداء الثياب الساترة والطويلة الفضفاضة . ولو كان الأمر

كذلك لما رأينا راهبات الأديرة على امتدادها في الشرق والغرب ، بأزيائهن الداعية إلى التوقير والإحترام . والحقيقة أنهنَّ ما ارتدين مثل هذه الأثواب إلا اقتداءً بالسيدة مريم أم يسوع المسيح عليهما السلام . وهي التي ، في أصل العقيدة المسيحية ، ينبغي أن تقتدي بها كل امرأة أو فتاة تدين بدين السيد المسيح وأمه القديسة البتول . ولكن النصارى خالفوا تلك الوصايا الملزمة - كما رأينا - لجميع البشر ، في جميع عصورهم وحتى قيام الساعة .

واليهود كذلك خالفوا وعصوا ، وما أكثر ما خالفوا وعصوا .

تقول الراهبات " الحبيسات (*) " وهو الاسم الذي يطلقه على أنفسهن : إن تاريخ " رهبنة الكرمليت " يعود إلى ما قبل الميلاد ، إلى أيام النبي إيليا ، وكان هذا الدير قد أقيم على جبل الكرمل المطل على مدينة حيفا في فلسطين قبل مجيء السيد المسيح عليه السلام .

فالقرآن الكريم ، والمسلمون لم يتشدّدوا بشأن الحجاب ولزوم الإحتشام كما يظن عامة الناس . القرآن الكريم إنما جاء مذكراً بهذا التعليم الإلهي الملزم لجميع البشر منذ

(*) الراهبات الكرملين ومركزهم في أسبانيا ولهم فرع في لبنان .

وجود المجتمعات الإنسانية على الأرض ، وذلك في قوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... } .

إلا أن القرآن الكريم ، لأنه مصدق لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليه فقد فصل ودقق في قضية ستر السوات والاحتجاب . قال الله سبحانه :

{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . سورة النور الآية ٣٠ } .

هذا للرجال ، وغضُّ البصر هو عن عورات النساء ، وعورات الرجال وعن كل حرام ، أما قوله تعالى : { .. وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .. } ، الأصل حفظها عن الزنى ، إلا أن المقصود - هنا باعتبار السياق كما سنرى في الآية التالية والمتعلقة بستر النساء - المقصود ستر العورات .

ثم بعدها مباشرة قوله تعالى مخصصاً ومفصلاً عن النساء ، مما يوجب النظر والخوف من الله بسبب ما وصلت إليه المرأة بشكل عام من التفلت - عالمياً - من حكم الله سبحانه ، ومن الخروج عن إرادته . قال تبارك وتعالى :

{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . سورة النور الآية ٣١ } .

بالمقارنة بين الأمرين : أمر الرجال وأمر النساء فيما يتعلق باللباس والإحتشام ، نلاحظ عناية مميزة ودقيقة بأمر النساء . ففي مطلع الآية الثانية : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ .. } هو نفس الأمر الذي يتساوى به الرجال مع النساء ، أي غض البصر ، وهو يعني إنشاء حاجز من الشرف والتعفف وخشية الرقيب السميع البصير الذي هو الله سبحانه . يرتاح معه ضمير الرجل ، ويرتاح معه ضمير المرأة ، وينجو كل منهما - مع غض بصره - من خيانة الله وخيانة نفسه وخيانة غيره ، أي أنه ينجو من لعنة الله وعقوبات الدنيا والآخرة . وكذلك القول في { .. وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. } إلا إذا اعتبرنا فيها معنى الزنى ، فتكون من الذنوب العظيمة ، أي ما يعتبره التشريع الإلهي عامة من الكبائر . وكذلك هذا - كما قدمنا - يتساوى ، من حيث الحكم فيه ، الرجل والمرأة .

ثم تعظم العناية في أمر ستر النساء زيادة عن الرجال ، وتأتي مفصلة مدققة : { .. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. } مثل الكحل والخضاب والخاتم ، وهو ما لا يجب ستره لا في الصلاة ولا في غيرها . أما ما يجب ستره في الصلاة ، فهو كذلك ما يجب ستره على غير المحارم المذكورين في الآية ، وتفصيله هكذا { .. وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. } وتسمى أيضاً المقانع ، جمع خمار وهو لباس للرأس ، الشرعي فيه أن ينسدل على الصدر مغطياً العنق والصدر وكل حَنِيئةٍ تظهر إغراءً فيه وهذا معنى { .. عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. } فالجيوب الثغرات والفجوات .

ثم قوله تعالى : { .. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. } يعني مواضع الزينة بالضرورة لأن الزينة لا تبدو إلا إذا بدت مواضعها ، وهي الأقراط في الأذنين والعقود في الأعناق والأساور في المعاصم ، وقبلأ كن يلبسن الخلاخيل في الأقدام . وواضح أنه لا يبقى من المسموح بظهوره إلا الوجه والكفين والقدمين .

ثم يعدد المحارم الذين تجوز لهم رؤية مواضع الزينة وهم أزواجهن قوله : { .. إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } { .. أو آبائهن أو آباء بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ } والأجداد آباء وإن علوا ، والأحفاد أبناء وإن سفلوا ويدخل في ذلك أجداد الأزواج ، وهؤلاء جميعاً كما هو معلوم يحرم عليهم نكاحهن ، فكل واحد منهم ذو محرم إما بسبب وإما بنسب . ثم قوله تعالى :

{ .. أو نِسَائِهِنَّ } يعني المؤمنات .

وقوله { .. أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } من الإماء جمع أمة وهي الجارية المملوكة ومن العبيد الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

وقوله : { .. أو التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ } وهم أنواع البله أو الخصيان المجهولين أو العجزة وكل من ليس له رغبة في النساء وهذا معنى { .. غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ } والإربة أو الأرب الرغبة والحاجة . ثم قوله تعالى : { .. أو الطِّفْلُ الَّذِينَ لَمْ يُطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } يريد بالطفل هنا الأطفال إذ يصح لغة في الطفل معنى الجمع ، وهم الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الشهوة ولم يعرفوا عورات النساء .

{ .. لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ } كانت المرأة تلبس الخلخال ، فإذا مشت وضربت برجلها يتبين خلخالها ويسمع رنينه . فنهاهن عن ذلك . { .. وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } التوبة إلى الله الرجوع إليه سبحانه والتوجه إليه بنية صادقة ، مع إبراء الذمة من أي إخلال أو عصيان لأوامره ، وبذلك يكون الفلاح والسلامة في الدارين : الدنيا والآخرة .

هذه الآية في سورة النور : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... } تعتبر آية الحجاب الرئيسية الجامعة الشاملة الملزمة . وهي مكملة لآية سورة الأحزاب : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ } ورافعة لمراحليتها . لأن ظرف نزول آية الأحزاب ، كان متعلق بتركيب إجتماعي ، موجزه أن الإماء كن يخرجن في قضاء حاجات أسيادهن حاسرات الرؤوس ، ولأنهن لا يتميزن بعنفوان الحرائر وحصانتهم ، كان يتعرض لهن أهل الريب ، فيغمزونهن ويمازحونهن . وكانوا ربما يتعرضون للحرّة إذا لم تكن منقبة ومتجلبة ، فيتجاهلون حقيقتها ويتحرشون بها ، مما يسبب لها أذى في نفسها وشرفها وعنفوانها ، فجاءت الآية تعالج هذه الحالة الظرفية ، وهي قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ } سورة الأحزاب الآية ٥٩ { أي ذلك أقرب إلى أن يعرفهن أهل الريب من

السوقة ، فيتهيّبونهن ولا يقدمون على غمزهن أو ممازحتهن .

أما وأنّ الظرف يتبدل ، والأحوال الإجتماعية تتغير بتغير الأجيال والأزمنة والعادات والحضارات ، والله سبحانه أعلم بهذا ، يعلم ما كان وما سيكون . فقد أنزل آية تلزم النساء بلباس الحشمة الذي يحجب جميع أبدانهن ، فيحفظ للمرأة المطيعة لأمر ربها ، شرفها وعفوانها ، ونقاء ضميرها ، وسلامتها من غضبه ولعنته في الدنيا ، ونجاة ما قد تبديه من بدنّها - خلافاً لأمر الله - من حريق النار في الآخرة . أما الآية الملزمة والتي هي لجميع الظروف والأزمنة والحضارات ، فهي التي توقفنا عندها أكثر ما توقفنا ، قوله تبارك وتعالى : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... } أما بقية الآيات المتعلقة بالحجاب ، فهي من باب تأكيد هذه الآية ، أو شرحها أو التنبيه إلى مضامينها ، مكملات بها متداخلات معها ، ولا سيما الآية التي توجنا بها هذا الفصل وجعلناها مدخلاً لبحثنا والتي هي { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتَكُمْ ... } فهي في علوم القرآن من باب المجمل ، بينما آية { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... } هي من باب المفصل .

القسم الثاني النوراني : في آية : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } . سورة الأعراف (الآية ٣٦) { هو قوله تعالى : { .. وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ .. } .

لباس التقوى هذا المنوه عنه في هذه الآية الكريمة ، هو لباس حقيقي للبدن ولكنه غير مادي ، هو نوراني ، موجود تحت الثياب وموجود فوق الثياب ، وهو ليس من الثياب في شيء .

ولباس التقوى هذا ، ما دام نورانيا ، هل يشاهد بالعين المجردة ، وفي اليقظة ، وهل تلتقطه آلة التصوير ؟

يقول العرفانيون - ونحن نقرّهم ونحترّمهم جداً - يقولون نعم يرى في اليقظة وإنما بالعين الداخلية ، عين القلب ، أو البصيرة ، وهو ما يسمونه الكشف ، وأكثر ما يتم أثناء الذكر والعبادة . وأثناء الهجرة إلى الله تبارك وتعالى ، إذا خلّف المهاجر وراءه مضامين الدنيا والآخرة ، ويمّم وجه الله الحبيب وحده دون أدنى عقدة من عقد الشرك الظاهر أو الشرك الخفي .

أما هل تلقطه آلة التصوير ؟ إذا استطاعت يوماً ما أن تصوّر أشخاص الملائكة أو تمثلاتهم . ومعلوم عند جميع المسلمين وكذلك أهل الكتاب ، أن وجود الملائكة مع الناس وبينهم ، من الحقائق الدينية التي لا تناقض .

أما ما هي الصلة بين نورانية الملائكة ونورانية من يتفضل الله عليهم بكسوتهم من نوره ، فنقول هي المجانسة . قال تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . سورة فصلت الآيات (٣٠ - ٣٢) } .

وزيادة في إيضاح ثياب النور أو لباس التقوى الذي هو خير كما وصفه الله سبحانه . نقول هو اللباس النوراني الذي كان ألبسنا الله إياه في الجنة ، ثم خسرناه بالمعصية ، ثم تاب الله سبحانه علينا ، ثم وهب لنا فرصة استرداده بالتقوى . أما متى وكيف كان ذلك ؟ فينبغي الرجوع إلى الآيات البيّنات ذات العلاقة بهذا الموضوع . قال الله تبارك وتعالى :

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَلَا هُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . سورة الأعراف الآيات (١٩ - ٢٢) } .

دليلنا من الآيات هذه ، إلى أن لباس التقوى هو ثوب نوراني ، قوله تعالى : { .. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. } وواضح أنه لا الثوب الحريري ولا الثوب الصوفي ولا أي ثوب من أي نسيج مادي ، يسقط أو يزول أو يتبخّر، لمجرد وقوع لابسه أو لابسته في معصية الله . فلباسهما إذن كان لباس التقوى الذي أشار إليه تعالى بقوله : { .. وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ .. } .

وقوله { ذَلِكَ } لا بدّ أن يكون إشارة إلى الثوب الذي كان نورانياً في الجنة ، وكان حينذاك لباس التقوى ، ولذلك كانت الإشارة تفريقاً بينه وبين الثياب العادية ، أما وقد زال

حينها ثوب التقوى بسبب المعصية ، وكان الإهباط نتيجة لذلك ، فقد كان لا بد للإنسان رجلاً كان أو امرأة ، من الاستتار ومواراة السوءات ، بأشياء غير ورق الجنة ، وأين منهما ورق الجنة . فلذلك أنزل الله أمره وتعليمه بالثياب وصنع الثياب : قوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... } .

ولو كان الله سبحانه أراد أن { لباس التقوى } هو هذا الذي أنزله لكان قال ولباس التقوى { هذا } بدلاً من { ذلك } ، ومعلوم أن { هذا } إشارة للقريب و { ذلك } إشارة للبعيد ، وهو سبحانه إنما يخاطب الناس حسب فهمهم للغتهم .

ثم دليل ثالث على أن الثوب كان نورانياً ، وأنه زال فوراً بمجرد الوقوع في المعصية ، كلامه تبارك وتعالى في سياق آخر مختلف العبارات في سورة طه ، ولكنه يستعمل نفس العبارة بحرفيتها تقريباً عندما يخبر عن وقوعهما في المعصية ، وانكشاف سوءاتهما تبعاً لذلك . قال تبارك وتعالى :

{ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى . فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْئَى . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . سورة طه الآيات (١١٧ - ١٢١) } .

فقله تعالى هنا : { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. } مطابق لقوله في فورية زوال اللباس { .. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. } . هذا مع اختلاف العبارات البلاغية بين السورتين في وصف الواقعة ، بغية إظهار الحقيقة كاملة لأولي الأبواب .

أما وهل يعبر عن النور بأنه نوع من اللباس ؟ نعم ، وقد قال تعالى :

{ .. فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . سورة النحل آية ١١٢ } .

وقال سبحانه :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سورة آل

عمران الآية ٧١ } .

ثم قوله تبارك وتعالى : { .. لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . } دليل على أن لباس التقوى ذلك الذي هو خير ، أي أفضل إطلاقاً ، هو لباس نوراني ، لأنه وعد من الله سبحانه ألا يعرَى ، ومعاذ الله أن يكون في وعد الله خلف أو نقص أو خلل . وهو لو كان لباساً مادياً لكان لا بد فيه من عري صاحبه بين خلعٍ وتبديل وما شابه .

ثم مفتاح يُستأنس به ، وقد يولج به إلى بحر أحذية الله وبحار أنواره ، وتجليات أنواع النور وألوانه ، والشفاء به والعافية ، ووضوح رؤيته وانكشاف حقائقه ، والترقي به ، كلما انخلع المستنير بنور الله من الدنيا وحتى من المطمع بالآخرة ، وحصر همه بربه الحبيب العظيم ، الحليم الكريم ، والرحمان الرحيم ، وكان هو وحده غايته ، ونعيمه وجنته ، ودنياه وآخرته ، داعياً إليه ، صابراً به ثابتاً على طاعته ، حريصاً شديد الحرص على رضاه وتقواه ، فلعله تعالى يبلغه به عليا درجات رضاه وحبه وقربه ، وهو قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . فِي بُيُوتِ الَّذِينَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعُ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِنَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور الآيات (٣٥ - ٣٨) } .

ثم قوله جلَّتْ عظمته : { .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } .

في بعض وجوه هذه الآية ، لباس التقوى ، أو اللباس النوراني ، وبديهي أن يجعله الله سبحانه لأهل طاعته من الرجال ومن النساء ، يعني لأهل الحشمة ، الذي يوقرون الله ملتزمين بأوامره منتهين بنواهيه . وعلى هذا ، يستحيل على رجل متهتك في سلوكه ، أو امرأة متهتكة أن يجعل الله لأحد منهما نوراً يستنير به في ظلمات الدنيا وظلمات الآخرة ، ولا سيما ظلمات يوم القيامة . قال تبارك وتعالى يصوِّر مشهداً من مشاهد هذا اليوم العظيم ، مشهداً ينبغي أن يستوقف من كان له ولو بعض البصر وبعض البصيرة ، لشدة ما فيه من الهول ومن عظيم العبرة ، قال سبحانه :

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . سورة الحديد الآيات (١٣ - ١٥) . }

هذا المشهد من مشاهد يوم الحشر الطويل ، يبدو أنه في بقعة من الأرض مظلمة كثيرة الصخور والأشواك والعقبات ، يتخللها بعض الممرات والطرق ، بحيث أنه من لم يكن معه نور يستهدي به طريق النجاة ، لا بد أن يتوقف عن السير ، أو أن يرتطم بصخرة أو شجرة ، أو ربوة ، أو يتعثّر بصعود أو نزول ، شأن الأعمى الملزم بالسير في منطقة جبلية وعرة ، ولا بصيص نور ولا بصيص أمل ولا صديق حميم .

فإذن ، في هذا المشهد ، ينقسم الناس فريقين ، فريق { .. يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. } فيضيء لهم مواطىء الأقدام ، وعامة الأرض وتضاريسها ومطباتها وطرق النجاة فيها ، هذا الفريق من البديهي أن يتقدم على الفريق الآخر الذي { .. لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا .. } وهو - حسب الآيات - فريق المنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات . هذا الفريق الظلماني يشاهد أهل النور يتقدمون ناشطين في دروب النجاة ، فينادونهم أن قفوا حتى نصل إليكم ونستفيد من نوركم . فينادونهم وقد شعروا بالداهية الدهيئة التي هم فيها وبالغصص في حلقهم ، فيسمعون صوتاً فيه نبرة الهزء والتحدي وإفهامهم أن نداءهم دون جدوى { .. ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا .. } ومن أين لهم النور ، ولم يجعل الله لهم نوراً أيام زمان ، أيام الحياة الدنيا ، ليكون برفقتهم وليكون لباسهم المضيء ، في ظلمات الحشر وأحوال يوم القيامة .

وفوق هذا كله ، ولكي لا يستفيد الظلمانيون أية استفادة من أهل نور الله ، يرتفع بينهم جدار يفصل بين الفريقين ، جدار عالٍ له بابٌ ، لإمكان أن يلج منه من كان متخلفاً من أهل النور لسبب أو لآخر ، أو لقلّة النور التي معه .

أما باطن الجدار الذي من جهة المستنيرين بأنوار الله ، ففيه الرحمة ، أي الطمأنينة والسعادة ، وعناية الله ورعايته ورأفته وكرمه ، وأما ظاهر الجدار المقابل لأهل الظلام ، فيأتيهم من قبله العذاب ، ومن أنواعه الفزع القابض على الأعناق ، والعمى المفروض عليهم بسبب عدم وجود النور وبالتالي انعدام الرؤية . ثم الصدمة من جواب إخوانهم الذين من الواضح أنهم معروفون لديهم في الحياة الدنيا : { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ

فَتَنَّتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ {
والغرور هو الشيطان الرجيم .

أما مصير الذين جعل الله لهم نوراً وألبسهم لباس التقوى ، فنعيم الله تبارك وتعالى ،
ورضاه ورضوانه .

وأما الذين لم يجعل الله لهم نوراً ، فقد خاطبهم سبحانه بقوله في سياق الآيات التي
رأينا : { فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ . { .

الحجاب والمجتمع :

=====

أيهما أكثر دلالة على المجتمع الفاضل ، نساء محتشمات عاملات بتعاليم الله من
حيث المظهر والمسلوك ؟ أم نساء هن أقرب إلى العري الفاضح ، الذي من جهة يسبب
أذى شديداً للفضلاء والأتقياء ، ومن جهة ثانية إغراء للمراهقين وضعاف النفوس ، يفعل
فيهم فعلاً سلبياً بدءاً بتخريب نفوسهم مروراً بتخريب أبدانهم وانتهاء بما نرى من
الفوضى الأخلاقية والإجتماعية التي تمارسها حضارة القرن العشرين وما يليه ، تحت
عنوان الحرية ، ولكن تبين حتى عند كثير من أنصارها من المنصفين الشجعان أنها حرية
مدمرة وقاتلة .

فلتصلي شكراً لله ، كل امرأة وكل فتاة لم تتركب قطار هذه الحرية الذاهب بالذين
ركبوه من النساء والرجال .. إلى الجحيم .

وليصلي شكراً لله ، كل رجل تعقل وتبصر واستجاب لأمر الله تبارك وتعالى ، فنجأ
من الحريق والغرق ، وأنجى من معه في دائرة مسؤوليته ، فكان مصداقاً حراً لقول الله جلَّ
شأنه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا
مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . سورة التحريم الآية ٦
.

الفصل الرابع

من هم أصدقاؤك

{... وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى}

سورة طه آية ٤٧

من أخطر العلاقات الإجتماعية في ظل عبادة الإنسان لربه ، مفهوم الصداقة ، أو الخلّة . لأن الله سبحانه جعل لها مفهوماً مميزاً وتعاليم ، من تجاوزها أو أهملها أو أعرض عنها واتبع هواه ، خسر مقعد الصدق عند ربه ، وسقط إلى حيث لا تحمد عقباه .

من هذه التعاليم أو الإنذارات ، وبالكلام الإلهي المكثف الجميل ، قوله تبارك وتعالى : { الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ } . سورة الزخرف الآية 67 .

هؤلاء الأخلاء أو الأصدقاء ، { يُؤْمِنُ } أي يوم القيامة ، { بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا } يتحولون إلى أعداء متباغضين متجافين ، يتمنى بعضهم لبعض السحق والدمار ، بعد إذ كانوا في الحياة الدنيا متحابين متصافين ، متضامنين في المواقف يسعد بعضهم بعضاً ، فلماذا هذا الانقلاب العجب الذي يحل بهم يوم القيامة ، يوم الفصل إما إلى جنة إما إلى نار ، ثم يكونون هم من أهل النار . { إِلَّا الْمُتَّقِينَ } .

هذه العبارة في الآية ، قوله تعالى : { إِلَّا الْمُتَّقِينَ } هي مفتاح الإجابة ، ومفتاح الصداقة الحقيقية المرجوة . إذ نفهم منها كاستثناء في الآية أن الأخلاء أو الأصدقاء الذين كانوا متحابين في الدنيا ، ما صاروا أعداء في الآخرة ، إلا لأنهم كانوا من غير المتقين ، والمتقون ، معلوم أنهم يتحابون في الله ، وأن المؤمن الصالح التقي لا يتخذ صديقاً من الناس إلا إذا كان مؤمناً بالله وبدين الله عاملاً صالحاً تقياً مثله ، ويفهم من الآية كذلك ، أنه من غير المقبول لمؤمن تقي أن يتخذ صديقاً فاسقاً أو فاسداً أو ملحداً ، أو جاحداً بالله وبتعاليمه ، أو أنه لا يقيم صلاة ولا يؤتي زكاة ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر . ومن دعاة المنكر كما هو معلوم ، أناس يقيمون فيما بينهم - رجالاً ونساءً - صداقات حميمة يوجّه فيها الطموح إلى كل شيء إلا إلى ذكر الله وإلى درجة عند الله ، تقيهم ضلالات الدنيا وحيرتها والخلود في عذاب الآخرة .

وقد تبلغ درجة الحميمة بين أصدقاء العلمنة أو التحلل من الدين ، إلى درجة التعبد ولاءً للصديق أو الصديقة أو لمجموعة الأصدقاء ، وقد وصف الله تبارك وتعالى مثل هذه الخلّة أو الصداقة أو العلاقات بأنها حالة وثنية ، حُكْمُ عناصرها عنده حُكْمُ عبدة الأوثان ، بقوله سبحانه :

{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ . سورة العنكبوت آية ٢٥ } .

والمعنى أن المودة أو المحبة التي كنتم تكونونها لبعضكم البعض من دون أن يكون فيها نيّة التقرب إلى الله ، أو من دون أن يكون من دوافعها الحب في الله ، وموالاة المؤمنين بعضهم لبعض عملاً بأمر الله ، هي عند الله حالة وثنية . أنواع المودة التي بينكم دون أن يكون الرابط فيها هو دين الله ، هي أوثان تعبد في الدنيا باسم الصداقة ، التي ليس فيها شيء لله ولا لدينه ، ولا لعباده وأنصاره الورعين الصالحين . قال تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . سورة المائدة الآية ٥٤ } .

فصفات الأخلاء أو الأصدقاء الذين يظلون كذلك أخلاء وأصدقاء يوم الفصل يوم القيامة ، هي هذه : يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين متحابين بينهم ، متواضعين لهم ، متعاونين معهم على البر والتقوى ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله حقّ الجهادين : الأكبر الذي هو جهاد النفس ، والأصغر الذي هو جهاد أعداء الله . ولا يخافون لومة لائم ، ولا يخشون أحداً إلا الله سبحانه . أما إذا كانوا أصدقاء في الدنيا ليست فيهم هذه الصفات ، كانت صداقتهم وثنية ، ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواهم النار وما لهم من ناصرين ، كما جاء في الآية الكريمة .

إن أكثر الناس يميلون في صداقاتهم إلى المظاهر الدنيوية ، المتمثلة عادة بالجاه أو المال أو أي نوعٍ من أنواع النجاح السياسي أو الاجتماعي أو حتى العلمي ، المبني على غير الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ولا سيما حملة الألقاب في جميع النشاطات الاجتماعية : سياسية أو عسكرية أو علمية أو مالية ، وباختصار ما يخيّل إلى أهل النظر السطحي ، أنهم مراكز القوى التي لا تقوم الحياة ولا تستقيم إلا بوجودهم .

إلا أنّ الله سبحانه أوصى محمّداً (ص) بغير هذا النمط من الناس ، أوصاه بالذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . وأوصاه بعدم الإهتمام بالمسرفين ، وبعدم الإنصياع لمطالبهم وآرائهم . قال تبارك وتعالى :

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ

أَمْرُهُ فُرْطًا . سورة الكهف الآية ٢٨ { .

ففي قوله تعالى : { .. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. } أولاً أمر بعدم تجاوزهم إلى غيرهم ، ثانياً ، إشارة إلى أن هذا الغير يمثل زينة الحياة الدنيا ، إما بجاهه أو ماله أو مركزه السياسي أو العلمي المبني على غير دين الله ، وبالتالي يمثل حالة عدائية فيها الكثير من التكبر والتجبر والاستخفاف بفقراء المؤمنين الذين ليس لهم طريق مال أو طريق جاه أو أي طريق دنيوي آخر .

وأما قوله تبارك وتعالى في ختام الآية الكريمة : { .. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا .. } هم الأقسام الذين لا يذكرون الله في مجالسهم ولا يتدبرون قرآنه الكريم ولا يتداولون بآياته ولا يهتمون بأمور دينه ، ولا بشؤون المؤمنين من عباده ، وتراهم واقعين دائماً تحت وطأة ما لن يغفره الله لهم أبداً ، تحت وطأة الشرك الظاهر أو الشرك الخفي أو كلاهما معا .

أما قوله { .. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. } فإن الله سبحانه لا يغفل قلب أحد عن ذكره بدون سبب يستوجب هذا الإغفال . ويوضح هذا الأمر قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا . سورة الكهف الآية ٥٧ { .

والمعادلة واضحة تماماً ، وهي أنهم ذكروا بآيات ربهم إما قراءة وإما سماعاً تدعوهم للنجاة من الجحيم ، فأعرضوا عنها ، أي لم يكثرثوا بها ونسوا ما قدمت أيديهم من ذنوب هم بأمس الحاجة لأن يغفرها الله لهم ، ومع ذلك أمعنوا في غيهم وضلالاتهم ، عتواً وجحوداً ، وعمى وصمماً ، فالله سبحانه أمضى لهم ما حزموا هم أمرهم عليه ، فحرمهم من بركة القرآن وكرامة القرآن وعظمة القرآن ، بأن جعل على قلوبهم أكنة تمنع عنها نور الله وهداية الله ورحمة الله . وسد آذانهم عن سماعه ، حتى إذا دعاهم أحد إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً .

فأصبح واضحاً في ضوء هذه الآية الكريمة ، معنى قوله تعالى : { .. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا .. } أما عبارة : { .. وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا .. } أي كان من المسرفين المتجاوزين لحدود الله جلّت عظمتة .

طبعاً هذه الآية { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. } هي بموجب علوم القرآن ملزمة لكل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة وإلى قيام الساعة ، وقد ضرب الله للناس مثلاً عن مصداقيتها ، أنها عهد محمد (ص) نزلت في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وحباب وعبد الله بن مسعود وبلال الحبشي وغيرهم من فقراء أصحاب النبي (ص) ، وكان بعضهم خدماً وبعضهم رعاة غنم عند أثرياء قريش ووجهائها . وذلك أن الأقرع بن حابس وعيينة بن الحصين وغيرهما من المؤلفلة قلوبهم ، جاؤوا إلى رسول الله (ص) فقالوا : يا رسول الله إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وروائح صنانهم ، وكانت عليهم جبات الصوف ، جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك ، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء ، فلما نزلت الآية قام النبي (ص) يلتمسهم فأصابهم في آخر المسجد يذكرون الله عز وجل ، فقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات (*) .

في الحقيقة ، إن طبائع البشر ، ما لم تكن مهذبة بالأخلاق الدينية والتعاليم الإلهية ، فإنه يغلب عليها الميل عن الحق وعن العدل ، وعن جواهر الأمور إلى مظاهرها وأعراضها ، فتفضّل الأغنياء بمالهم ، على الأغنياء بربهم ، وتفضل الثوب أو المظهر الذي يحكي الوجاهة أو الثراء أو المكانة الإجتماعية المرموقة ، ولو كان أصحاب هذه الثياب أو المظاهر من الفساق أو المنحرفين أو الجاهلين ، تفضلهم على فقراء المال والأثاث والثياب ، ولو كانوا من أصفى الناس جوهرأ وأكثرهم قرباً من رحمة الله ورضاه ورضوانه .

هذه الظاهرة تتكرر في تواريخ البشر ، مهما توسعت الثقافات وتقدمت الحضارات ، ما دامت لا تحتكم إلى التعاليم الإلهية . وما حصل في عهد محمد (ص) سيد الرسل وخاتم النبيين . حصل ما يشبهه تماماً قبل بضعة آلاف من السنين على عهد نبي الله نوح عليه السلام . وقد حكى الله قصته في القرآن الكريم ، محيطاً بكل جوانب دعوته إلى الله تبارك وتعالى ورسالته التي حمّله إلى الناس على مستوى الأرض آنذاك .

وحيث أنه وكالعادة مع الرسل والأنبياء ، استجاب لنوح الفقراء والمستضعفون والمسحوقون من العبيد والرعاة والخدم ، فقد أبرز الله كذلك ، موقف الناس من هؤلاء ، وهذه الظاهرة هي من الجوانب المهمة في كل دعوة إلى الله ، فقال سبحانه

(*) أنظر مجمع البيان للطبرسي المجلد الرابع ج ١٥ في تفسير الآية الكريمة .

وتبارك وتعالى في كلام عن نبيه نوح عليه السلام ، وموقف قومه منه ومن أتباعه :

{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . سورة هود الآية ٢٧ } .

جاء في لسان العرب لابن منظور : الرذل والرذيل والأرذل : الدون من الناس ، وقيل الدون في منظره وحالاته ، وتجمع على أرادل ورذلاء ورذول ورذال وأرذلون .

فإذن تلك هي طبائع البشر إذا لم تتخلق بدين الله وإذا لم تتهذب بتعاليمه . ويبدو بوضوح أن الله سبحانه في تربيته للمؤمنين ، هذه التربية الفذة التي رفعتهم وما زالت ترفعهم من مستوى البهيمية والحيرة وظلام الأنفس والكفر المؤدي إلى الجحيم ، إلى مستوى الإنسانية الحقيقية التي أَرادها الله نورانية عاقلة مؤمنة برب هذا الكون العظيم وبوعده ووعيده ، وعدله ورحمته . هذه التربية الفذة ، من أبرز عناصرها ومراحلها ، أنه أمر فيها سبحانه بالانحياز الكلي إلى المؤمنين الصديقين من أهل طاعته ، ومعاداة الكفار الرافضين لدينه ورسالته من أهل الوثنية أو العناد أو الإلحاد . وواضح أنه سبحانه ما تشدد معهم هذا التشدد إلا إغراءً برحمته ، وما جعل ذلك إلا وسيلة من وسائل الضغط التربوي المرشد والموجه إلى ما فيه النجاة من الضلالات . قال سبحانه مخاطباً المؤمنين :

{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُاُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ .. سورة الممتحنة الآية ٤ } .

هكذا بهذا القول الفصل والموقف الفصل ، وقف إبراهيم والذين معه من قومهم يَكُونُ لهم العدَاوَةُ والبَغْضَاءُ ، ما داموا يشركون مع الله غيره ، سواء كان هذا الغير أوثاناً مجسمة ، أو أوثاناً معنوية ، كما رأينا في الآية { .. إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ .. } أو أنهم يدعون الله ويدعون غير الله من خلقه ولو كانوا من الصالحين ، أو أنهم يستترزقون الله ويستترزقون غيره ، من الأنبياء أو الأولياء الماضين الذين أقاموا لهم أنصَاباً وتمائيل . لقد عرف إبراهيم من ربه ، أن كل هذا من الشرك العظيم الذي هو الظلم العظيم ، لذلك اشترط ومن معه على قومهم ، أن لا يوادوهم ولا يوادعوهم إلا إذا آمنوا بالله وحده لا شريك له ، سواء كان الشريك معنوياً ، كالمودة بين الأصدقاء الدنيويين ، أو مادياً كالشرك المميزين أو الحجر أو غير ذلك من أنواع الشرك الظاهر والشرك الخفي .

هذه الأسوة ، موقف إبراهيم ومن معه من قومهم ، والتي أمر الله المؤمنين أن يتأسوا بها ، يعني أن يقفوا من أقوامهم مثل موقف إبراهيم وصحبه ، هي أسوة في الحقيقة

ذات حدين : حد فيه تنبيه عقلي وضغط أدبي ومعنوي على غير المؤمنين ، ليعودوا عن غيهم واستكبارهم ويفوزوا بالنجاة من الضلالات ومن عذاب الله . وحدٌ فيه تمحيص للمؤمنين : هل يطيعون الله ربهم وهل يثبتون على أمره ولا يخافون لومة لائم ، فإن فعلوا كانوا من الناجحين في هذا الإمتحان وكانوا من الصديقين . وكانوا من مصاديق قوله عز وجل :

{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . سورة المجادلة الآية ٢٢ } .

ويبدو أن هذا الامتحان ، لا بدَّ أن يشكل مرحلة من حياة كل مؤمن ، حتى ينجح فيه فيستكمل إيمانه . فإذا نجح كتب الله في قلبه الإيمان وأيده بروح منه ، وهي درجة عالية من درجات الوصول إلى الحق .

ولعل بعض المؤمنين ، بينما هو مستجيب لأمر الله بكل أبعاده وجوانبه ، مطيعاً مخلصاً ، صادقاً صديقاً ، قد يستشعر في نفسه حيناً لبعض من يقاطعهم بمودته أو بمخالطته لهم ، من مثل أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو قريبٍ أو حتى عامة القوم ، ما دام هؤلاء جميعاً لا يؤذونه ولا يقاتلونه في الدين . هنا يظهر إعجاز القرآن ورحابة هذا الدين العظيم وكماله . فإن الله سبحانه وتعالى أدرج آيات في سياق آية الأسوة هذه ، فيها متنفسات لأهل طاعته والحرصين على تنفيذ أوامره ، وفيها إجابات على جميع ردود الفعل النفسية عند المؤمنين وتسألاتهم في مجالات سلوكهم وتحركاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وحتى عند غير المؤمنين المقابلين لهم في الطرف الآخر . قال تبارك وتعالى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } . سورة الممتحنة الآية ٦ . هذه الآية محطة من الإعلام الإلهي بين آية التشدد التربوي في المقاطعة لغير المؤمنين الموحدين وبين آيات التنفيس والتراحم ، مفادها المهم جداً والمؤثر جداً عند العقلاء وأصحاب النظر ، أن الله عز وجل ، إنما يريد بهذه التعاليم الضبط والربط في قضايا التعامل والسلوك الفكري والاجتماعي ، مصلحة الإنسان ورحمته وخلاصه ، وأنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين . إذا امتنع الناس عن حمده وشكره ، فإنه يحمده بذاته ويحمده خلقه في عوالمه التي لا تنتهي ولا تحدُّ ولا يدركها عقل بشر ، وهذا معنى قوله تعالى : { .. فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } .

ثم تأتي الآيات التي فيها الرجاء بانتهاء المقاطعة ، لدخول الأقارب والقوم ، بعضاً أو كلاً في دين الله وخاصة في توحيد الله ، وفيها في نفس الوقت أصول التعامل أو شروط التعامل الإجتماعي مع هؤلاء وهؤلاء . يقول تبارك وتعالى :

{ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } . سورة الممتحنة الآيات (٧ - ٩) .

فقوله تعالى : { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً .. } أي بينكم وبين الكفار وأهل الشرك عامة ، وذلك بأن يدخلوا هم في الإيمان وفي تفهم المؤمنين ، فتنقلب العداوة بزوال أسبابها إلى مودة ، كما فيها تطيبب لنفوس المؤمنين بعد أن جاهدوا أنفسهم ولزموا حدود الله ، إنتصاراً لأمر الله ، أما قوله تعالى : { .. وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . } ففيها غاية الطمأنينة إلى قوة الله وقدرته الله على تغيير الأمور من أسوأ حال إلى أحسن حال ، غفور للتوابين ، رحيم بهم كما بعامة المؤمنين .

أما قوله تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ .. } سواء أمن هؤلاء أم لم يؤمنوا ، المهم أنهم لم يواجهوكم بقتال ولا بعداوة ، فلا بأس بالتعامل معهم بالبر الذي هو الخير والإقسط الذي هو العدل الذي يحبه الله ويحب أهله ، وذلك قوله تعالى : { ...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } .

يبقى قوله تبارك وتعالى : { إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ .. } التولي هنا ، الرضى بحكمهم والرضى بصادقتهم والإطمئنان إليهم ، فهؤلاء يبقون أعداء حتى يعتذروا هم إليكم ، ويقرروا بما اقترفوه بحكمكم من ظلم وأذى وعدوان ، ويظهروا ندامتهم على ذلك ، ومع الندامة الرضى والمودة لكم ، فإن لم يفعلوا يبقون أعداءً حاقدين يجب الحذر منهم والبعد عنهم . { .. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } . والظالمون عليهم غضب الله ونقمته في الدنيا وفي الآخرة .

يبقى أن نلفت إلى أن البعض قد يظن أن هذا التشريع إنما هو مختص بعهد النبي محمد (ص) وبقومه وأصحابه ، وإنما كان لتنظيم وضعهم ومجتمعهم فقط . فهذا الظن فيه تضيق شديد على عالمية القرآن وعالمية التشريع . والحقيقة أنه لازم ملزم إلى قيام

الساعة ، ونظرة إلى التاريخ بمراحله ، وإلى الحاضر على مستوى العالم ومستوى مجتمعاتنا الراهنة ، نجد أنَّ ظروف الدعوة إلى الله وإلى دينه العظيم وكتابه المجيد ، وإلى توحيده ونفي الشرك عنه ونفي البدع عن أصالة هذا الدين ، تتكرر ، ويتكرر معها عدااء الأعداء عالمياً ومحلياً ، وأحقادهم ومؤامراتهم ، وشن حروبهم على المسلمين والمؤمنين من كل حذب وصوب . وهم يجدون من يتعامل معهم من العملاء من أهل الحقارة والكفر والخساسة . لذلك ليس لنا ملجأ في حيرتنا في التعامل مع جميع هذه الأصناف ، إلا الله عز وجل وكتابه المجيد وتعاليمه المنجية من الخطأ والزلل ، والمثبتة على طاعته ورضاه ، والضامنة للصالح والفلاح ، في الدنيا والآخرة .

الفصل الخامس

ماءُ السَّمَاءِ

{ .. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. سورة هود ٧ }

{ .. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. سورة فاطر ٢٧ }

من أصول المعرفة : اليقين
بإدارة الله للكون وما فيه

من المؤسف جداً ، أن مناهج التعليم عالمياً ، تقدم إلى الطلبة في شتى مراحل الدراسة والإختصاصات ، المواد العلمية ، وقوانين المادة ، وشتى الحقائق الكونية المدركة ، دون نسبتها إلى خالقها وموجدها ، والذي يدير بها ويدبر أمر البشر والكون جملة وتفصيلاً . وعدم ذكر الله ، وعدم نسبة فضله وتحقيق الحقائق والجمال فوق العبري إليه ، كفر أيما كفر ، وجحود ونكران حقٍ واتباع باطل ونكران جميل . وهو يعاقب على ذلك . قال تعالى :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى . سورة طه الآيات (١٢٣ - ١٢٦) } .

فالعيش الضنك ، أي الصعب المعقّد ، الذي فيه الأرق والقلق ، والحيرة والضياع في الدنيا ، والعمى المذل المكمل يوم القيامة ، ذلك كله ، هو نتيجة للإعراض عن ذكر الله ، إقراراً بنعمته وإخلاصاً لوحدانيته .

ومثال من الأمثلة التي لا تكاد تحصي على ذلك . مثل تعليم الدورة المائية على مستوى السماء والأرض ، بين تبخر من البحار والأنهار إلى تحولها إلى غيوم إلى تكاثفها في شتّى رياح باردة عليها ، ثم هطولها أمطاراً . ولا يتوقف التعليم في شتى مراحل الدراسة عند هذا الأفق من المعرفة ، بل يتعداه إلى غطرسة العلم الذي قال وما يزال يقول : والإنسان كذلك يخلق دورة مائية على مستوى السماء والأرض . بلى ، هو بخّر ماءً بنسبةٍ ما تحت وطأة الحرارة ، وجعل منه غيماً بنسبة ما وبرّده بطريقة ما فنزل مطراً . وهذه لعبة كنا نلعبها في المراحل الابتدائية وفي البيوت ، إلا أن لعبة العلماء المتغطرسين ووراءهم جماهير الفتوحات العلمية المنقطعة في نظرهم عن الله ، هذه اللعبة أكبر قليلاً .

نسوا أن النواميس العلمية التي استعملوها ، إنما كانت جاهزة أظهرها لهم مخترعها الذي هو الله سبحانه ، والذي هو مخترع جميع قوانين وقواعد وأسس الإختراعات والفتوحات العلمية الذي توصل إليها ، بالتقليد والتطبيق ، العلم المدعي أنه الخالق .

ولنحاول الآن ، أن نحكي حكاية ماء السماء الذي خلقه الله تبارك وتعالى ، والذي لن يستطيع خلق مثله بآثاره الإنس والجن وجميع خلق السماوات والأرض ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

الماء الذي قال الله سبحانه إنه أنزله من السماء ، أخرج به من الثمرات ما لا يكاد يعد ولا يحصى ، رزقاً للعباد ، على مستوى الأرض وأجيال البشر وغير البشر ، واستعراضاً للقارات الخمس وسكانها اليوم ، نجد المليارات تستمتع وتغتذي بأنواع هذه الثمار ، لولا بعض التصحر في مناطق كانت خضراء خيرة نضرة ، وانقلاب الخصب إلى الجذب والري إلى الأرض الظمأى . هذا إلى أن الله في ذلك حسابات أخر .

لنتصور أن المطر انحبس عن كوكبنا الأرضي هذا ، وأن التصحر زحف على بقاع الدنيا هذه الخضراء ، وجفت الأنهار والينابيع والمياه الجوفية ، فماذا يستطيع العلم الذي ادعى أنه يخلق مطراً أن يفعل . وهو في الحقيقة لم يستطع أن ينقذ أية منطقة في العالم تصحرت أو ضربها الجفاف .

والله سبحانه لم يترك هذا الإنسان الذي خلقه عاقلاً وحمله مسؤولية عقله ، دون أن ينصب له الشواهد ، ويعرفه على الأضداد ، تحت عناوين الحسن والقبح ، والحق والباطل وغير ذلك في مجالي المحسوس والمجرد . وما دام الكلام عن خلق ماء السماء وآثاره البالغة في الأرض والإنسان وعامة الكون كما سنرى إن شاء الله ، فقد خلق الله الصحاري الكبرى على هذا الكوكب السيار ، وعرضها برمالتها ومتاهاتها ، وعطشها وجذبها ، واستحالة العيش في بعضها ، لأسباب أبرزها رمال متحركة أو رياح وأعاصير دائمة الهبوب أو غير ذلك . لا ماء مخصب ، إذن لا زرع ولا ضرع ، إذن لا إنسان وبالتالي لا حياة ، فإذن تلك هي الآية الكبرى من آيات الله ، الخلاصة العجيبة على مستوى السماء والأرض : لا حياة بدون ماء السماء .

ومن أين ، وكيف الحياة بدون ماء ؟!

نبات الأرض الذي لا عيش لإنسان ولا لحيوان بدونه ، لا ماء من السماء ، إذن لا نبات : لا غابات ولا حقول ، ولا أنهار ولا ينابيع ولا جداول ، ولا رغيف من أي نوع ، وباختصار شديد : لا يبقى على الأرض ما يؤكل أو ما يشرب . بما فيه الثروة الحيوانية المائية .

فالبهار كذلك ، تمويلها من ماء السماء .

أنهار العالم تصب في البحار ، وفي العالم أنهار ضخمة تسير فيها السفن وتقام على شطآنها الموانئ ، وما أكثرها وما أغزرها ، نذكر منها على سبيل المثال : النيل

أطول أنهار العالم والأمازون أضخمها والمسيبي والنيجر والراين والدانوب إلى مئات الأنهار في كل قارة من القارات التي تشكل هذا الكوكب .

وهذه الأنهار هي بجملتها وتفصيلها من ماء السماء . تهطل الأمطار وتتكدس الثلوج ، وبين انسراب الأمطار وذوب الثلوج إلى خزائن الينابيع الهائلة عمقاً واتساعاً يتكون المخزون العظيم الذي يمدُّ الأنهار على اختلاف أطوالها وأحجامها . فإذن هو ماء السماء منه الأنهار ومنه البحار .

ومن عجيب صنع الله تبارك وتعالى ، في هذه الدورة المائية بين البحار والأنهار ، أن معظم الحيوانات التي يزعمونها بحرية فقط ، قد أثبت البحث العلمي الرائع ، أنها إنما تهاجر من البحار ، في رحلة عجيبة شاقة صاعدة في الأنهار المتحدرة من سفوح الجبال العالية ، متعرضة للأخطار المميتة ، حتى تصل إلى مطمئن الينابيع ، لتنفس هناك وتموت راضية هنيئة في أوطانها الأصلية ، حتى إذا كبرت الفراخ بملايينها انحدرت في أنهارها إلى البحار والمحيطات ، لتبقى ما يشاء الله لها أن تبقى ، ويُصاد منها ما يُصاد . ثم من شاسع المسافات وعميق اللجج تنفصل الجماعات ، وتعود كل جماعة إلى مصب النهر الذي أتت منه ، لتعيد الكرة التي كررتها أمهاتها ، دون أيما دليل يعرفه الإنسان ، تفرق به الجماعة المائية بين نهرها وبقيّة الأنهار المشروعة مصباتها على اتساع المحيطات .

فسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وماء السماء عافية للنفس والبدن ، فرضه الله وضوءاً لمقدمات الصلاة ، ومن أسرارهِ أن اسم ماء الوُضوء (بضم الواو) وَضوء (بفتحها) وكلمة وَضوء مشتقة من الضَّوء ، وبالتالي اشتقاق عملية الوضوء كلها ، ظاهرها وباطنها . أما الظاهر فمعلوم ، وهو تطهير وإنعاش للبدن ، { .. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. } . أما الباطن ، فيبدأ بعقد نيّة التقرب إلى الله تبارك وتعالى ، فيكون فيه غسل الوجه عن التوجه عن المخلوقين ، من أجل حصر التوجه إلى الله وحده ، عقلاً وقلباً وسمعاً وبصراً ، وبكل حاسة . ويكون فيه غسل اليدين عن مديهما لغير ما يرضي الله ، وعن رفعهما للدعاء والقنوت رجاء غير الله . فالماء مع عقد نيّة التوجه إلى الله هو حالة ضوئية نسبية في الحياة الدنيا ، وهو حالة نورانية حقيقية يوم القيامة ، ولنعي ذلك بوضوح ، لنتأمل هذه الآيات الكريمات :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم آية ٨ } .

والحكاية المطمعة المفزعة ، التي يحكيها لنا الله بالأسلوب القرآني الحكيم ، قوله تعالى :

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ فِتْنَةً أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْنُمْ وَارْتَبِثْنُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . سورة الحديد الآيات (١٢ - ١٥) } .

ولذلك حَبَّبَ الله لرسوله (ص) وللمؤمنين إسباغ الوضوء ، وهو بعد الوضوء ، غسل الوجه مرتين بماء غزير وغسل اليدين إلى المرفقين .

في معركة بدر الكبرى ، جعل الله ماء السماء عنصراً من عناصر النصر المبين . فذكر سبحانه في القرآن الكريم أنه أنزل على جنده المسلمين من السماء ماءً ليظهرهم به ويذهب عنهم رجز الشيطان ويربط به على قلوبهم ويثبت به الأقدام .

وفي أهم آية تتعلق بالماء ودرجاته ، ونواميسه وقوانينه وكيميائه ، تلك التي يذكر فيها سبحانه أنه عندما خلق السماوات والأرض كان عرشه على الماء . وقد قيل في معنى الآية عدة أقوال ، إلا أننا واعتماداً على قوله تعالى : { .. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. } نعتقد أنه سبحانه إنما أراد بقوله : { .. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. } أي كان بناؤه للسماوات والأرض على أساس أسرارهِ في الماء وفي كيميائه وفي تحولاتهِ بين تبخر وتكثف ، وما ينتج عن ذلك من طاقة ، وما ينتج عن الطاقة من مادة . قال تبارك وتعالى :

{ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَا النَّاسِ وَالْجَانِّ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . سورة فصلت الآيات (٩ - ١٢) } .

ولنفهم أن كلمة دخان هنا ، هي حالة مائية متحولة من نشاط ومعادلات فيزيائية وكيميائية . نقرأ معاً نصاً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، طبعاً هو استفاده من النبي محمد (ص) . والنص هو بعض من كلام حول خلق العالم ، قال (ع) ، في سياق أدلة ساطعة عن وحدانية الله تبارك وتعالى :

" أنشأ الخلق إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً ، بلا رويّة أجالها ^(١) ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همّامة ^(٢) نفسٍ اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها ، ولأم ^(٣) بين مختلفاتها ، وغرّز ^(٤) غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالماً بها قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وانتهائها . عارفاً بقرائنها وأحنائها ^(٥) . ثم أنشأ - سبحانه - فتق الأجواء ، وشقّ الأرجاء ، وسكّانك ^(٦) الهواء ، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره ^(٧) ، متراكماً زخّاره ^(٨) .

(١) الروية : الفكر وأجالها : أدارها ورددها .

(٢) همامة : مصطلح عند متكلمي المجوس .

(٣) لأم : قرن .

(٤) غرّز : أودعها طبائعها .

(٥) قرائن : جمع قرونة وهي النفس . والأحناء : الجوانب .

(٦) سكّانك : جمع سكاكه بالضم وهي الهواء الملاقى عنان السماء .

(٧) تيّاره : موجه .

(٨) زخّار : الشديد الزخر .

حمله على متن الريح العاصفة ، والزعرع ^(١) القاصفة ، فأمرها برّده ، وسلّطها على شدّه ، وقرنها إلى حدّه . الهواء من تحتها فتيق ^(٢) ، والماء من فوقها دفيق ^(٣) . ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبّها ^(٤) ، وأدام مُربّيها ^(٥) ، وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها بتصفيق ^(٦) الماء الزخّار ، وإثارة موج البحار ، فمخضته ^(٧) مخض السيّقاء ، وعصفت به عصفتها بالفضاء ، تردّ أوله إلى آخره ، وساجيه ^(٨) إلى مائره ^(٩) ، حتى عبّ عبّائه ، ورمى بالزبد زُكامه ^(١٠) ، فرفعه في هواء منفق ، وجو منفق ^(١١) . فسوى منه سبع سماوات ، جعل سفلاً من موجاً مكفوفاً ^(١٢) ، وغليها من سقفاً محفوظاً ، وسمكاً مرفوعاً ، بغير عمدٍ يدعمها ، ولا دسار ^(١٣) ينظمها . ثم زينها بزينة الكواكب ، وضياء الثواقب ^(١٤) ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً ^(١٥) ، وقمرأ منيراً : في فلك دائر ، وسقفٍ سائر ، ورقيم ^(١٦) مائر .

- (1) الزرع : الريح التي تزعزع كل ثابت .
- (2) فتيق : مفتوق .
- (3) دفيق : مدفوق .
- (4) اعتقم مهبتها : جعل هبوبها عقيماً والريح العقيم التي لا تلقح شجراً ولا سحاباً .
- (5) مربها : مصدر ميمي من أرب بالمكان لازق فالمرب الملازقة .
- (6) تصفيق الماء : تحريكه وتقليبه .
- (7) مخضته : حركته بشدة كما يمخض السقاء .
- (8) الساجي : الساكن .
- (9) المائر : الذي يذهب ويجيء .
- (10) ركامه : ما تراكم منه بعضه على بعض .
- (11) منفهق : مفتوح واسع .
- (12) مكفوف : ممنوع من السيلان .
- (13) الدسار : واحد الدسر وهي المسامير .
- (14) الثواقب : المنيرة المشرقة .
- (15) مستطيرا : منتشر الضياء .
- (16) الرقيم : إسم من أسماء الفلك . سمي به لأنه مرقوم بالكواكب .

لعل ابن أبي الحديد أفضل من فسّر كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في « نهج البلاغة » . ومع ذلك فإنه فيما يتعلق ببعض القضايا العلمية ولا سيما علم الفلك ، فإن تفسيره كان قاصراً ، نسبة لقصور علوم عصره ^(١) في هذا العلم ، ولو كان ذهبياً في بقية العلوم . إذ أن علم الفلك لم يصبح عملياً وتحت المشاهدة البصرية إلا في القرن السادس عشر الميلادي ، حيث اكتشف الإيطالي غاليليو أول تلسكوب رصد به بعضاً من حركات مجموعتنا الكوكبية ، وظل هذا العلم يكبر ويتطور ، حتى صعدوا به إلى القمر وكشفوا اللثام عن الكثير من أسرار ما تحت السماء الدنيا . لذلك - في شرح كلام أمير المؤمنين عن خلق العالم - سأواكب العلامة الفذّ ابن أبي الحديد في شروحه اللغوية ، مسقطاً الشروح الظنية التي كانت سائدة في عصره عن مفهوم السماوات والشمس والقمر والكواكب وبقية العناصر . وبعد ذلك إن شاء الله ، أقيم مقارنة بين المفهوم الإسلامي لخلق العالم ، والذي تضبطه النصوص الإلهية ، وبين الإعتقاد الظني المتداول بين كثير من علماء القرن العشرين ، والذي اتفقوا على تسميته بالإنفجار الكبير (BIG BANG) .

أما قوله عليه السلام : " أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً " .

فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء كقوله سبحانه : { .. لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } . سورة فاطر الآية ٣٥ { .. لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. } . سورة المائدة الآية ٤٨ .

وقوله : " بلا روية أجالها " ، فالروية الفكرة ، وأجالها ردّها ، ومن رواه أحالها بالحاء ، أراد صرفها . وقوله : " ولا تجربة استفادها " ، أي لم يكن قد خلق من قبل أجساماً فحصلت له التجربة التي أعانته على خلق هذه الأجسام .

وقوله : " ولا حركة أحدثها " ، فيه رد على الكرامية الذين يقولون : إنه إذا أراد أن يخلق شيئاً مباحيناً عنه أحدث في ذاته حادثاً ، يسمى الإحداث ، فوق ذلك الشيء المباحين عن ذلك المعنى المتجدد المسمى إحداثاً .

وقوله : " ولا همامة نفس اضطرب فيها " ، فيه ردّ على المجوس والثنوية ، القائلين بالهمامة ، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحة

(١) : عاش في العصر العباسي الثاني وتوفي حوالي ٦٥٦ هجرية .
ما يقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام .

وأما قوله : " أحال الأشياء لأوقاتها " ، فمن رواها : " أحلّ الأشياء لأوقاتها " ، فمعناه جعل محل كل شيء ووقته كمحل الدين . ومن رواها : " أحال " ، فهو من قولك : حال في متن فرسه ، أي وثب وأحاله غيره ، أي أوثبه على متن الفرس ، عدّاه بالهمزة ، وكأنه لما أقرّ الأشياء في أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيره على فرسه .

وقوله : " ولأم بين مختلفاتها " ، أي جعل المختلفات ملتئمات^(١) كما قرن النفس الروحانية^(٢) بالجسد الترابي ، جلّت عظمته .

وقوله : " غرّز غرائزها " ، المروي بالتشديد ، والغريزة : الطبيعة ، وجمعها غرائز ، وقوله : " غرّزها " ، أي جعلها غرائز ، كما قيل : سبّحان من ضوأ الأضواء ! ويجوز أن يكون من غرّزت الإبرة بمعنى غرست ، وقد رأيناها في بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : " والزمها أشباحها " ، الضمير المنصوب في " ألزمها " عائد إلى الغرائز ، أي الزم الغرائز أشباحها ، أي أشخاصها ، جمع شَبَحَ ، وهذا حق لأنّ كلاً مطبوع على غريزة لازمة^(٣) ، فالشجاع لا يكون جباناً ، والبخيل لا يكون جواداً ، وكذلك كل الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : " عالماً بها قبل ابتدائها " ، إشارة إلى أنه عالم بالأشياء فيما لم يزل . وقوله : " محيطاً بحدودها وانتهائها " ، أي بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : " عارفاً بقرائنها وأحنائها " ، القرائن جمع قُرُونَة ، وهي النفس ، والأحناء : الجوانب ، جمع حنو ، يقول : إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحها ، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلقة بها والصادرة عنها .

-
- (1) : ب " ملتئمة " وما أثبتته عن أ .
(2) : لنا اعتراض على المثل . انظر كتابنا " العقل الإسلامي " .
(3) : حصر الكلام عن الغرائز بالإنسان ، والمقصود خلاف ذلك ، فالإنسان مكلف بموجب العقل وأوجب عليه سبحانه التربية ، أما الغرائز فلما دون الإنسان من مخلوقات

ورجوعاً إلى كلمة : " هَمَامَة " ، في قوله عليه السلام : " ولا همامة نفس اضطرب فيها " ، فقد حكى زُرْقَان⁽¹⁾ في كتاب : " المقالات " ، وأبو عيسى الوراق والحسن بن موسى ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلخي في كتابه في : " المقالات " ، أيضاً عن الثنوية : أن النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظلمة والإغارة عليها ، فخرجت من ذاته قطعة - وهي الهَمَامَة المضطربة في نفسه - فخالطت الظلمة غازية لها ، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه ، وخرجت هَمَامَة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت هَمَامَة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان وتتدانيان وهما ممتزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ، حتى انبنى منهما هذا العالم المحسوس . ولهم في الهَمَامَة كلام مشهور ، وهي لفظة اصطلحوا عليها ، واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهَمَامَة بمعنى الهمة - كما زعم القطب الراوندي - والذي عرفناه الهَمَّةَ والكسر والفتح ، ونقول لا هَمَامَ لي بهذا الأمر ، مبني على الكسر كقطام ، ولكنها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

الكون حيٌّ عاقل :

=====

بما أن كل شيء خلقه سبحانه هو حي بنسبة أو بأخرى ، بدليل النص القرآني وثبوت النظريات العلمية ، فنستطيع أن نقول في الآية الكريمة : { .. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ

شَيْءٍ حَيٍّ .. سورة الأنبياء الآية ٣٠ } أنه جعل كل شيء في السماوات والأرض من الماء ، حتى النور والنار .

أما النص القرآني الدال على حياة الأشياء ، وحتى على وعيها وإدراكها ، وإن اختلفت بذلك النسب والمقادير فقله تعالى :

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غَفُورًا . سورة الإسراء الآية 44 } .

(1) هو زرقان المتكلم تلميذ ابراهيم بن سيار النظام ، وقد حكى زرقان عن النظام أقوالاً في الفرق بين الفرق 50 - 51 ، وذكره المسعودي في التنبيه والإشراف 342 .

ففي قوله : { تُسَبِّحُ لَهُ .. } التسبيح نوع من ذكر الله يحدث عليه الإعجاب والإعظام والإكبار والشوق إلى الله سبحانه ، وفي جملة معانيه تنزيهه وتمجيده . وهذه المعاني يتعاضم معها الحب لله ، كلما تعاضم الإدراك ، وبنسبة القصد والتركيز ومراتب المخلوقين في سلم الوجود .

أما قوله تعالى : { .. السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .. } فقد أجمل فيه سبحانه العناصر الثلاثة التي تتكامل فيما بينها مؤلفة هذا الكون ، والتي إذا نقص منها أحد عناصرها فقد الكون حقَّ قيمته ، فلا تقوم أرض بدون سماء تتفاعل معها حسب ما هندس الله عز وجل وقدر وقضى ، وبنفس المقتضى لا تقوم سماء بدون أرض . ثم لا يكون لهما قيمة بدون سكان يروحون ويجيئون عليهما وبينهما . هذا في وجدان العقل العادي . أجمل سبحانه القول ثم فصل متابعاً في آيته الكريمة : { .. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. } المعنى ، ما من شيء في الكون إلا يسبح بحمد الله ، أي معجباً منزهاً ممجداً ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، وهذا طبيعي جداً ، فالناس وهم من صنف واحد هو صنف البشر ، لا يفقهون لغات بعضهم البعض ، فكيف وقد اختلفت الأصناف ، أصناف الخلق ، واختلفت معها اللغات بين سماوية وأرضية وحتى أبجدية . وبين ما هو مسموع وما هو غير مسموع ، أو حسب التعبير العلمي : ما هو في مستوى الصوت أو فوق مستوى أو تحت مستوى .

والخلاصة ، بما أن كل شيء يسبح بحمد الله ، فكل شيء ، وبالضرورة ، يعي ويعقل ، وما دام كل شيء يعي ويعقل ، فكل شيء هو حيٌّ ، وما دام الكون مؤلف من الأشياء ، وهو في ذاته شيء مجمل ، فإذن الكون كله بجملته وتفصيله هو حيٌّ وعاقل .

ولا بدّ هنا من القياس المنطقي ، فالمعلوم أن الإنسان هو الأرقى في المخلوقات في ظاهر هذا الكون . يأتي دونه في الدرجة : عامة الحيوانات ، التي نعلم أنها تعي وتدرّك ولكن بنسبة أقل على اختلاف أصنافها . يأتي بعدها النبات ولا خلاف في ظهور الحياة فيه ، وغموض الوعي والإدراك . ولكن التأمل من جهة والتجارب من جهة ثانية ، يثبتان وعياً ولو غريزياً للنبات ، يعلم ذلك علماء النبات وكذلك الأذكىاء من المشتغلين في أنواع الزراعة .

وما دام هذا التدرج من حيث نسب الحياة والوعي ، قائم بوضوح ، بين الإنسان والحيوان والنبات ، فلماذا لا نلحق به الجمادات ، أو ما تعارف الناس على تسميته بالجمادات ، اعتماداً على الظواهر من جهة ، وعلى محدودية البصر الإنساني من جهة ثانية ؟

هنا جاء دور العلم الفذّ ، الذي قيّضه الله سبحانه للإنسان { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . سورة العلق الآية ٥ } . جاء دور العلم ليكشف ويثبت أن الجمادات ليست جمادات .

فقد تبين منذ النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد انفلاق الذرة ، أنّ كل شيء ظاهر في الكون ، كل مجسم ، من سائل أو غازي ، أو جامد أو متحرك ، هو ذرّيٌّ أو نووي نسبة إلى نواة الذرة .

وداخل الذرة - على صغرهما المتناهي - عالم مذهش مذهل ، نموذج مصغّر عن مجموعة شمسية مثل مجموعتنا هذه التي في الطرف الجنوبي من مجرة درب التبانة . شمسها النواة التي فيها البروتون الذي حيّر العلم والعلماء ، حيث أنه لا يموت أبداً ، بينما كل شيء في الذرة يموت دونه .

ويدور حول هذه الشمس - النواة - ما أسموه بالالكترونات كما تدور حول شمسنا الكواكب السيارة ، ولكن سرعة الألكترونات هائلة ، ولكنها تزيد وتنقص حسب أوضاع أجسامها تبعاً للحرارة أو البرودة . كل نواة فيها وحولها حركة دائبة ، وكل جسم في الكون من الزهر إلى الصخر ، إلى العطر إلى الحديد ، مروراً بالإنسان ، هو نوويّ ، فإنّ هو متحرك بحركة دائبة ، وتبدو ذاتية - أي بدون طاقة مفتعلة - فإنّ هو حيّ . وربطاً بالنصوص الإلهية ، وكون كل شيء يسبح بحمد ربه ، فإنّ هو مدرك ، وإنما - كما ذكرنا - حسب درجته التي درّجه الله سبحانه فيها ، في هذا الوجود .

بقي أن نلفت ، إلى أنه لا يجوز لنا أن نقول هذا " شيء " إلا لما وقعت عليه المشيئة ، أي لما شاءه الله تعالى أن يكون وأن ينسب إليه . فلا يجوز أن ينسب إلى الله أي

فعل من الإنسان مشين ، أو أية قذارة من القذارات . وقد خلق الله الإنسان في الأصل نظيفاً نورانياً ، يغتذي ولا يقدر ، كما الجنين في بطن أمه . ولكن كانت المعصية ، ثم على أثرها الإهباط . فكان على الإنسان أن يجهد ليرتقي من جديد ، من المادية وإفرازاتها ، إلى النورانية ونظافتها وطهارتها . والإنسان مندوب لهذا الترقى في الدنيا قبل الآخرة . وهذا ميسر له إذا عرف كيف يحب الله ، وكيف يفنى في فناء الله . فإذا ابتعثه الله في الدنيا من جديد ، علّمه الترقى وأعانه على الوصول .

الفصل السادس

{ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . سورة الغاشية - الآية 18 }

{ .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. سورة فاطر الآية ٢٨ }

هذه الآية قالها عالم الكيمياء هبة الله المشرقي لزميله عالم الفلك الإنكليزي ، فأسلم .
وكان السبب في ذلك ما يلي :

" جيمس جونز " وهو من أشهر علماء الفلك في القرن العشرين ، خارجاً من جامعة كمبردج حيث يدرّس فيها هو والمشرقي ، وكان الجو ممطراً بغزارة ، فالتقاه زميله هبة الله على باب الجامعة والمطر يتقطر من وجهه وأذنيه ، بينما مظلته تحت إبطه مع كتاب ضخّم ، فسأله المشرقي : إلى أين ، قال إلى الكنيسة ، قال ولمماذا ولا أعلمك من المصلين ولا المتدينين . قال أصبحت منهم وأنا ذاهب لأسجد لله سجدة طويلة وأقول له ما أعظمك ! ما أعظمك يا رب ! . قال المشرقي والمطر ما زال ينهمر عليهما غزيراً ، وما هذا تحت إبطك قال الإنجيل ، قال وهذه ؟ فالتفت جيمس جونز فوجد أنها مظلته ، لم يفتن لاستعمالها وهو بأمس الحاجة إليها لأنه كان ما زال شارداً ذهنه في الفلك وتعتقداته وعجيب نظامه وعظمة خالقه ومبرمجه ومدبره وحافظه ، والذي هو الله تعالى لا شريك له ولا مساعد ، ومن يستطيع أن يساعد في حمل ثقل واحد من أثقال هذه الغابات النارية - النورانية - أو أن يلمّ بأسفارها واتجاهاتها وحركاتها ناهيك عن خلقها على عظامها وعجائبها بين حرفين : الكاف والنون . ومن العدم ، فقد أثبت العلم أن المادة ليست أزلية ، لا سيما بعد اكتشاف " القانون الثاني للحرارة الديناميكية " . Second law of Thermo Dynamics ، هذا القانون يبرهن أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حراري) إلى (عدم حراري) والعكس مستحيل .

وبناءً على هذا الإكتشاف العلمي الرائع ثبت أن موجودات ما تحت السماء الدنيا من نجوم وكواكب وأجرام سماوية تتناقض كفاءتها مع الزمن ، ولا بدّ من أن تتساوى في وقت ما - إذا شاء الله - حرارة جميع الموجودات ، وعندئذ ، بعد استقراء هذا الوضع من

الناحية العلمية ، تنتهي الحياة أو تتوقف على هذه الأرض وتحت هذه السماء . نحن استطردها .. وتركنا جيمس جونز يبتسم ، إذ انتبه لشروده عن مظلته حتى تبلل ولم يشعر ، ودعا صديقه ليشرح له في لقاءٍ عصر ذلك اليوم ، سبب إيمانه العميق والفجائي .

ومع تناول الشاي أخذ عالم الفلك يتحدث عن بعض وجوه هذا النظام الإلهي العظيم ، للسماء وكواكبها ونجومها ، وعالم الكيمياء القرآني ، يستمع ويوافق ، حتى وصل إلى درجة لم يعد رأسه يحتمل ، من عجائب تحركات الأجرام السماوية وتعقيداتها وأرقامها وأبعادها . فأشار إلى صديقه أن كفى ، ثم استأذنه بأن يتلو عليه آية من القرآن الكريم . قال :

قال الله تبارك وتعالى :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . سورة فاطر الآيات (27 - 28) . }

فاستعادها جيمس جونز وتمعن فيها ، وتداول مع هبة الله بشأن تاريخها وتفسيرها . إلى أن انتهى إلى القرار بأن هذا القرآن هو يقيناً من لدن الله تبارك وتعالى ، مقرأً بأن محمداً (ص) هو رسول الله . فبادره المشرقي بقوله : على هذا الأساس أنت أسلمت يا صديقي . قال : إذا كان الإسلام هو الإقرار بوحداية الله كما في كتابكم والإيمان بالقرآن منزلاً من لدن الله تبارك وتعالى وبمحمداً رسولاً من عند الله ، فأنا أسلمت حقاً . فقال له : هل أكتب ما جرى بيننا وأنشره ؟ قال : اكتب وأنشر . وأنا شاكر الله وبذلك فخور .

لماذا { .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. } ولا سيما الذين يتتبعون في الأفق وفي الأنفس عجائب خلق الله وغرائب آياته ، وبالأخص منهم علماء الفلك ؟ ذلك لقوله تعالى : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .. سورة غافر آية 57 } .

فماذا في السماء ؟

=====

في علم الفلك أن عدد نجوم السماء مثل عدد حبات الرمال الموجودة على سواحل البحار . من هذه النجوم ما هو أكبر من الأرض ، لدرجة أنه يمكن أن يوضع في واحد من النجوم العملاقة ملايين من حجم أرضنا هذه .

ورغم أن العلم بشكل عام وعلم الفلك خاصة لم يستطع أن يتوصل إلى معرفة حدود هذه السماء الدنيا ولا يعرف عن حدودها شيئاً . ولكن لا بأس أن نستأنس بنظرية أينشتاين الرياضية ، فقط لنأخذ فكرة وعبرة عن عظمة هذا الكون الرحب الفسيح الذي يعجز الخيال والتصور عن رصده ، فضلاً عن عجز الأرصاد الضخمة والأجهزة المتقدمة .

يقول هذا العالم الفذ : لنتصور طائرة خيالية تسير بسرعة 186 ألف ميل في الثانية . وأن هذه الطائرة تطوف بنا حول هذا الكون الموجود الآن . إن هذه الرحلة ستستغرق (1,....,....,....) سنة . يضاف إلى ذلك ، أن هذا الكون ليس جامداً ، وإنما هو يتسع ويتمدد كل لحظة ، حتى أنه بعد (1, 3,....,....,....) سنة تصبح هذه المسافات الكونية ضعفين . وهكذا لن نستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية ، أن تكمل دورتها حول هذا الكون أبداً . وإنما ستبقى تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم .

نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف نجم ، عندما تكون السماء صافية ، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (2,....,....) أي مليوني نجم ، حين نستعمل تلسكوباً بسيطاً . واليوم ، أصبح لدى الدول المهتمة بمثل هذه العلوم ، تلسكوبات متقدمة ضخمة ، ترصد بلايين النجوم ، ومع ذلك فهي تعترف أنها ما تزال مقصرة عن إدراك ما في هذا الكون ، وعن معرفة حدود هذه السماء الدنيا .

إن أقرب جرم متحرك بالنسبة إلينا ، هو القمر إذ يبعد عنا (240) ألف ميلاً وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته في مدة 29 يوماً ونصف يوم . وكذلك تبعد أرضنا هذه عن شمسنا (93,....,....) ميلاً ، وهي تدور حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة . وتستكمل هذه الدورة مرة واحدة في السنة . وكذلك توجد تسعة كواكب ، ضمنها الأرض ، تدور كلها حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب ، بلوتو ، الذي يدور في دائرة (7,5,....,....) ميلاً حول الشمس . وحول هذه الكواكب ، تدور عشرات الأقمار غير قمرنا .

بعض الحقائق عن شمسنا :

- تبعد عنا شمسنا هذه التي في السماء الدنيا 93 مليون ميل .

- لولا قبضتها الممسكة بالكواكب الدّوّارة ، لانطلقت هذه الكواكب في الفضاء الكوني
- لولا حرارتها وضوؤها لعمّ الأرض الظلام والجليد المقيم ، ولانعدمت الحياة على الأرض .
- قطرها صف من الكرات الأرضية عددها 109 .
- حرارة سطحها 6000 درجة مطلقة مما يجعل المعادن فيها إذا وجدت تنصهر وتتحول إلى غاز .
- حرارتها الداخلية 14,000,000 مليون درجة مطلقة (أي على مقياس الدرجات الذي يبدأ من الصفر المطلق وهو - 273 درجة مئوية ، أي نهاية ما تصل إليه برودة الأجسام) .
- مثل شمسنا في السماء الدنيا مليارات ، وأكبر منها بملايين المرات ولكنها لأبعادها الهائلة ، ترى نجوماً ، أو نقاطاً ضوئية . وأقرب نجم أو شمس إلينا ، هو أبعد من شمسنا 30 ألف مرة .
- عناصرها 80 ٪ هيدروجين ، 18 ٪ هيليوم ، 2 ٪ عناصر أخرى .
- الهيدروجين المدّخر في الشمس يكفي لـ 1500 مليون سنة قبل أن يتحول لهيليوم .
- تستغرق أشعتها لتصل إلينا 8,5 دقائق .
- 1,300,000 مرة أكبر من الأرض ، يعني تستوعب إذا تصورناها مجوفة كرة أرضية .
- إذا تصورناها في كفة ميزان عملاق ، فعلينا أن نضع في الكفة المقابلة 333... كرة أرضية حتى تتساوى الكفتان . وهذا ما يسمى بالوزن أو الكتلة .
- كثافتها (1,41) هي قريبة من كثافة الماء التي هي (1)
- جاذبيتها أقوى 28 مرة من الأرض . بحيث أن ما يزن 7 كلغ على الأرض ، تزن 200 كلغ على الشمس . لذلك، لكي ينفلت الصاروخ من قبضتها ، يلزم أن تكون سرعته 386 ميل في الثانية ، أي أسرع 55 مرة من قوة انفلاته من الأرض .

وبعض الحقائق عن القمر :

- متوسط بعده عن الأرض 24,000 ميلاً .
- سرعة دورانه في فلكه 287,2 ميلاً في الساعة .
- قطره يساوي 160,2 ميلاً .
- المساحة المرئية منه 59 في المائة .
- أكثر الفوهات اتساعاً 100 ميلاً .
- أعلى الجبال 2,000 قدم أي 7,000 م . عمره نحو 5,400 مليون سنة .

- درجة الحرارة على الجانب المضاء بالشمس 120 درجة سنتغراد .
- درجة الحرارة على الجانب المظلم (- 150) درجة سنتغراد .

{ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . سورة الغاشية الآية 18 } :

عندما كان الناس يظنون أن الأرض هي مركز الكون . كان المعتقد أن النجوم مجرد مصابيح أو فوانيس سماوية معلقة في قبة السماء من أجل أن تنير الأرض . وبالتدريج استطاع العلماء من أمثال غاليليو وكوبرنيكوس ونيوتن إقناع الناس أن الأرض ليست هي مركز الكون . ولكنها مجرد جزء صغير جداً في هذا الكون العملاق .

وهكذا تمكن الإنسان من أين يرى عبر أبعاد متزايدة من الفضاء بواسطة المناظير الفلكية المكبرة ، التي استعملها أول مرة في القرن السادس عشر الميلادي غاليليو بعد أن هداه الله إليها ، في الوقت الذي قدّره وقضاه هو سبحانه .

شموس بعيدة عن كوكبنا الأرض ملايين السنين :

الأبعاد التي بين النجوم أو الشمس كبيرة جداً إلى حد عندما نعبر عنها بالأميال أو الكيلومترات ، فينبغي أن نزل نرصد ملايين الملايين أو المليارات . ولذلك وحتى لا يدوخ العلماء بهذه الأرقام أخذوا يقيسون المسافات والأبعاد بالسنين الضوئية . ومع ذلك ظلوا واقعين تحت وطأة الأرقام المليونية .

والقياس بالضوء ، يختصر المقاييس العادية اختصاراً شديداً . فالسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة من سنّي الأرض . علماً بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة مسافة (...، 3 كلم) أو (...، 186 ميل) . بحيث تتمخض السنة الضوئية عن رقم خيالي من الأميال هو في الحقيقة ست ملايين ملايين ميل أو حوالي عشر ملايين ملايين كيلومتر . ويمكن باستخدام المراصد المتقدمة الحديثة التعرف على نجوم أو شمس تقع على بعد آلاف ملايين السنين الضوئية .

وكما هو معلوم ، شمسنا هي أقرب النجوم إلى الأرض . ورغم ذلك فإن ضوءها يستغرق ٨،٥ دقائق ونصف حتى يصل إلينا . وخارج مجموعتنا الشمسية يسمى أقرب النجوم إلينا قنطورس ، وهو على بعد ٤،٥ سنوات ضوئية منا . ولو تخيلنا أننا نستطيع السفر بسرعة الضوء وأقلعنا وعمرنا عشر سنوات فلن نصل إلى ذلك النجم الجميل

المسمى الدبران قبل أن نبلغ الثامنة والسبعين من العمر . وبعض النجوم التي يمكن أن تراها بعينك المجردة تقع على بعد آلاف السنين الضوئية . وعلى ذلك ، وبغض النظر عن السرعة التي تنطلق بها ، فإنك لن تستطيع أن تصل إليها في حياتك .

ومن الأهمية بمكان ، أن نقدر ما تعنيه هذه الأزمنة والمسافات بالنسبة إلى مواقع النجوم . فنحن نعلم أن مواقع النجوم تتغير طوال الوقت . وأن النجوم تتحرك بالنسبة لبعضها البعض . ولكن كيف نستطيع الحكم على موقع أي نجم ؟ هل عن طريق النظر إليه ؟ كلا . لأن ضوءه الذي نراه إنما استغرق زمناً طويلاً حتى وصل إلينا . وخلال ذلك الوقت تحرك النجم وغيّر موضعه . ولذلك فمن اللازم أن نحسب السرعة التي يتحرك بها ، ومن ثم نعود بموضع النجم إلى مكانه الحقيقي . وعلى ذلك يتبين لنا أن لكل نجم موضعين هما : الموضع الذي نراه فيه . ثم الموضع الذي يشغله حقيقة . فعندما ننظر إلى أكثر النجوم بعداً عنا في الفضاء ، نراها على الحالة التي كانت عليها خلال آحاد سبقت بكثير تكامل تكوين الأرض . (وليس خلقها) .

ولنحاول أن نتخيل صورة مبسطة للسماء الدنيا بمصابيحها . فأصغر ما فيها من أشياء هي تلك الشهب ، والنيازك ، والمذنبات ، والقمر ، ثم الكواكب السيارة (مثل الأرض والزهرة وعطارد) وهذه الأشياء تلف وتدور حول نجم مركزي (مثل الشمس في حالتنا) . ويبدو أنه من اللازم ، أن يتبع كل نجم كواكب سيارة ، وإنما هذه الكواكب لا ترى بالمراسد إلا بصعوبة كبيرة ، لأنها لا تشع الضوء ذاتياً . إلا أن بعض العلماء ، اكتشفوا وفي السنة 1999 كواكب سيارة تدور حول نجومها أو حول شمسها خارج مجموعتنا الشمسية .

ومعلوم أن النجوم ، تكون مع بعضها البعض ، مجموعات كبرى تسمى المجرات ، بينما تدخل كل المجرات معاً في بناء السماء الدنيا .

الشموس أنواع عديدة :

=====

قبل أن نتحدث عن أنواع الشمس أو النجوم ، ينبغي أن نذكر شرطاً عظيماً من

أشراط الساعة ، وهو في قوله تعالى :

{ فَأَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . سورة القيامة الآيات (٧ - ٩) } والشرط الذي أعنيه بين هذه الثلاث شروط هو قوله سبحانه : { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } إذ المعلوم من القرآن الكريم أنهما لن يجتمعا ، لقوله تعالى : { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . سورة يس الآية 40 } .

فالقصد إذن من قوله تعالى : { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } هو جمعهما أو جمع كلٍ منهما جمعاً لغوياً ، وذلك بعد إفراد كلٍ منهما قبل الكشف العلمي الفلكي ، وهذا من إعجاز القرآن . فقبل هذا القرن العشرين ، كانت لفظة الشمس أو القمر تعني شمسنا وقمرنا بالنسبة لأرضنا هذه الدنيا . أما وقد تبين أن في السماء شمس وأقمار ، فأصبح لازماً علينا ، أن نفهم أن كلمة الشمس إنما هي اسم علمٍ لشمسنا ، وهي اسم جنس لبقية الشمس ، وكذلك القمر بعدما اتضح أن هناك كذلك أقمار عديدة لبعض الكواكب السيارة من أخوات كوكبنا هذا الذي بقمر واحد . وهذا الإيحاء اللغوي شائع في اللغة العربية ، فكلمة الإنسان تعني - إذا أردت بها جميع أفراد الإنسان - كما أنها تعني فرداً واحداً إذا أردت بها ذلك ، وكذلك كلمة صديق وعدو وأدم ، وسبأ وعاد وثمرود .. ومثل ذلك شمس وقمر .

ونتابع في آيته الكريمة المعجزة : { وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ } .

فالنجوم أو الشمس ، يمكن أن تقسم إلى أنواع مختلفة ، تبعاً لألوانها ودرجة حرارتها ، اللذين بدورهما كثيراً ما يتبعان أحجام الشمس . فالشمس ، شمسنا ، عبارة عن نجم أصغر (وهو أكثر أنواع النجوم شيوعاً) . وتبلغ درجة حرارة هذا الخليط من النجوم المتوسطة الحجم نحو ...6 درجة سنتيغراد . وثمة فصيلة أخرى من النجوم ، وهي فصيلة النجوم الحمراء . درجة حرارتها أقل (...3 درجة سنتيغراد) وغالباً ما تكون عظيمة الحجم ، ومن ثم يطلق عليها اسم العمالقة الحمراء . وفي الطرف الآخر لمقياس الأحجام تأتي النجوم أو الشمس الزرقاء ، التي تميل إلى أن تكون أصغر حجماً وأكثر ارتفاعاً في الحرارة (نحو ...15 درجة سنتيغراد أو أكثر) .

وكل الشمس تفصل بينها مسافات كبيرة جداً ، حتى إنه قد يمضي زمن مثل ..5 بليون سنة ، قبل أن يصطدم نجم بنجم آخر ، ولكنها مع ذلك ، فإنها تكون جزءاً من مجرتنا ، التي بدورها ما هي إلا واحدة من بين مجرات هذه السماء التي تقدر بالملايين .

ونحن نقع - أي مجموعتنا الشمسية - على وجه التقريب ، على بعد ...3 سنة ضوئية من مركز المجرة . ومن السهل أن نرى كيف تزداد كثافة النجوم داخل المجرة بازدياد القرب من مركزها . والآن تصور أن عليك أن تنظر عبر المجرة إلى الجانب الآخر

الأكثر بعداً ، عندها سوف ترى عدداً هائلاً من النجوم ، القريبة أو البعيدة ، وذلك في حزمة سعتها في مثل سمك المجرة .

والآن أخرج في ليلة صافية ، وحاول أن تستعرض مجرتنا هذه . فإنك سترى الطريق اللبني كما سماها الإغريق .

وأول من وصف حزمة الضوء العريضة التي تعرف باسم الطريق اللبني أو درب التبانة هو ديموكرييتس (وهو نفس الإغريقي القديم الذي كان أول من صاغ النظرية الذرية) وقد اقترح وذهب إلى أن الطريق اللبني إنما يتكون من عدد وفير من النجوم (أو الشمس) بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بينها . ولقد أثبتت المناظير الفلكية الحديثة صحة ما ذهب إليه .

{ إذا الشمس كورت . سورة التكوين الآية الأولى } :

وتلف المجرة بشمسها كلها وتدور حول نفسها بمعدل قدره 140 ميلاً في الثانية . وتستغرق ما يقرب من 230 مليون سنة لكي تتم دورة كاملة . ولسوف يصيبك الدوار إذا أقدمت على التفكير في كل الاتجاهات التي تدور فيها وتلف في وقت واحد .

وفي هذا العصر يستطيع المرء باستخدام المناظير الكبرى الفلكية القوية أن ينفذ ببصره من مجرتنا ليرى مجرات أخرى . ولتلك المجرات مناظرها الرائعة فبعضها يشبه العجلات الكبرى بينما يشبه بعضها الآخر المغازل الجميلة .

{ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . (*) } :

{ إذا السماء انفطرت } و { وإذا الكواكب انتثرت } أي فتحة الأوزون ، وأصبح مفروغاً منها . وقد تلاها فتحات في أرجاء السماء ، كل فتحة بمساحة قارة .

يبقى قوله تعالى : { وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ } .

فقد اكتشف علماء الفلك أن الكواكب لا حصر لها وهي تتناثر بسرعة خارقة متباعدة عن بعضها البعض . ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار متناثرة في الهواء . فلو استطعت أن تتخيل هذا في شكل أعظم ، لأمكنك أن تحظى من الفهم بشيء عن السيارات والكواكب في الكون ، مع الفرق الهائل المتمثل في أن ذرات الغبار تتناثر ويتصادم بعضها مع بعض . ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تسير في أعالي البحار متباعدة ، حتى أن إحداها لا تعرف شيئاً عن الأخرى .

وكذلك في قوله تعالى :

{ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . سورة التكويد الآية 2 }

الإنكدار في اللغة هو السقوط ، يقال انكدر الطائر إذا أصيب جناحه أو جرح فيجنح أو يسقط .

(*) سورة الإنفطار الآيات (١ - ٢) .

ومعلوم بالنسبة للسماء أنها كرة محيطة بنا ، وأن الناس هم المخاطبون بلغة القرآن إضافة إلى معشر الجن . وبما أن الناس منتشرون حول كوكب الأرض وهو كروي أيضاً فإن أي ذهاب في السماء إلى أية جهة من جهاتها هو سقوط بالضرورة بالنسبة لقسم من الناس . مثال ذلك : الصاروخ المنطلق صعداً من القطب الشمالي في الأرض ، هو في حالة سقوط بالنسبة للذين هم في منطقة القطب الجنوبي .. وهكذا ..

ومن بين الحقائق الهامة جداً المتعلقة بالمجرات أنها كلما ازداد بعدها عنا ، كلما تراءى لنا أنها منطلقة بسرعات أكبر . وفي الواقع نجد أن المجرات الأكثر بعداً عنا إنما تتحرك بسرعات تبلغ من الكبر الحد الذي يصل بها إلى سرعة الضوء ، بحيث لا نستطيع أن نراه قط . ويطلق العلماء على تلك المجرات اسم : (حدود الكون المرئي) . وهي تسمية لطيفة تعترف ببساطة بعجزهم عن معرفة حدود هذه السماء .. الدنيا .

الفصل السَّابِع

أهمية القائد عند الله

فهو يقود إما إلى جنة إما إلى نار

" كما تكونون يولئ عليكم " قالها رسول الله محمد (ص) .

هذا الحديث يمكن أن يكون إجابة على السؤال : لماذا يرضى الله بقيادة للشعوب والعساكر ، ملوكاً وغير ملوك ، وهم من أهل الطغيان أو الفساد أو الجور ، فضلاً عن شركهم أو كفرهم ؟

ولماذا لا يهوى الله سبحانه للشعوب قادة صالحين ، يقودونهم على صراطه المستقيم ؟

هذه التساؤلات صحيحة ، وكذلك الأجوبة ، انطلاقاً من هذا الحديث المنطقي ، الذي يصدق القرآن الكريم : " كما تكونون يولئ عليكم " .

فنحن لكي لا نستعرض أمثلة من التاريخ الماضي أو المعاصر، وما أكثر المصاديق والنماذج ، في طبائع الشعوب وملوكهم وقاداتهم ، مما نعي ونرى من الماضي والحاضر ، نكتفي بمثال واحد من كتاب الله ، يكفينا الغوص حول أسرار هذه الأسئلة المعقدة .

مصر ، كانت في حقبة من الزمان ، مركز الحضارة في العالم ، وقد حكم المصريون الوثنيون وإلى أماد متطاولة أكثر العالم المعروف آنذاك سواء مما حولهم من أفريقيا من جهة ومن آسيا من جهة أخرى . أي ما يعرف بمنطقة الشرق الأوسط . ويبدو بقوة ، أن أخبارهم التي ذكرها القرآن ، عن بعض مراحل تاريخهم ، تصوّر حقيقة شعب منقاد بأهوائه ومزاجيته ووثنيته ، إلى ملك ، هو نصّبه ، فقاده عبر انتصارات عسكرية وكذلك حضارية .. إلى جهنم .

والسؤال هنا ، ما دام الله عادلاً ورحيماً ، فلم لم يجعل قائدهم أو مليكهم أو يجعلهم هم من المهديين الصالحين ، فيحكموا العالم بالعدالة والرحمة والدعوة إلى التوحيد .. توحيد الله .

في الحقيقة ، كما هو واضح في القرآن ، أن الله سبحانه فعل ، إذ لما وجدهم كذلك شعباً وملوكاً ، جفاةً طغاةً يؤلهون فراعينهم الدهاة المتجبرين المتكبرين المفسدين في الأرض ، أرسل لهم رسولا لينقذهم مما هم فيه ويهديهم إلى منطق العدل والعقل وإلى رحمته . أرسل لهم موسى عليه السلام :
ففي القرآن الكريم قوله سبحانه :

{ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب . سورة غافر الآيات (٢٣ - ٢٤) } . واضح هنا ، أن المقصودين كانوا برسالة الله تبارك وتعالى ، هم زعماء البلاد : الرجل الأول ، أو الرئاسة الأولى في الأمة ، والرجل الثاني في الحكم ، ثم إلى مركز السيطرة المالية والإقتصادية المتمثلة بقارون .

وواضح كذلك في تاريخ الحكومات الاستبدادية وحتى الديمقراطية السائدة كما رأينا ونرى في القرن العشرين ، أن الحكام الذين هم من الدرجة الأولى يشكلون ما يشبه العصاة ، يتعاضد فيها سلطان النفوذ مع سلطان المال ، وما دام لا يلجم هذه الأنواع من التحالفات أو العصابات ، رادع ديني أخلاقي ، فإنها تتحول إلى مافيات إرهابية بثياب رسمية ، تحكم البلاد والعباد ، وتقود الشعوب ، معظمها - كما سنرى في القرآن - إلى جهنم .

ولا ننسى أن هذا التحالف ، قد يكون مع رجال دين نافذين مثل رؤساء الأديان وسنة المعابد والهياكل وبيوت العبادة سواء على مستوى الوثنية ، أو بعض ، بل أو كل

الأديان السماوية إذا أفرغت من جواهرها ، وعمل بها بالبدع والنفاق والتستر باسم الدين أو بثياب الدين .

وقليلة جداً هي الثورات الشعبية في التاريخ القديم أو الحديث ، التي انتفضت فيها الجماهير ضد طواغيتها ، ولعلّ أبرزها وأعظمها في التاريخ ثورتان ، الثورة الفرنسية التي دمدت على التحالف المتمثل بالسلطة ورجال المال أي الإقطاع ، ورجال الدين الذين زوروا الدين المسيحي وسخروا الكنيسة لجشعهم وبدعهم .

ولا بدّ أن نلفت إلى أن الثورة الفرنسية ، لأنها لم تقم على أسس روحية ، بل هي تنكرت أصلاً لهذه الأسس ، لعدم قدرتها آنذاك على تفسير الدين المسيحي الحقيقي ، ولنقمتها الشديدة على رجال الكهنوت . فقد وقعت في مطبات وكوارث وكثير من سفك الدماء والإنقلابات المتتالية منها عليها ، حتى انتهت بعد مخاضات عسيرة ، إلى صيغة علمانية ، استبعدت فيها الدين عن الدولة .

أما الثورة الثانية ، التي أثرت عميقاً ، على السياسة العالمية ، وزلزلت أركان الاستبداد الاستعماري ، بجميع أشكاله العسكرية والثقافية والاقتصادية ، والتي أنعشت تطلعات الشعوب المصعوقة بالحضارة المادية ، والمسحوقة تحت عجالات قطارها السريع ، فهي الثورة الإسلامية في إيران . ورغم أن الثورة كانت معجزة بإطارها العام ، وإنما كان ضمن هذا الإطار معجزات كثيرات ، لعلّ أبرزها سرعة استقرارها ، والفشل المتكرر والمتلاحق لغزوها عسكرياً ومخابراتياً واقتصادياً وثقافياً وعلى كل صعيد . { .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. سورة الحج الآية ٤٠ } صدق الله العزيز الحكيم .

" كما تكونون يولى عليكم " كذلك كان هذا الحديث الشريف انطباقاً على الثورة الشعبية الإسلامية في إيران . فإن نسبة التدنّ في الشعب الإيراني المسلم ، وتاريخ التدين والروحانية في هذه الأمة العريقة بحضارتها وعقلانياتها ، كل ذلك جعل من نتائج ثورتهم أن ولى الله سبحانه عليهم من هو أهل لهم وهم أهل له ، ولا أعني واحداً فقط بشخصه وصفات القيادة الرائعة التي اختصه بها الله سبحانه أعني الإمام الخميني (س) . وإنما أعني كذلك كل رجل دين شارك في الثورة أو أيدها ولو بقلبه { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . سورة الأحقاف 19 } وكذلك كل مسلم ومسلمة ، وحتى من خارج الحدود الإيرانية ، فالثورة كانت بطلاً ، معجزة ، وكان بطلاً كل من هلّل لها وكبّر وصاح بشعارها : **الله أكبر** . وهو التوحيد الأعظم .

فالقيادة الحكيمة المجتمعة فيها كل أو معظم الصفات التي تمكنها أن تقود شعباً أو أمة أو أية مجموعة بشرية إلى شرف الدنيا والآخرة ، ليس مقدراً لها أن تنجح ، إذا لم تجد بيئة صالحة وأنصاراً صالحين ، نوعية وعددا .

والعكس صحيح ، إذا وجد الصالحون الكافون لتغيير وضع من طغيان وفساد ، إلى عدل وصلاح ، ولم يكن بينهم قيادي موفق من الله وملهم ، فإن المجتمع يبقى في نوع من الفراغ وفقد الراعي في المجال الإنساني .

ولأهمية القيادي عند الله تبارك وتعالى ، إذ أنه قد يقود قوماً إما إلى جنة إما إلى نار . فقد رأينا أن الله سبحانه أرسل إلى ثلاثة من القادة ، الذين يحكمون أمة ضخمة ، بل أمماً ، أرسل إليهم وبالتالي إلى شعبهم رسولاً من أولي العزم ، هو موسى عليه السلام .

ولكن طواغيت الأمة هؤلاء ، وكأكثر طواغيت الحكم في بلاد الدنيا ، أخذتهم العزة بالإثم ، فكذبوا موسى ، وأنكروا رسالة الله إليهم وإلى شعبهم ، وتعالوا وتجبروا ، رغم آيات معجزات ، أبداها لهم الله سبحانه على يد موسى (ع) . فأضلوا شعبهم وقادوه - كما سنرى - إلى الهلاك ثم إلى النار والعذاب المؤبد .

وللمقارنة وأخذ العبر ، نرى موسى (ع) في المقابل عبداً لله مطيعاً ، يحرص بكل ذرة في كيانه على طاعة مولاه الله عز وجل . فيقود قومه إذ اتبعوه ، ويخلصهم بعون الله وقضائه من الذل والقتل والمهانة التي كانوا يزرعون تحت وطأتها في حكم فرعون .

قد يقال موسى نبي وفرعون ليس بنبي ، فنقول هناك جوابان : الأول أن الناس سواسية في الفهم والاعتقاد والاتباع ، وبكلمة واحدة هم سواسية في الاختيار ، فلماذا اتبع فريق فرعون واتباع فريق موسى؟! والجواب الآخر هو إنه حتى النبي ذو العزم المميز والصفات القيادية العالية ، قد يخونه أتباعه ويكفروا ويتفرقوا ، كما فعل بنو إسرائيل حيث عبدوا عجلاً معدنياً نحتته لهم أمام أعينهم أحد الصنّاع .

يبقى الكلام المهم ، عن مدى التأييد الإلهي لنوعية القائد أو خذلانه في الدارين . والخذلان في الدار الآخرة أمرٌ وأخرى .

ففرعون وزملاؤه في الحكم ، برغم ما هو عالٍ في الأرض ، قوي بعصابته ، وجيشه واتساع ملكه وسلطانه ، وعبادة شعبه له ، فقد حطّه الله من شاهق ، هو وزبانيته وجميع أتباعه وعامة شعبه الذي أساء الاختيار . فكفروا حتى بما أبصرت أعينهم ، فضلاً عن منطق العقل ، وعظائم ما خلق لهم الله في السماوات والأرض .

فذلوا بعد عز وعيش كريم ، ثم إلى أين بعد الهلاك ؟

وفي ثلاث آيات بينات تختصر أبعاد الحدث التاريخي الذي أراد منه سبحانه أن يكون عبرة للحكام ولتابعيهم فيما بعد من حياة البشرية . وتلخص مدى مسؤولية القيادي ومدى مسؤولية من يتبعه من الناس ، وضرورة أن يرى كل إنسان مصيره ، هل هو إلى عذاب دائم أم إلى نعيم مقيم .

وهذه الآيات هي قوله تبارك وتعالى :

{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى . سورة طه الآيات (77 - 79) } .

فمن قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي .. } تستفاد عبرة عظيمة يجب أن يتوقف عندها كل قائد وكل مقود أو تابع . وهي أن يكون القائد ربانياً متبعاً لتعاليم الله باسمه يقود وإلى صراطه يدعو وفي سبيله يجاهد ، ويقود الذين يقودهم - عالماً عارفاً بالله - إلى شرف وكرامة الدارين الدنيا والآخرة .

أما قوله تعالى : { .. فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. } فهي طريق الحياة الواضحة المعالم ، التي يسلكها السالكون ، وهم على يقين وعلى بينة من استقامتها وسلامتها ، لكي لا يغرقوا في بحر الحياة ومataهاته وظلمة لججه وعنف أمواجه .

وقوله تعالى : { .. لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . } فيها إخبار لموسى عن حاله ، فالله أعلم بنفس موسى من موسى بنفسه ، فهو سبحانه إذن طمأنه إلى هذه الحقيقة ، وهي أنه في هذه الآونة البينة الخطر ، وبعد أن كان موسى يخاف في بدء تدرجه في تكاليف النبوة والرسالة . أصبح اليوم أكثر إدراكاً و يقيناً بأن الله عزت عظمته معه ، حاضر بقوته المطلقة وعزته التي لا تحاول ولا تطاول ، وقد رأى بالأمس كيف دكَّ أمامه الجبل دكاً وخرَّ موسى صعقاً ، وكيف أنه جل شأنه خذل السحرة وأذهلهم وهدم عزة فرعون التي أقسموا بها ، ورأى موسى .. ورأى .. ما جعله اليوم أثبت أركاناً وأعظم يقيناً بنصرة ربه له وبخذلان عدوه ، فهو إذن لا يخاف أن يلحق به فرعون وجيشه ولا يخشى من البحر ومفاجاته ، بعد أن جمَّده الله له وادياً بين جبلين كأنما بنيا من الحجارة .

واندفع هذا القائد بين الجبلين متوكلاً على الله ، لا يخاف دركاً ولا يخشى ، واندفع وراءه قومه ، كذلك متوكلين على الله كما علمهم هذا القائد الفذ ، وكذلك غير هيايين ، لكثرة ما رأوا من أفضال الله عليهم ومن آياته وعجائبه .

وهنا يظهر مدى تأثير القيادة سلبية كانت أو إيجابية ، على حق كانت أو على باطل ، والنموذجان في بحثنا هذا حاضران موسى عليه السلام وعدوه عدو الله فرعون . هذا قاد قومه إلى ولاية الله ورضاه ورضوانه ما داموا في طاعته ، وذلك قاد قومه إلى العداوة لله وإلى غضبه وانتقامه .

وهنا تظهر بقوة ، الضرورة ، ضرورة المعرفة ، أولاً معرفة الله جلّ وعلا ، ثم بعدها بقية المعارف ، وأعلاها بعد معرفة الله ، معرفة القائد لنفسه ، أعلى حق هو أم على باطل ، أفي طاعة ربه هو وعلى بينة منه ، أم أنه يخطب خطب عشواء ، فيلقى بعدها في جهنم . وكذلك مدى مسؤولية الأتباع وضرورة أن يترثوا طويلاً قبل اتباع أي قائد أو زعيم أو إمام ، وأن يعرفوا بمستوى اليقين لا الاشتباه ، ولا الظن ، إلى الله ورضوانه يقودهم أم إلى الهاوية .

والمثال على الحالة السلبية ، هذا أحد الطواغيت ، جعله الله سبحانه نموذجاً يعتبر به ويقاس عليه : قال تعالى في سياق الآيات :

{ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشِيَهُمْ } .

هكذا في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل . فلماذا نقم فرعون وهامان وقارون وقومهم من موسى ؟ نعموا منه أنه يؤمن بالله العزيز الحميد ، نعموا منه ومن أتباعه ذلك . وكالعادة بين أهل الباطل وأهل الحق . أرسل فرعون جنوده بأثر موسى وقومه ، والتحق هو بهم بكوكبة من فرسانه . وكذلك بصدد سنة الله في أعدائه ، حيث يخذلهم ويذلهم ويخزيهم ، فقد خذل فرعون وتابعيه وأذلهم وأخزاهم ، إذ أدخلهم من حيث أخرج موسى وقومه من بين الجبلين المائيين ، فأنجى هؤلاء ، وأطبق الجبلين على فرعون وجنوده ، بعد أن تكاملوا عدداً في هذا الوادي من الخضم الزاخر ، هكذا خضم الحياة الدنيا وأوديته وجباله وأمواجه ، ففقدة وأتباع ينجون بولائهم لله وخشيته وحبه ، وقادة وأتباع يهونون في الأودية ، أو تمزقهم الأمواج العاتية ، فيكون لهم خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب أليم . وذلك بكفرهم أو بشركهم أو بعدم تقصيصهم للحق وأهله .

ثم كانت في الآيات البيّنات ، خلاصة الخلاصة ، قوله تعالى :

{ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى . } . وصدق الله العزيز الحكيم .

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } ٥٩ . سورة النمل الآية 59 .

الحمد لله قبل كل شيء وبعد كل شيء . الحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، هذه الصيغة { الحمد لله } هي الثقل الوحيد في الميزان الذي يملكه الإنسان ، في إحدى الكفتين ، في مقابل عطاءات الله ونعمه التي لا تحصى ، وأنه سبحانه سخر للإنسان ما في السماوات والأرض ، في الكفة الأخرى . وماذا يستفيد الله عز وجل من كلمة { الحمد لله } ، سوى أنها إخلاص له سبحانه ، وإقرار بنعمه ووحدانيته ، وهو الملك الحق المبين ، خالق الخلق ومالك الملك ، والغني عن العالمين .

أما قوله تعالى : { .. وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. } ففيها من رحمته ورأفته وعنايته ، وحتى من حبه للمخلصين من عباده ، الشيء الكثير ، والشأن العظيم .

ولماذا ؟ للفرق بين اختياريين لرجلين كليهما من طينة واحدة ، أحدهما اختار أن يكون كافراً طاغية فاسداً مفسداً ، والآخر اختار أن يكون مؤمناً مخلصاً صالحاً مصلحاً . فالحمد لله سبحانه يلعن الطاغية ويبعده من رحمته ، ويقرب الصادق المؤمن ويصطفيه ، ويقول له سلام مني عليك ، فهل أجمل وهل أغلى من هذا السلام ، والله سبحانه ، هو السلام ومنه السلام وبه السلام .

فرعون أشرك بالله نفسه ، حتى إنه جحد الله تعالى وأعلن نفسه إلهاً .. وليس بعيداً عن فرعون كل من يجعل نفسه محور اهتمامه وشهواته وأطماعه ومصالحه وجمعه المال واستقطابه الناس ليرضي طموحه وكلبه على الدنيا ، فهو كافر من ناحية ومشارك من ناحية ، كافر بنسيان خالقه ورازقه ومحبيه ومميته ، ومشارك بأن جعل لنفسه عدة أرباب منها المال والجاه والناس ..

والمؤمن الصديق ، يبذل نفسه حباً بالله وجهاداً في سبيل الله ويستترخص كل ما دون الله تعالى ويزهد . يعلم أن كل شيء يملكه هو ملك لله ، حتى نفسه ، لذلك تراه عند الإقتضاء يجود بها غير مبال بالعواقب : " والجود بالنفس أسمى غاية الجود " .

وإذا كانت مفردات الشرك التي يتعبد لها أهل الشرك والجحود ، هي هذه : الإنسان ، النفس الأمارة ، مظاهر القوى في الطبيعة ، مراكز القوى في الأرض ، ملوك ، زعماء ، وحتى الأنبياء والأولياء ، إذا عبدوا من دون الله أو دُعوا من دون الله ، كل هذه المفردات من الإنسان إلى جميع ما خلق الله في الأرض أو في السماء ، مجتمعة ومتفرقة ، لا تعادل في قاموس الألوهة والعزة والكبرياء ، إلا كلمة ، هي : باطل ، . قال عزّ وعلا : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } . سورة لقمان الآية 30 { وقال رسول الله محمد (ص) : أصدق كلمة قالتها العرب ، هي قول لبيد : " ألا كل شيء ما خلا الله باطل " .

لذلك قوله تبارك وتعالى : { عَالِمٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } . سورة النمل آية 63 { وتعالى علواً كبيراً ، له الحمد وله الشكر كما حمد نفسه وكما شكر نفسه وكما ينبغي لكرم وجهه .

الفصل الثامن

عَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟

ءالله خيرٌ أمّا يُشركون ؟

ما دام الله سبحانه : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية 3 } وما دام سبحانه : { .. هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ .. . سورة الحديد الآية 4 } وما دام سبحانه : { .. مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ .. سورة المجادلة الآية 7 } هذا قوله سبحانه وهذا كلامه ، ومن قوله عز وعلا ومن كلامه : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . سورة ق الآية 16 } قال وعرف عن نفسه ، وأمر ونهى ، وفصل الآيات وكشف الحقائق ، وأشبع العقول ورؤى الأنفس وأنزل كل ذلك وأعظم من كل ذلك في كتاب مجيد ، ليس أمجد منه ولا بمجده كتاب تحت هذه السماء الزرقاء . هو القرآن العظيم .

لذلك كله ، إنني أنا إذا دعوت غير الله ، لأي شأن من الشؤون أو أية حاجة من الحاجات الخاصة أو العامة ، أكون قد دخلت في الشرك الظاهر ، والشرك الخفي أدهى وأمر . ومعلوم من حكمه سبحانه ، الذي لم يفهمه بعد أكثر الذين يقرؤونه ويجودونه ويفسرونه ، وهو قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . سورة النساء الآية 48 } يتلون هذا القول ويحفظونه عن ظهر قلب ، ويشركون جهاراً ونهاراً وليلاً وبدون حياء لا من الله ولا من القرآن الذي من يفهمه نجا ومن لم يفهمه إلى الجحيم - إلا من كان معذوراً بعدم إلمامه بلغة القرآن - .

يحفظون هذه الآية كما يحفظون فاتحة الكتاب وفيها : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ويعبدونه وكأنه ليس هو في الأرض إله وفي السماء هو كذلك ، قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . سورة الزخرف الآية 84 } وإنما يحسبونه فقط في أعالي السماوات . مرات عديدة يفتون بين يديه كل يوم ليقولوا له { إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { ثم ينسونه ويكثرون ذكر غيره من أولياء أو أشقياء ، ويستعينون دائماً وأبداً بسواه .

إذهب إلى أي مستشفى من مستشفيات العالم الإسلامي وغير الإسلامي ، لترى أنهم كلهم - إلا من رحم ربك - يستعينون بالدواء ، والدواء غير الله ، ويستعينون بالطبيب والطبيب غيره سبحانه . ويتفذلكون يقولون إن الله خلق الداء والدواء وخلق الطبيب . قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في أبيات .

وداؤك منك وما تشعر	دواؤك فيك وما تبصر
بأحرفه يعرف المضمّر	وأنت الكتاب المبين الذي
وفيك انطوى العالم الأكبر	وتحسب أنك جرم صغير

استفادها من محمّد (ص) ومن القرآن الكريم . أما من محمّد (ص) فحين أرسل له ملك القبط من مصر هديته المشهورة ، وفيها طبيب ومارية القبطية وسيف وأشياء غيرها ، تقبل رسول الله كل الهدية إلا الطبيب ، قال بلطفه المعهود : عد سالماً وحسبنا الله وقرآنه الكريم ، به نستشفى وبه نستكفي أو كما قال رسول الله (ص) .

أما القرآن ففيه أكثر من خبر وإشارة إلى أن فيه شفاء للأنفس وشفاء للأبدان ، أي للأمراض النفسية والبدنية ، وكذلك أمراض الوهم التي تفتك بأكثر الناس فتكاً ذريعاً ، وهي لا تكاد تحصى . نذكر منها على سبيل المثال : الشقيقة (أي نوبات الصداع الشديد) . والكآبة التي غالباً ما تؤدي إلى الانتحار ، والأرق (عدم القدرة على النوم) والقلق (وهو فقد السكينة والطمأنينة) إلى مئات الأمراض العصبية ، التي لم يستطع الطب أن يحصر أسبابها فضلاً عن حصر أمكنتها ، لا من قبل المريض المروجع ، بل من قبل الطبيب المراقب أو الفاحص . ولا ننسى أمراض الحساسية ، التي دوّخت هي وشقيقاتها العصبية والنفسية الطب والأطباء .

أما عن الأمراض العضوية وكوارثها ، فكلام لا يكاد ينتهي ، فصدور خربة ، وبطون تكاد تصيح من كلبية معطوبة أو كبّد مشمع أو بنكرياس تعب أو مرارة فيها حصى أو زائدة ملتهبة ، والتهابات وأوجاع ، حتى أن الأصوات الطبية ارتفعت تقول إن المضادات وكثير غيرها من الأدوية ، تنفع في جانب وتضر في جوانب أخرى . والحقيقة المرة أن دعوى تقدم الطب والجراحة ، والشفاء من الأمراض المستعصية ، ولا سيما الأمراض التي كانت سائدة تفتك بالبشر ، ما هي إلا دعوى وهمية غريبة عن الحقيقة . وصحيح أنها زالت أمراض ، ولكن حلت محلها أمراض أخطر وأدهى وأوسع انتشاراً ، ويكفي مثلاً على ذلك الإيدز والسرطان .

هذا ، وينبغي أن نقرر ، أن الناس الذين كانت تفتك بهم الحميات وبقيّة الأمراض التي كانت سائدة ، وادعى الطب أنه استأصلها ، هؤلاء الناس لو كانوا ربانيين ، يعرفون اللجوء إلى الله تعالى ذكره ، ويعرفون الاستغاثة به سبحانه وحده لا شريك له ، ويعرفون أنه موجود معهم ، مع كل فرد منهم ، وأنه أقرب إلى الإنسان من دمه ومن قلبه ومن نفسه ، لو وقروه وعرفوا قدره ، وحكموه بأنفسهم وأولادهم ، وتعهدوا أنفسهم وأبدانهم وبيئتهم كما أمرهم سبحانه ، بالوقاية والنظافة ، والإعتدال في المأكل والمشرب وتجنب المحرمات ، وغير ذلك من التعاليم الإلهية الموجودة في مظانها . لما فتك فيهم سلٌّ ، ولا حمى ، ولا من الأمراض الحديثة يبرز ولا سرطان ولا غير ذلك . ولكن { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** . سورة الروم آية 41 } سابقاً أو حالياً أو لاحقاً .

فماذا في القرآن الكريم من أخبار الشفاء ؟

في رأس أسباب الشفاء وأسباب الشقاء ننطلق من قوله تعالى : { **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** . سورة الأعراف الآية 96 } فتأمل في هذا القول الكريم ، فنعرف من أين المرض ومن أين العافية .

هذا الكلام ، بمعظمه ، لا يفهمه ولا يعتبر به إلا مؤمنون من العارفين ، أو هم على أبواب العرفان ، ونحن نعلم بفضل من الله ، أنه سينقَر ويغضب كثيرين ، وذلك فقط لأنهم لا يعرفون الله ، على الأقل ، بالدرجة ، التي تمكنهم من تصديق أنه يمكن الاستغناء عن غير الله ، أما القول عن الأسباب فصحيح ، ولكن الأصح منه أنه سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب ، وكلمة (كن) عنده ، أي إرادته التي بدون حروف وبدون حدود ، هي في رأس الأسباب . قوله تعالى :

{ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** . سورة يس الآية 82 } .

أما ماذا في القرآن عن أخبار الشفاء فنذكر بعض ما يعيننا الله عليه :

أولاً : قوله تبارك وتعالى : { **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** . سورة النمل الآية 62 } .

ثانياً : قوله تبارك وتعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } . سورة الإسراء الآية 82 .

ثالثاً : قوله تبارك وتعالى : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } . سورة فصّلت الآية 44 .

قد نحتج على أنفسنا بآية يبدو أنه سبحانه جعل فيها العسل سبباً للشفاء ، ولكن بعد التأمل فيها نجد أن الشفاء الذي جعله سبحانه في العسل ، هو مختص بالناس ، بينما الشفاء الذي جعله في القرآن ، مختص بالمؤمنين (في آية ونزل من القرآن) وبالذين آمنوا (في آية فصّلت) .

وفي القرآن الكريم ، تفريق - غالباً يعرف بالقرائن - بين لفظة الناس وبين المؤمنين أو الذين آمنوا .

ومثال على ذلك ، يقول سبحانه في مطلع سورة الحج : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرَوَّنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } .

في الآية ، كما هو واضح ، وصف لأهوال الساعة ، التي لمجرد مشاهدتها تذهل المرضعة عن طفلها الرضيع الذي هو أهم شيء لديها في الدنيا ، وكذلك تضع كل ذات حمل حملها ، إن كانت امرأة حامل تجهض ، وإن كانت نفساً من الأنفس تحمل أي حمل باليد مثلاً ولو كان مالياً كثيراً أو ذهباً أو لؤلؤاً أو ماساً فإن صاحبه يضعه من يده ، لشدة الهول والرعب وقطع الأمل نهائياً من الحياة الدنيا وكل ما فيها .

وفي قوله تعالى { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } تخصيص للناس بشدة العذاب ، أي غير المؤمنين لأنه من البديهي أن المؤمنين الحقيقيين لا يتعذبون بيوم القيامة ، وقد جاء في ذلك أكثر من نص قرآني : قال تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي

كُنْتُمْ تُوعِدُونَ . يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا
إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . سورة الأنبياء الآيات (101 - 104) { .

فالذين سبقت لهم الحسنى من الله جلّت عظمته ، هم عامة المؤمنين الصالحين ،
وجهنم هي التي لا يسمعون أدنى أصواتها فضلاً عن انفجاراتها ، ولا يحزنهم الفرع الأكبر
، أي يوم القيامة ، لا يسبب لهم حزناً ولا ألماً ولا أدنى حالة من حالات العذاب ، وهو ذاته
اليوم الذي ترى فيه الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن حالتهم التي تشبه السكر هي من
شدة العذاب .

طبعاً هناك في القرآن الكريم خطابات للناس تعني فيهم المؤمنين وغير المؤمنين ،
مثل { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . سورة الحجرات الآية 13 } وغيرها كذلك . إنما كل
خطاب تتجلى فيه حكمة الله ويعرف مقصده بالقرائن كما رأينا .

فأما حكاية العسل ، والشفاء الذي جعله الله تعالى فيه ، هو من واسع رحمته للناس
، الذين ليس لهم حظ أو ثقة أن يستشفوا بالأسرار التي في كلام الله أو يستشفوا بالله تبارك
وتعالى ، بين رقية ، أو تلاوة ، أو دعاء مضطر ، أو حسن توكل وصبر جميل . والله
المستعان في جميع ذلك ، وحده لا شريك له .

وما شأن العسل إذن بالنسبة لأولياء الله والصالحين من عباده ؟ شأنه شأن أي طعام
، حيث لا يتوخون الفائدة والنفع والغذاء من هذا الطعام أو ذاك ، يعلمون أن الفائدة في ما
تستطيعه أنفسهم ، إذ يجعل الله لهم فيها موازين ، يشتهون بموجبها ما ينفعهم ، ويعرضون
عما يضرهم ، وذلك من أطفاف الله وأفضاله عليهم .

إلا أن ، هناك قواعد صحية في القرآن وفي تعاليم الله عامة في السنن النبوية ،
ينبغي العمل بها . وفي رأسها قوله تبارك وتعالى : { .. يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ
مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ
لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . سورة الأعراف الآيات (31 - 32) { .

قوله تعالى : { .. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. } أمرٌ منه سبحانه ، مخالفته
معصية يترتب عليها أن لا يكون المسرف في طعامه وشرابه مستحقاً لرحمة الله ولمحبته ،
فيتخلّى عنه سبحانه فيقع في الضرر ، ثم في المرض .. والإسراف في المأكول والمشرب

هو الزيادة عن حد الاعتدال ، جملة وتفصيلا . جملة في مقادير الوجبات وتفصيلا في مطيبات الطعام ، مثل الملح والبهار وغير ذلك ، ولا سيما ما يسمى اليوم السَّمان الأبيض والملح والسكر . ومعلوم أنه كل شيء زاد عن حده إنقلب إلى ضده .

ولهذه الآية الكريمة حكاية طريفة ، نوردها لنعلم أنها تمثل في الحقيقة خلاصة الطب الوقائي ، وأن الطب الوقائي هو أولى وأعظم من جميع أنواع الطب الذي عرفته البشرية .

ففي مجلس للخليفة المعتصم ، كان الطبيب المشهور ابن بختيشوع ، طبيب البلاط العباسي . وكان في المجلس علماء وقادة وأعيان . تكلم ابن بختيشوع قال : ما وجدت في دينكم شيئا من الطب . وإنما العلم علما : علم أديان وعلم أبدان ، فما وجدنا عندكم من علم الأبدان شيئا . فصمت المجلس وأخذ المعتصم يستعرض القوم ليرى هل من معلى على هذا التحدي . استأذن لجيب ، عبد الله بن الحسين بن طاهر ، وكان قائدا عسكريا وقيها ، قال : جُمع الطب كله عندنا في نصف آية من كتاب الله : قوله عز وجل : { .. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. } وجمع الطب كله في حديث لرسول الله (ص) قوله : المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء واعط البدن ما عودته . وسكت . فأطرق ابن بختيشوع طويلا . ثم رفع رأسه وقال : والله ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

يقول المتنبي ليقدر أن الموت لا يفرق بين الأدنى والأعظم من الناس ، دالاً على عظمة جالينوس وشهرته في تاريخ الطب :

" يموت راعي الضان في جهله مينة جالينوس في طبه " .

ومعلوم اليوم ، كم من القيمة للطب الوقائي في الدول المتقدمة . معتبرين أن الالتزام به يحول دون التعرض لأنواع الأمراض التي تجتاح العالم .

تبقى الوصايا الملهمات التي حكاها الله سبحانه ناسبا إياها إلى خليله إبراهيم عليه السلام قوله :

{ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . سورة الشعراء الآيات 78 - 82 } .

الفصل التاسع

فهم الوجود

بين موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام

خاطب الله رسوله محمّداً (ص) قال :

{ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . سورة آل عمران الآية 84 } .

الشاهد في الآية الكريمة { .. لَا نُفَرِّقُ .. } وهي أمر لجميع المؤمنين أن لا يفرقوا بين جميع الأنبياء عليهم السلام ، بحيث يقول بعضهم ، نتبع هذا ولا نتبع ذاك ، ونؤمن لهذا ولا نؤمن لذلك .

وعدم التفريق هذا ، ليس معناه أن الأنبياء والرسل جميعاً هم سواسية من حيث القيمة وقوة النفس ودرجة التأثير ، والمكانة عند الله عز وجل ، وبالتالي لزوم أن يحقق بذلك الناس ، فيستفيدوا من الخصائص العليا ، عند من فضلهم الله سبحانه .

قال تعالى :

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... سورة البقرة آية 253 } .

ومن أبرز الذين فضلهم من الأنبياء ، أولئك الذين جمعهم في هذه الآية الكريمة مخاطباً بها رسوله محمداً (ص) :

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . سورة الشورى آية 13 } .

وحيث أن الله سبحانه أبرز من الكتب المنزلة التوراة ثم الحق بها الإنجيل ، وأسماها { الكتاب } وأسمى أتباعها { أهل الكتاب } ثم أنزل القرآن وجعله مهيمناً بمضامينه على { الكتاب } أي على التوراة والإنجيل . وحيث أن التوراة انزلت على موسى والإنجيل على عيسى ، والقرآن على محمد عليهم السلام أجمعين ، وحيث أن هذه الكتب هي المتداولة بين الأمم اليوم ، والمعروفة وحدها ككتب سماوية ، وحيث أن الله تعالى قرّر في القرآن المجيد الحقيقة التالية عن القيمة الأعلى والأبقى للقرآن الكريم ، في قوله تعالى :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ سورة المائدة آية 48 } .

لذلك كله ، وبإذنه تعالى وبفضل منه سبحانه ، عزمنا متوكلين عليه ، أن نتكلم في المقولة المتداولة بين أهل العرفان ، والتي مفادها ما يلي :

" إن موسى عليه السلام نظر بعين الكثرة ، وأن عيسى عليه السلام نظر بعين التوحيد ، وأن محمداً صلى الله عليه وآله نظر بهما جامعاً ."

ومفاد ذلك ، أن موسى (ع) نظر بعين الكثرة مستعيناً بالله سبحانه ، وأن عيسى (ع) نظر بعين التوحيد مستعيناً على الكثرة ، وأن محمداً (ص) نظر بهما جامعاً كما يحب الله سبحانه ، وذلك هو الكمال الأكمل في المخلوقين .

كان موسى يرى أن الله في جانب ، والوجود ومفردات الوجود في جانب آخر ، لذلك ، وهو - على اعتقاده - كفرد من أفراد الوجود ، سأل ربّه سبحانه قال : { .. رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . سورة الأعراف آية 143 } .

أما لماذا سأل موسى ربه ذلك ، فلأنه لم يكن يعلم أن الله سبحانه محيط به وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأنه سبحانه محيط بالكون وبكل شيء في الكون ، وأنه الأول والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .

أما لماذا لم يشرح له الله سبحانه كل ذلك . فنلاحظ حسب القرآن الكريم ، أن بعض الأنبياء يسألون عن أمور ، أو يصرحون لله تعالى عن أمور تدل على فارق عظيم بين ما أتاهم الله سبحانه من العلم ، وبين ما أتى محمداً (ص) من جواهر الحقائق عن ألّهانيته ومثال على ذلك ما حصل لموسى بعد أن { .. نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . سورة القصص آية 30 } وبعد أن جعل معه أخاه هارون رسولاً وأرسلهما إلى فرعون وقال لهما - بعد أن ذكر موسى بعنانيته به وحفظه له في أعجب الظروف - منذ قذفته أمه في التابوت ثم في اليم ، ثم إلقاء اليم له في الساحل . ثم أخذ فرعون عدو الله وعدوه له ، ثم إرجاعه إلى أمه ، ثم قتله الرجل ، ثم لبثه في أهل مدين واكتمال تعلمه عند شعيب النبي (ع) قال لهما سبحانه : { أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى . سورة طه الآيات (43 - 46) } .

فبعد هذا كله ، وبعد وجوب ملاحظته أن الله في كل مكان وأنه معه ومع أخيه ومع كل الناس ، يراهم ويسوسهم ويفعل ما يريد ، سأل ربّه سبحانه قال : { .. رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ .. } سورة الأعراف الآية 143 .

ومثل هذا قوله عندما قتل الذي من عدوّه ، قال : { .. هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. } ومعلوم عند من لهم حظ من الإيمان ومن المعرفة أن الشيطان غير مستقل بعمله ، وإنما هو في سلطان الله تعالى ، يصرفه عمن يشاء ويقضيه لمن يشاء وقد جعل له حدوداً وقوانين ، يستحيل عليه تجاوزها . وإن لم يكن موسى يعلم في تلك الفترة أنه نبيّ ، فهو معلوم عند الله سبحانه ، وهو مؤمن وله شيعة آنذاك من المؤمنين ، فكيف يقبض له الله شيطاناً يفتنه عن دينه ويوقعه في جريمة قتل ، وهو في نظر الله يرعاه ويهيئه لأعباء الرسالة التاريخية في عمر البشرية .

إنما الله ، وهو مسبب الأسباب ، جعل قتله الرجل - وهو من أعداء الله - سبباً لخروج موسى من المدينة ، وخائفاً يترقب ، وليذهب إلى مدين بعينها ، وليصل إلى شعيب ، وليقضي عنده العشر سنوات ، بما فيها من العلم والأخلاق والمقدمات لتلقي النبوة وتكاليف الرسالة .

ومع ذلك ، لم يعلق الله عز وجل ، على اعتقاد موسى بأن قتله الرجل كان من عمل الشيطان ، وأكثر من ذلك فإن الله سبحانه يوجز الموقف ، حسب نظر موسى ، قال سبحانه :

{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . سورة القصص الآيات (15 - 16) } .

موسى أراد أن يغفر له قتله الرجل ، ولعلّ الله جل وعلا أراد أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقرر سبحانه الحقيقة الجميلة : أنه هو سبحانه الغفور الرحيم .

وقريب من هذا كلام الله تبارك وتعالى عن النبي أيوب (ع) قال عزّ شأنه : { .. وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . سورة ص آية 41 } .

ففي هذه الآية على أيوب (ع) مأخذان : الأول ، أنه نادى ربّه ، وهو عليه السلام ، لو كان يعرف مكانة ربه منه كما عرفها محمّد (ص) ، وهي أن الله تعالى أقرب إليه من

حبل الوريد ، لكان ناجاه ، أو دعاه ، بدلاً من أن يناديه نداءً ، لأن النداء ، معلوم أنه للبعيد

لَمَّا أُنْزِلَتْ آيَةٌ : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } .. سورة البقرة الآية 186 { على رسول الله محمد (ص) ، كان أعرابي سألته قبيلها هذا السؤال الذكي : يا رسول الله ، ربنا قريب فنناديه ، أم بعيد فنناديه ؟ فكانت الآية الكريمة .

على أنه مذكور في القرآن أن الله نادى آدم وزوجه ونادى موسى ، فهذا حق الله وفيه مطلبان . الأول فيه إشارة إلى أن آدم وزوجه أصبحا في مقام البعد عن الله تعالى بعد أن قال : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } .. سورة البقرة آية 35 { حيث كانا في مقام القرب المعنوي من الله عزت عظمته ، فلما وقعت المعصية ، وأصبح الفريقان ، رجالاً ونساءً ، في مقام البعد المعنوي : { .. وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ } .. سورة الأعراف الآية 22 .

أما المطلب الثاني ، فهو أن الله جلت عظمته ، من واقع علمه اللانهائي وكبريائه ، يخاطب أنبياءه ورسله على قدر أفهامهم ، ومن خلالهم البشر ، تبعاً لتطور فهم البشرية في مراحل نموها ، ومعها تطور فهم الأنبياء . فالبشر في كل مرحلة ، لن تكون أفهامهم ، في أحسن حالاتهم ، إلا دون فهم أنبيائهم ، كل في مرحلته ، وهذه هي حكمة الله البالغة .

لذلك نرى أن الله سبحانه ، كان ينادي من أنبيائه من يناديه ، وقد نادوه جميعاً ، إلا محمد (ص) فقد ناجاه ، ولذلك هو جعله خاتم النبيين وأعز المرسلين ، وجعل رسالته خاتمة الرسالات ومهيمنة على جميع ما قبلها ، وجعل قرآنه كافياً شافياً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى قيام الساعة .

وصحيح أنه سبحانه ، قرب موسى (ع) نجياً ، وإنما عندما أنزل عليه التوراة ، وحصرها في جانب الطور الأيمن ، أي طور سيناء ، وهو الجبل المعروف في نواحي مصر في صحراء سيناء . قال تعالى :

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . سورة مريم الآيات (51 - 52) { وكان ذلك مرةً ، عندما لقته التوراة وأكتبته إياها خلال أربعين يوماً ، ودفعة واحدة .

أما محمد (ص) فإنه أوحى إليه القرآن دفعة واحدة في ليلة واحدة ، أو في بعض ليلة ، وأين كان ذلك ؟! رفعه ربه سبحانه وتعالى ، إسراءً ، إلى ما فوق السماء السابعة ،

ولقنه القرآن فوق الأفق الأعلى ، حيث دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وذلك قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . سورة النجم الآيات (3 - 10) } .

ويلاحظ الفارق العظيم بين الموقعين : الموقع الذي أنزلت فيه التوراة على رسول الله موسى (ع) ، وهو جبل الطور في صحراء سيناء على كوكبنا هذا الأرضي ، تحت السماء الدنيا ، والموقع الذي أنزل فيه القرآن المجيد على رسول الله محمد (ص) وهو فوق السماء السابعة . ثم مستوى المناجاة هنا ومستوى المناجاة هناك . نقول هذا تلمساً للحقائق بالمنطق البريء ، وتوخياً لطاعة الله جلّ جلاله . غير ناسين - في هذا المجال - قوليه تبارك وتعالى ، الأول : { .. لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ .. } أي بين أحد من أنبياء الله ورسله . والآخر : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. } وهو حكمه تبارك وتعالى ، وهو خير الحاكمين .

هذا ، ولقد أحصي في القرآن الكريم ثلاثمائة وثلاث وثلاثون مرة كلمة : { قُلْ } أي يا رسول الله يا محمد ، خلال تنزيل القرآن عليه ، نجومياً ، عبر ثلاث وعشرين سنة ، فضلاً عن بقية أنواع الخطاب . ليس فيها مرة واحدة ، نادى ربه فيها نداءً ، ولا ربه عزّت عزته ناداه .. من بعيد .

ونسجل على الأنبياء عليهم السلام الذين أورد الله تعالى عنهم في القرآن العظيم أنهم نادوه سبحانه :

- { وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. سورة هود آية 45 } .
- { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . سورة مريم الآيات (2 - 3) } .
- { وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. سورة الأنبياء آية 76 } .
- { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. سورة الأنبياء آية 83 } .
- { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . سورة الأنبياء الآية 87 } .
- { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . سورة الأنبياء الآية 89 } .

- { .. وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ .. } سورة ص الآية 41 {

ونذكر الذين أورد الله أنه هو سبحانه ناداهم ، طبعاً في مقابل أنهم نادوه تبارك وتعالى :

- { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ أَنْتَ الْفَقْمُ الظَّالِمِينَ . سورة الشعراء الآية 10 } .
- { .. وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ .. } سورة الأعراف الآية 22 { .
- { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. } سورة الصافات الآيات (104 - 105) { .

يبدو بقوة أن الله عز وجل ، ومنذ بداية البشر ، فصل أنبياءه ورسله ، كلاً على قدر قومه الذين أرسل إليهم من جهة ، ومن جهة ثانية على قدر الرسالة التي أرسل بها . مع أفضلية على القوم وليس - طبعاً - على الرسالة .

والأفضلية ، تارة تكون بنسب بسيطة ، فأكثر أنبياء بني إسرائيل ، بدءاً بأبيهم إسرائيل الذي هو يعقوب ، ومروراً ببنيه الأسباط الإثني عشر ، ثم عشرات الأنبياء ، منهم من سماه القرآن الكريم وذكر أهم مناقبه ، ومنهم من سماه ولم يذكر عنه إلا أنه كان من الصالحين ، وكثير منهم لم يتعرض لهم لا بالأسماء ولا بالصفات . إلا أنه كان جليلاً إبراز موسى ربطاً بالتوراة ، وإبراز عيسى ربطاً بالإنجيل ، وهو عليه السلام آخر من ابتلاه الله تبارك وتعالى بفضاظة بني إسرائيل وقسوتهم وعصيانهم لله تعالى ولرسله عليهم السلام ، وبتحريف كلام الله ، وبقتلهم النبيين ، وبقولهم على مريم عليها السلام بهتاناً عظيماً ، حتى بعث الله رسوله محمداً (ص) ، النبي العربي ، رحمة للعالمين .

وحيث قلنا إن الأفضلية بين أكثر أنبياء بني إسرائيل وبين عقلاء الناس ، طبعاً المؤمنين ، كانت بسيطة ، فلا بد أن نعطي أمثلة على ذلك . وحيث أن الكلام في هذا كثير ، لذلك نكتفي بلمحات عن إسرائيل ذاته أي يعقوب (ع) وبنيه الأسباط الذين ذكر الله سبحانه أنه جعلهم كذلك من الأنبياء :

إن يعقوب كذب عليه عشرة من أبنائه وغدروه وأخذوا أخاهم ليقتلوه ، موهمين أباهم أنهم ذاهبون ليلعبوا ويستبقوا . وأول بادرة كانت من يعقوب ، وهو يحب ولده يوسف - حباً مميزاً وفوق العادة - أنه قال : إني أخاف أن يأكله الذئب . والحق هنا يقال ، لو أن

مسلماً عادياً قال كذلك ، وهو يعلم أن الله معه ومع ابنه ، ولو كان هذا في بحر وذاك في بر أو في سماء ، للمناه على قوله واعتبرنا ذلك نقصاً في إيمانه .

الثانية ، ولعلها أكبر ، أنه بعد أن فعل إخوته فعلتهم ، وألقوا إخوانهم في الجب ، وعادوا إلى أبيهم ليكون محتالين بدمٍ كذب على قميص مدّعين أكل الذئب له ، وكان هو ، أي يوسف ، قد أنجاه الله بأن أرسل له سيارة من الناس أخذه ، واستقرّ في مصر . هنا بدأ يعقوب (ع) بالبكاء .. ثم ما رقأت له دموع طيلة سنيّ غياب يوسف ، ويقال إنها خمس وعشرون سنة - تقريباً - حتى ابيضّت عيناه من الحزن .

وهنا مناقشة ثانية ، وهي أنه لو فعل كذلك رجل مؤمن اليوم ، وقع له تماماً ما وقع ليعقوب وابنه وجملته بنيه ، ثم فعل فعل يعقوب ، فبكى خمساً وعشرين حتى ابيضّت عيناه من الحزن . بدعوى شدة حبه لولده ، للمناه كذلك لوماً شديداً ، واتهمناه كذلك بنقص في إيمانه ، وفندنا له هذا النقص في عدة أمور ، أهمها :

هذا السؤال : أين حسن التوكل على الله الذي يصحبنا جميعاً كمؤمنين ؟ ثم بعد أن طال غياب يوسف ، كان لا بدّ من أحد احتمالين أولهما وهو الملزم ليعقوب أن يعتقده بدرجة اليقين ، وهو سلامة يوسف ، وأنه في مكان ما على هذه الأرض وفي أحسن حال ، وذلك لما يعرفه يعقوب عن إيمان يوسف ، كصبي مميز ، ثم الرؤيا التي قصّها يوسف على يعقوب ، ومضمونها أنه سيعمّر حتى يسجد لله بين يديه ، أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر .

والاحتمال الثاني : أن يعتقد يعقوب عدم صحة الرؤيا وأنها أضغاث أحلام ، فيكون بذلك خرج هو من النبوة وأخرج معه يوسف على الأقل من صفة التميز عند الله تبارك وتعالى . فيصبح بذلك يعقوب في حكم الرجل العادي المهزوز الإيمان .

ومع هذا الاحتمال الثاني ، نضلّ نلوم هذا الرجل العادي المؤمن ، إذا استمر يبكي طيلة خمس وعشرين سنة حتى تبيض عيناه ، وأول ما نحذّره منه كونه يأتّم بذلك حيث يضر نفسه بدون مبرر قاهر ، ثم نقول له ، إما أن يكون ولدك قد مات فهو في رحمة الله ، أو هو ما زال حياً في رعاية الله ، وأين الصبر بالله ، والثقة بالله ، وأين التصديق بوعود الله للمؤمنين ، .. وبشّر الصابرين .

وقد يداخل الرجل العاديّ الإيمان فكرة ثالثة ، هي أن ابنه قد ضلّ ، فلا هو ميت في رحمة الله ولا هو حي في رعاية الله ، فنقول له ، وقد أعطاك الله في هذا المجال سلاحاً ولا أقوى : الدعاء . فإمّا أن يفعل فيه ، فيستجيب لك الله ويهديه ، وإما أن يكون كابن نوح عليه السلام ، الذي اختار - والموج يتلاطم - جبلاً يعصمه من الماء ، بدلاً من سفينة أبيه

والمؤمنين . فكان من المغرقين . وعزّفنا الله بعد ذلك أنه كان عملاً غير صالح . فلا يؤسف عليه .

نبي اليهود : موسى (ع)
ونبي المسيحية : عيسى (ع)
ونبي الإسلام : محمّد (ع)

كيف كانوا يرون الله عزّ وجل . ؟

أولاً موسى عليه السلام :

هو نبي الله ورسوله إلى فرعون وقومه ، وهو من أكثر الأنبياء بروزاً في تاريخ الرسالات ، وهو نبي اليهودية ، أحد الأديان ، أو الأصح إحدى الشرائع الموجودة على الأرض اليوم ، إلى جانب المسيحية والإسلام .

معلوم أن موسى تربى في مصر ، بين قصر حاكم البلاد والعباد : فرعون ، وبين قومه بني إسرائيل الذي كان يقيم بهم علاقة سرية حميمة ، ومعلوم كذلك أن الله سبحانه ، هياً له - تعليماً آخر دينياً إلهياً في مدين - عند نبي الله شعيب (ع) . ثم نبأه أثناء رجوعه إلى مصر ، في بعض الطريق . وحملته الرسالة . إلى فرعون وقومه وتخليص بني إسرائيل من فرعون وطغيانه إذ هو لم يؤمن ، وزاد سبحانه ، فأيده كذلك بنبوة أخيه هارون .

فبناءً على الآية الكريمة : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. } ، سنجد تفاوتاً مهماً بين موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام تقررره المقارنة ، تبعاً للنصوص ، وللسيرة المباركة لكل منهم .

فالبنسبة لما ذكرنا من أن موسى (ع) نظر بعين الكثرة وأن عيسى (ع) نظر بعين التوحيد وأن محمدًا (ص) نظر بهما جامعاً ، نرى أن موسى (ع) على أساس هذه الحقائق ، كان قومياً إسرائيلياً ، فهو ، كاد - لولا أمر الله تعالى له بمواجهة فرعون ورهطه - يحصر الدعوة والرسالة ، بقومه الإسرائيليين . ومع ذلك ، لم يفلح معهم ، رغم أنهم كانوا يشكلون له قاعدة شعبية معقولة ، قبل تكليفه بالرسالة ، ثم بعد تكليفه بها . فلا هو حملهم على أن يكونوا ، مثلاً ، ثواراً إنقلابيين ، باسم الله وباسم دينه ، على الحكم الكافر الطاغوتي ، ولا فكر أن يجعل منهم - وهو في مصر - أمة مقاتلة . وصحيح أنه كان وقومه أمة مستضعفة في مصر ، إلا أنهم كانوا جماعة متماسكة قومياً ودينياً .

بينما كان محمد (ص) وحده في مكة ، بدون أدنى قاعدة شعبية تنصره أو تدفع عنه طواغيت قريش وعدوانيتهم ، كان محمد (ص) وحده أمة مستضعفة في مكة ، ثم أصبح والناس الذين أسلموا معه ، الأمة التي فتحت العالم ، ومدنته ، وشرفته بعبادة الله العظيم ...

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، إضافة إلى تجنيب موسى قومه الجهاد في سبيل الله ، مراعاة ربما لجبنهم أو طبيعتهم الأنانية ، فإن اعتقاده بالله عز وجل ، إضافة إلى ما قلناه سابقاً ، كان ذا أفق ضيق ، بالنسبة لأفق محمد (ص) أو آفاقه المفتوحة بدون حدود ، ولنفهم ذلك بوضوح ، نورد هذا النص القرآني :

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ

حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَانِطُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ .
فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .
فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ
مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . . سورة الشعراء الآيات (52 - 62) { .

الذي نريده من هذه الآيات المباركات ، الآية الأخيرة ، أي قول موسى (ع) { ..
كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . { .

هذا عجب من موسى (ع) بالنسبة لمحمد (ص) . فلو كان الموقف لمحمد (ص) لما
تفرد بنسبة الله تعالى إليه وحده ، أي لكان قال إن معنا ربنا سيهدينا ، أي معه ومع الناس ،
وسنرى ذلك الفارق أنه كبير جداً وخطير جداً بين القولين ، يعني بين المفهومين ، عندما
نأتي إلى الكلام عن محمد (ص) . ونحن لكي لا نطيل الكلام في مقارنة بين الأنبياء
الثلاثة ، نكتفي بهذا القدر من الأفكار المكثفة والرصد الموجز .

ثانياً : عيسى عليه السلام :

نبي الله ورسوله عيسى (ع) كان من حيث التوجه والتعاطي مع الرسالة بعكس سلفه
موسى (ع) ، فهو من جهة قد حصر نشاطه وما كان يتبلغه عن ربه ، بإثني عشر رجلاً
تقريباً ، كان يتجاوزهم أحياناً في ظروف أشبه بالمحاكمات في جموع من الناس ، أو إلى
معجزات على صعيد أفراد مثل شفاء الأكمه والأبرص وإحياء موتى بإذن الله .

ومن جهة ثانية ، لم يعتن عيسى بقومه كإسرائيليين ، أي لم يتخذ موقفاً قومياً كما
فعل موسى (ع) ، وكذلك لم يوجه الناس توجيهاً ثورياً ، أو بطولياً في الدفاع عن دين الله .
سأل : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، والحواريون هم تلامذته
المعروفون الإثنا عشر . هؤلاء كانوا في حياته عليه السلام أنصاره إلى الله تعالى ، وقد
خرج واحد منهم بخيانتة التاريخية ، فبقي أحد عشر رجلاً إضافة إلى أمه القديسة مريم
عليها السلام وبضعة عشر رجلاً وامراً ، ثبتوا كمؤمنين ، وليس كصحابة .

ومن جهة ثالثة ، ولعلها الأهم ، وبقينا هي الأهم ، أعني مفهومه عن الله تبارك
وتعالى ، فهو شبيه من حيث قصوره وضيقه بمفهوم موسى (ع) وهذان المفهومان مكرسان
في التوراة وفي الإنجيل ، وتبعاً لذلك في صلوات اليهود والمسيحيين . مع ما في عباداتهم
من التعقيد في الطقوس والوسائط والرتب الكهنوتية ، وهذا كله بخلاف عبادة المسلم

البسيطة غير المعقدة ، وكذلك فهمه عن الله الواحد الذي لا شريك له ، وكذلك عدم وجود الوسائط بينه وبين ربه . المسلم ينظر إلى الأنبياء والأوصياء والأولياء ، معلمين وقادة ، ولا ضرورة لتوسطهم بينه وبين الله جلّت عظمته ، وهذا معلوم ومشهور في صلاته التي يصلّيها كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها . وهو يخاطب الله عز وجل كل يوم في كل صلاة عدة مرات ، خطاباً مباشراً ، مع فهمه ويقينه أن الله معه ، أو قريب منه يراه ويسمعه . بينما عيسى عليه السلام علم الناس أن يقولوا في صلاتهم : ربنا الذي في السماوات . كان يرى الله بعيداً عن الناس .

واليك هذا المثل عن علاقة المسلم المباشرة بربه تبارك وتعالى ، في وصية الإمام علي(ع) لولده الحسن (ع) :

"واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، قد أذن لك بالدعاء ، وتكفل لك بالإجابة ، وأمرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه .. ولم يمنعك إذا أسأت من التوبة .. ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يعيرك ⁽¹⁾ بالإنابة .. ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى .. ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ، ولم يناقشك بالجريمة ⁽²⁾ ، ولم يبينسك من الرحمة .. بل جعل نزوعك من الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسناتك عشرا .. وفتح لك باب المتاب ، إذا ناديته سمع ندواك ⁽³⁾ ، وإذا ناجيته علم نجاك ⁽⁴⁾ . "

ثالثاً : مفهوم محمد (ص) عن الله تبارك وتعالى :

ففي هذه الآيات البينات التي كان يتلقاها ويبلغها ويعمل بأنوارها الكاشفة :

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . سورة الحديد الآيات (1 - 4) } .

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . سورة الشعراء الآيات (217 - 220) { .

{.. أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. سورة الأنفال الآية 24}.

{ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا . سورة الطلاق الآية 12 } .

{ .. أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . سورة فصلت الآية 54 } .

- (1) لم يعيرك بالإتابة : من عير الدينار بالدينار إذا وزن به .
- (2) الجريمة . الكسب ، ومفروضه هنا الكسب الحلال . والجريمة : الكاسب على أهله .
- (3) سمع ندواك : دعاءك .
- (4) نجواك : دعاؤك الخافت .

وقبل أن نتابع سرد بقية الآيات ، نتوقف وجوباً لفهم الآيات التي ذكرناها ولعلّ أدعائها للتأمل والتفكير والسفر في مضامينها ، قوله تبارك وتعالى : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . فأما قوله تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ فمعلوم عند العقلاء أنه سبحانه كان ولم يكن قبله شيء وهو الحي القيوم الباقي الذي لا يموت وليس بعده ولا فوقه شيء . وأما قوله تعالى : { وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ } أي وهو الظاهر والباطن ، فالظاهر هو المرئي والمحسوس ، والباطن هو المدرك من الوجود وأشياءه ومفرداته وغير المدرك . ويتبادر على هذا الأساس أن الله تعالى هو الوجود وهو الكون جملة وتفصيلاً ، وهذه حقيقة محدودة ، ما دام للكون حدود ، وبما أن الله سبحانه بكل شيء محيط (كما سيأتي من الآيات) فهو محيط بالكون بظاهر الكون وباطنه . وهو سبحانه بنوره غمر الأشياء واستغرق جواهرها ، متميزاً عنها بالوهيته ولا نهائيتها عبر الأكوان وفوق الأكوان ، فهو غيرها ، وهي غيره ، مشهودة منه ، لا يفوته من كلياتها ولا من جزئياتها متقال ذرة ، ولا متقال جزيء من الذرة ، ولا جزيء جزيء ، من أدق وأعجب ما خلق وبرأ وصوّر ، مما دون عرشه وملكوته ، ولا شيء فوق عرشه وفوق ملكه وملكوته إلا هو . وهذا معنى قولنا : الله أكبر ، أي أكبر من الوجود والعوالم والأكوان ، وأكبر مما يصل إليه الظن أو الخيال أو التصور ، ويقف الظن ويقف الخيال ، ويقف التصور ، وحيث يقف كل واحد من هذه القوى ، التي هي أسرع من الضوء ، في مرحلته عاجزاً أو متعباً ، مهما أبعد وتعالى ، يجب أن يقرّ كما يقرّ العلم اليوم ، شاعراً بضعفه ، مستصغراً أدواته وتقنياته ، مستقلاً كثرته ، مستهيناً بصلفه وكبره ، مبعثراً أرقامه .. يقول عن وعي أو عن غير وعي : **الله أكبر !** ... وهنا إما أن يستمر في دوخته ، وإما أن يسعد بعقله ، فيطيل السجود لله تعالى ، من خشية ومن رهبة ومن حب ، فيكون من المهتدين .

وأما قوله تعالى : { .. وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . عليم بكل شيء ، كذلك باطن الشيء وظاهره ، مما دقَّ وصغر وتناهى في الصغر ، مما أحاط الإنسان بوجوده أو لم يحط بوجوده بعد ، وكذلك مما كبر وعظم ، عليم بمبادئ تركيب الأشياء وفاعلياتها وتفاعلها فيما بينها ، بسلبياتها وإيجابياتها ، وتآلفها وتضادها ، بفيزيائها وكيميائها والكترونياتها ، مما علّمه للإنسان عن بعض أسرارها ومما لمّا يعلمه بعد ، ومما لن يعلمه أبداً من مكنون أسرارها ، عن أشياء الكون المدرك ، وهو قليل ، والكون غير المدرك بعلوم الإنسان وحواسه وأدواته وهو أعظم . { .. وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } : لناخذ مثلاً عن بعض وجوه علمه سبحانه : إنسان ما فيه علة يحاول أن يحصيها ويحصرها ليعالجها . في علوم الإنسان المتقدمة ، لا بدّ له للوصول إلى غايته من ورشة عمل ؛ مختبر لتحليل دمه وإفرازاته ، أجهزة تصوير ، أشعة على أنواعها ، رنين مغناطيسي ... إلى آخر ما توصل إليه ، وسيتوصل إليه - ربما العلم . مع ما يرافق ذلك من أخصائيين وأطباء وأنواع اختصاصات متعددة ، هذا ، ما عدا السهو منهم والخطأ الكثير ، فضلاً عن مرور الزمن ، وطول المعاناة ، وكثرة التقارير ، والأرقام وأسماء المواد . وهل يكون على صراط الله أثناء ذلك ، العليل ؟ هيهات ! ... أما الله تعالى : { .. وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . في هكذا حال ، وفي غيره من الأحوال . وعلمه دفعي ، كاشف لكل ما يكشفه علم الإنسان وأجهزته ، في أيام وشهور وربما سنين ، وكذلك ما لا يستطيع الإنسان كشفه ، كل ذلك هو عند الله في كتاب مبين ، وظنّ في الكتاب هذا ما شئت ، من حيث عظمة الإبداع والشمول والإحاطة بالكليات والجزئيات وتفاعلاتها السابقة والآنية والمستقبلية ، كل ذلك يتم عنده سبحانه في جزيء من اللحظة ، إضافة إلى شفاء عاجل مضمون ، بكلمة كن فيكون . هذا إذا لجأ إليه صاحب العلة ، ولم يلجأ إلى غيره ، لأنه لا يقبل التشريك بينه وبين غيره ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

الجزء الثاني

ما لا يقبله القرآن

* { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . سورة محمد الآية 24 } .

* { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّاغِنُونَ . سورة البقرة
الآية 159 } .

الفصل الأول

هل الأنبياء كائنون في الدنيا

أحياء بعد موتهم؟!

هل الأنبياء كائنون في الدنيا أحياء بعد موتهم؟! ---

زعم أحد العلماء أن محمداً (ص) "كان حاضراً في جميع أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود". فهل يؤيد القرآن الكريم هذا الزعم؟ .

قال تعالى: { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. سورة الزمر الآية 42 } .

في هذه الآية أن الله تعالى يتوفى الأنفس عند الموت ويتوفاها عند نومها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل التي توفاه من النائم إلى أجل مسمى . هذا ظاهر القرآن - تفسيراً - وهو واضح ومعلوم ، لحجية الظاهر .

إلا أن في الآية إشارة ، هي باب إلى تأويلها بحيث يصبح المعنى أن الله تعالى يتوفى الأنفس التي يقضي عليها موتاً نهائياً فيمسكها . ويتوفى أنفساً في منامها موقعا في أصحابها موتاً حقيقياً ، إلا أنه سبحانه يعيدها إليهم ، أي الأنفس ، ليتابعوا في الدنيا ، في مجتمعهم قسطاً من العمر ، يرفعهم بعد ذلك إليه سبحانه دون إماتة ثانية ، وفي قوله عن النبي إدريس عليه السلام { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا . سورة مريم الآية 57 } دلالة على ذلك ، وتتضح هذه الدلالة كذلك عن المسيح عليه السلام ، إذ توفاه ثم رفعه إليه . قال تعالى :

{ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ ارْفَعِيكَ وَرَأْفِعْكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . سورة آل عمران الآية 55 } .

وقوله سبحانه :

{ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . سورة النساء الآيات (157 - 158) } .

ثم الدليل على أن النبي ينقطع عن الدنيا إذا توفاه الله أو إذا رفعه إليه ، هو في الآيات البينات هذه :

{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . سورة المائدة الآيات (116 - 117) } .

فالشاهد هنا قول المسيح عليه السلام : { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } .

وهذا الأمر ينطبق على جميع الأنبياء ، وإلا لماذا تخصيص المسيح عليه السلام بقطعه وحده عن الحياة الدنيا .

وقد قال تعالى : { .. وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ . سورة إبراهيم الآية 45 } وقال سبحانه: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جُنَّتْهُمْ بَايَةٌ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . سورة الروم آية 58 } .

وهل يكون النبي حاضراً قبل ولادته في تاريخ البشرية؟! =====

من العجيب في القرآن الكريم كثرة الآيات التي تنفي هذا الزعم وخاصة عن خاتم النبيين وأعز المرسلين محمد(ص) ففي سورة آل عمران آية 44 قوله تعالى مخاطباً محمداً (ص) :

{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْهُمْ آيُهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } .

وفي سورة الأعراف قوله تعالى كذلك يخاطبه (ص) آية 188 : { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْنَزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . } .
وفي هذه الآية نفي علم الغيب المطلق عن محمد (ص) وضمنه غيب تاريخ البشرية قبل ولادته الميمونة (ص) . فكيف يكون حاضراً - حسب الزعم المتقدم - : " في جميع أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود . " ؟ ! .

أما الغيب الذي كان يخبر به النبي (ص) فهو بتعليم خاص ووحى من الله تبارك وتعالى : { إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } .

ثم قوله تعالى ينفي علم محمد (ص) بما يجري عليه وعلى الناس من تدبير الله تبارك وتعالى ومن حكمه وحكميته :

{ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . سورة الأحقاف الآية 9 } .

ثم قوله تعالى : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . سورة الزمر الآيات (30 - 31) } .

الموت العادي معلوم أنه إنقطاع عن الحياة الدنيا ، وفي هذه الآية يتساوى النبي وجميع الناس من حيث الإنقطاع عن الدنيا بالموت ، إلا أن الفارق يكون بالكيفية والدرجة من حيث قبض نفس النبي أو الولي أو الناس على إختلاف عقائدهم وأعمالهم : { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . سورة الأحقاف الآية 19 } .

يبقى التأكيد من قبل الله تعالى على عدم حضور النبي محمد (ص) شخصياً " في أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود " وذلك في آيات ، كنت عندما أقرأها أعجب من مخاطبة رسوله (ص) بها ، وأتساءل كثيراً عن الغرض من ذلك ، وأبحث في كتب التفسير والتأويل فلا أجد ما يشفي غليلي ، حتى قرأت هذا الزعم المنوه عنه ، وقرأت وسمعت ، أن محمدًا (ص) وبعض أولياء الله الصالحين يطلعون على أعمال العباد في يوم كذا أو يوم كذا من أيام الأسبوع ، وهم في الحياة الدنيا ، وبعبارة أخرى أنهم تعرض عليهم أعمال تابعيهم ومحبيهم ، فيرفعون عن ذلك تقارير إلى الله عز وجل مما يزيد في أجور هؤلاء المحبين والتابعين ، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يطول شرحه عندهم وتفاصيله ونتائجه .

وهذه الآيات الكريمت هي :

أولاً : في سورة يوسف محدثاً رسوله محمداً (ص) عن إخوة يوسف إذ يمكرون بأخيهم ، وقوله تعالى إنك يا محمد لم تكن مع هؤلاء أبداً وهم في تلك المرحلة من مراحل الوجود :

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ.
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . سورة يوسف الآيات (102 - 103) } .

ثانياً : في سورة القصص ، كذلك لنفس الغرض وهو علم الله العظيم ، بأنه سيأتي زمان ، تشوه فيه الحقائق وينصرف فيه الناس عن قوة حضور الله وإحاطته بالأمور وحاكميته دون شريك في السماوات أو في الأرض وهيمنته على الوجود جملة وتفصيلاً ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، إلى قوة حضور غيره من المخلوقين أنبياء أو أولياء أو صالحين ، " في أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود " . وهذه الآيات هي التالية ، كذلك مخاطباً بها محمداً (ص) عبده ورسوله :

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا
أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . سورة القصص الآيات (44 - 46) } .

ودفع هذه الشبهة لا يغض من شأن رسول الله محمد (ص) ولا ينزله من عليائه التي رفعه الله إليها عبر خلقه العظيم وجهاده الكبير ، ولا من مكانه المحمود الذي سيبعثه الله فيه حيث يحمد عليه الأولون والآخرين . وفي محمد (ص) تُولف المجلدات وفي مدحه تنشأ الدواوين . إلا أن الحق أحق أن يقال ، ولا سيما إذا كان هذا الحق مشرقاً في القرآن الكريم .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فإننا بعدما آتانا الله عز شأنه من العلم ، وبعدهما نور قلوبنا بأنواره وأنوار كتابه المجيد ، فإننا نخشى ، إن نحن كتمنا ما علّمنا سبحانه ولم نظهره للناس ، أن نقع تحت وطأة نذيره في الآية الكريمة قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . سورة البقرة الآية 159 } .

فحرصاً على رضاه سبحانه ، وحرصاً على نجاتنا من سخطه ورجاء أن يثوب إلى رشدهم إخوان لنا علماء ، وينقذوا الأمة من هذا الخطر الكبير الذي يشدها دائماً وأبداً إلى الأسفل ، ويعيقها عن نهضتها من بؤرة الهزيمة في جميع جبهات الحياة ، عنيت بهذا الخطر المدمر : الشرك الخفي . مستقلاً أن أكتب في جنب الله وحرصاً على توحيده ولو بدمي . فليبك اللهم لبيك ، ولو كنت أعلم سلفاً أنني سأتلقي ردود فعل غاشمة ، من العامة وبعض الخاصة ، وكالعادة ، ولا سيما من أدعياء الحفاظ على العقيدة وأتباعهم الإمّعات .

وفدئ لرضاك ما تبقى لي من الفكر والعمر والطاقات ، وما بي من نعمة فمّنك يا أرحم الراحمين ، عاملاً بقولك مشتاقاً إليك في الواصلين :

{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .
سورة فصلت الآية 33 } .

الفصل الثاني

هل المحبة والرحمة تعليم

إلهي لجميع ما خلق الله؟!!

هل المحبة والرحمة تعليم إلهي لجميع ما خلق الله ؟ ! :

أحد كبار العلماء في بعض رسائله العرفانية يقول :

" فاجعل نظرتك إلى جميع الموجودات وخصوصاً البشر ، نظرة رحمة ومحبة ... " وفي سياق آخر من رسالته يقول : " ولو زال الحجاب لاتضح لنا أن كل ما هو منه جل وعلا محبوب ، وكل ما هو مبغوض فليس منه ، وهو بالتالي ليس موجوداً . "

وسؤالنا : هل تفرّ التعاليم الإلهية هذين المبدئين ؟

طبعاً ، إنّ مرجعنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو الكلام الفصل ، هو كتاب الله ، القرآن الكريم . فماذا في القرآن الكريم ، حول هذين المبدئين ؟ .

أولاً : بالنسبة للمقولة الأولى : فاجعل نظرتك إلى جميع الموجودات وخصوصاً البشر نظرة رحمة ومحبة ، يقول الله تبارك وتعالى : { ... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... } سورة هود الآيات (118 - 119) . أي خلق الجميع ليرحمهم ، ولكن الذين لا يزالون مختلفين لا تنالهم رحمته سبحانه ، تنال فقط الذين استثناهم في الآية الكريمة كما هو واضح .

ثم قوله سبحانه في أول سورة الممتحنة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } .

وقوله تبارك وتعالى هذه الآيات التي تطلع على الأفئدة وتهز النفس المؤمنة هزاً عميقاً :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْأَلُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . } سورة آل عمران الآيات (118 - 120) .

رغم أن هذه الآيات الرائعات غنية عن البيان إلا أن إشارتين فيهما أقوى من أن يمر عليهما دون توقف ، أولا هما قوله تعالى : { هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ .. } وواضح أنه من العجز والغبن والغباء أن نكن المحبة لمن يبغضنا ، أما قول المسيح الذي تأثر به ودار حوله بعض العرفانيين ، حيث قال (ع) " أحبوا أعداءكم " فقد نسخه هو ونقضه في أكثر من موقف . من ذلك غضبه وإشهار سوطه يضرب به وجوه الباعة وظهورهم بدعوى أنهم دنسوا الهيكل بما يبيعون (*) . ومن ذلك موقفه من بطرس ، أحد تلاميذه ، حيث امتشق سيفه يقاتل به وبضراوة قوماً ، كانوا بدسياسة من اليهود ، يعذبون المسيحيين ويضطهدونهم . فقال له المسيح والسيف يقطر دماً من أعدائه : " يا بطرس أنت الصخرة التي ستقوم عليها الكنيسة " يقول ذلك مادحاً لبطرس مسروراً بفعلته . فأين من ذلك محبة الأعداء الحاقدين المبغضين وأين من ذلك رحمتهم ؟!

أما الإشارة الثانية في الآيات الرائعات ، فقوله تبارك وتعالى : { قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ .. } وهو خطاب للنبي (ص) وخطاب لكل قرآني مؤمن ومسلم . وكذلك هو واضح أن صيغة هذا الأمر الذي يأمرنا به الله تعالى في مواجهة مبغضينا والحاقدين علينا والتمنين لنا أسوأ أنواع الهلاك ، أن هذه الصيغة { قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ .. } لا يمكن أن نحلها الرحمة والمحبة . وأهم ما نستفيدة من روح الآيات أن الله عزت وعظمت ، يريد لنا العزة والشرف والعدالة ، ولا يرضى لنا الذلة والمهانة ، خاضعين لذابحينا ومريدي إبادتنا ، يقتلون الأطفال ويهتكون الأعراض ، ونقابلهم بالمودة والرحمة ، ونرش عليهم الأرز والرياحين والزنابق .

وأخيراً ، نعم يمكن أن نقول أن رحمته سبحانه شملت كل شيء ، ولكن لم تشمل محبته كل شيء .

أما بالنسبة لقول القائل : " ولو زال الحجاب لاتضح لنا أن كل ما هو منه جلّ وعلا محبوب ، وكل ما هو مبغوض فليس منه وهو بالتالي ليس موجوداً " .

وهذا الكلام من عجيب التحكم ، وهم يقولون الله عكس ما يقول سبحانه ، أو أنهم

(*) يبيعون الأبقار والأنعام وأنواع الماشية حيث كانت تدنس بقذاراتها .

يرتدون على قرآنه - والقرآن كلامه - بخلاف نصوصه الواضحة لكل من يعي ويسمع ويبصر ، ولا سيما النصوص غير القابلة للتأويل ، ومنها قوله تبارك وتعالى :

{ ... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . سورة البقرة الآية 205 } . وقوله تعالى : { ... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ . سورة آل عمران الآية 32 } . وقوله تعالى : { ... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . سورة آل عمران 57 } . وغيرها من أقواله تعالى أنه : { .. لا يحب .. } لم نتبعه إلى النهاية مكتفين بما أوردناه .

فهو سبحانه يحب ولا يحب . وقد ذكرنا أمثلة مما لا يحب ، وهذه أمثلة مما يحب تبارك وتعالى ، كذلك نكتفي ببعضها ، ودائماً وبالضرورة من القرآن الكريم :

قال تعالى : { ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . سورة البقرة الآية 195 } . وقال سبحانه : { ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . سورة البقرة الآية 222 } .

وفي زعم الزاعم (أن كل ما هو منه جلّ وعلا محبوب وكل ما هو مبغوض فليس منه وهو بالتالي ليس موجوداً) هذه العبارة تذكرنا بفلسفة الوجودية وشطحات أصحابها والتي حلّ لهم مشكلتها " ديكارت " بقولته المشهورة : " أنا أفكر فأنا موجود " .

فالله عز وجل ذكر أشياء وموجودات قال إنه تعالى لا يحبها مثل الفساد والطاغين والكافرين فكيف من زعم أنها غير موجودة وهو في مقامه من أولى مهماته أن يرجع إلى القرآن الكريم كعالم مسؤول عن العقيدة وعن تبليغها ، ولا سيما أن كلام العلماء الكبار وكتاباتهم يقتدي بها الملايين في مشارق الأرض ومغاربها .

ومعاصي الجن والإنس موجودة ، وصحيح أنها ليست من الله ، بل من أصحابها ولكنها موجودة ومبغوضة ، بعكس ما أورده (قدس سره) . ومن أكبر الموجودات في الآخرة جحيم النار التي توعدّ بها الله المعاندين والعصاة والكافرين والمشركين والمنافقين والمكذبين إلخ ... موجودة وهي ليست محبوبة ، وقطعاً هي مبغوضة عند كل من يعقل ويتأمل . وكذلك العذاب في الدنيا والآخرة هو مبغوض وهو موجود . قوله تعالى : { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا } . (وبعدها) { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات (25 - 30) } .

وأكثر من ذلك ، فإن الله تعالى لا يرضى لنا أن نحب نحن ما لا يحبه هو سبحانه . كما ولا يرضى لنا أن نبغض ما يحبه هو عزت عظمته .

قد يقول قائل : صحيح إن الله تعالى لا يحب ولكنه لا يبغض . بلى ، ليس الأمر هكذا ، قال تبارك وتعالى عن قوم يبغضهم { تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . سورة المائدة الآية 80 } .

بقي أن نقول أن تطبيق القولين المفتريين على القرآن الكريم ، يستحيل من قبل الدعاة إلى الله المجاهدين في سبيله الذابين عن دينه ، الساخطين لسخطه ، الراضين لرضاه ، المحبين ما يحب ، المبغضين ما يبغض ، سواء كان جهادهم بالسيف أو القذيفة أو الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، شعراً ونثراً ورسماً أو تمثيلاً أو بأي فن من الفنون التي تنتشر بحب الله وتتقرب من مجده وفردانيته ووحدانيته في ألهانيته .

ثم إننا كمسلمين ممنوعة علينا الرهبانية فـ " لا رهبانية في الإسلام " وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تناقض يحسمه القرآن الكريم :

=====

يقول أحد العلماء الكبار في بعض كتبه :

" أعلم أن ليس لأي موجود من الموجودات ، بدءاً من غيب عوالم الجبروت وإلى ما فوقها أو تحتها ، شيء من القدرة أو العلم أو الفضيلة . وكل ما فيها من ذلك إنما هو منه جلّ وعلا . فهو الممسك بزمام الأمور من الأزل إلى الأبد ، وهو الأحد الصمد . فلا تخش من هذه المخلوقات الجوفاء الخاوية الخالية ، ولا تلق آمالك عليها أبداً ، لأن التعويل على غيره تعالى شرك ، والخوف من غيره جلّت قدرته كفر " .

ويقول في مكان آخر ، من نفس الكتاب ، ما يتناقض تماماً مع هذا الكلام :

" وإنما الأمل بفضل الله وإمداد أوليائه عليهم السلام "

فتارة هو يحصر كل خير بالله عز وجل ، وهذا فهم قرآني صحيح : { بيده الخير وهو على كل شيء قدير } وتارة يعوّل على إمداد أوليائه عليهم السلام . وهو كان قال في

الفقرة الأولى " أن التعويل على غير الله تعالى شرك والخوف من غيره جلت قدرته كفر "

وهذا التناقض ، يبلبل القراء والأتباع الذين بالملايين . فيوقعهم في الشرك وفي الكفر ، من حيث لا يقصد ولا يقصدون والحقائق القرآنية تؤيد ما قاله في الفقرة الأولى ، وفي هذه الحقائق تعريف الله تبارك وتعالى نفسه ، وتعريفه نفوس المخلوقين ، ثم تعريفه سبحانه العلاقة بينه وبين خلقه . وما جاء في القرآن الكريم عن ذات الله وعن حاكميته للكون جملة وتفصيلا ، لم ينزل في كتاب قبل القرآن الكريم ولم يتشرف بمعرفته أحد قبل رسول الله محمد (ص) ، حتى من الأنبياء والمرسلين .

ولقد ذكرنا في كتابنا " مفتاح المعرفة الجزء الأول " بعض الفروق السافرة والمميزة جداً ، بين محمد (ص) وقرآنه المنزل عليه ، وبين موسى وتوراته وعيسى وإنجيله عليهما السلام ، وبين نظر كل واحد من الثلاثة إلى الله وإلى الوجود ، ثم علاقة كل واحد منهم بربه سبحانه ، بناءً على مدى معرفته به ، أو بناءً على مدى ما اختصه الله به من المعرفة .

من مفاتيح معرفة الله تعالى في القرآن الكريم :

وقوله تعالى : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية 3 } .

وقوله تعالى : { ... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ... سورة الحديد الآية 4 } .

وقوله تعالى : { ... مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ... سورة المجادلة الآية 7 } .

وقوله تعالى : { ... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . سورة الأنفال الآية 17 } .

وقوله تعالى : { ... أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ . سورة فصلت الآية 54 } .

وقوله تعالى : { ... وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة الحج الآية 6 } . هذه الآية كررها الله سبحانه وتعالى في أكثر من سورة وبحدود 50 مرة ..

وقوله تعالى : { ... هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ سورة الرعد الآية 33 } .

وقوله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . سورة ق الآية 16 } .

وقوله تعالى : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ... سورة الأنفال الآية 17 } .

وقوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . سورة الزحرف الآية 84 } .

وقوله تعالى : { ... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ... سورة البقرة الآية 255 } .

هذه المفاتيح لمعرفة الملك الحق ، لا يوجد مثلها في الكتب والتعاليم الإلهية التي أنزلت قبل رسول الله محمد (ص) إلا الدعوة إلى التوحيد ، ونفي الشرك عن الله تبارك وتعالى ، حيث كانت البشرية ، غير مؤهلة بعد ، عقلياً وعلمياً ، لإدراك هذه الحقائق الكبرى .

هل المخلوقات هي الله ؟!

لذلك ، وبعد نزول القرآن الكريم ، على رسول الله محمد (ص) وبعدما أنزل عليه (ص) من الأحاديث القدسية ، التي تسبر أغوار الكتب السماوية ، ولا سيما أغوار القرآن الكريم ، استأثرت هذه المفاتيح بعقول الفلاسفة ، وأهل العرفان وجماعات الصوفية وأكابر العلماء ، حتى جماعة الكهنوت عند رهبان النصارى وأحبار اليهود . وكانت المشكلة المحنة هي قضية وحدة الوجود أم عدم وحدته .

أما الذين نَزَّهوا الله بما نَزَّه هو عنه ذاته سبحانه فقد رفضوا حكاية وحدة الوجود ، أي أن يكون الله متحداً بالكون جملةً وتفصيلاً ، وهو الذي قال وفصل أنه كان قبل الكون

وأنه هو سبحانه القديم الموجود الذي خلق الوجود . قال تعالى : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . سورة الإخلاص } .

وقال تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . سورة الأنعام الآية 102 } .

وقال تعالى : { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . سورة الرعد الآية 16 } .

وقال تعالى : { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . سورة النحل الآية 20 } .

وقال تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا . سورة الفرقان الآية 3 } .

أما الذين قالوا بوحدة الوجود ، فقد أشكلت عليهم الآيات التي ذكرناها في صدر هذا البحث ، ولا سيما آية { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .. سورة الحديد الآية 3 } إضافة إلى بعض الأحاديث القدسية التي أولوها بالوجدان ولم يؤولوها بالقرآن ، علماً أن القرآن الكريم هو الميزان الذي يجب أن يوزن به كل حديثٍ قدسيٍّ أو نبويٍّ أو إماميٍّ أو أي رأيٍ مدعىٍّ أو آيةٍ حكمة .

وهكذا اشتبه عليه الأمر (قدس سره) . فهو يقول في بعض كتابه الذي نحن بصدده :

" فهو أمرٌ فطر عليه جميع الناس . بل جميع الموجودات . فما يبحث عنه ويجري وراءه الجميع سواء في العلوم والفضائل والقواضل . أو في المعارف وأمثالها ، أو في الشهوات والأهواء النفسانية . أو في التوجه إلى كل شيء وأي شخص من قبيل أصنام المعابد والمحوبات الدنيوية الأخروية الظاهرية والخيالية المعنوية والشكلية . كحب النساء والبنين والقبيلة والقادة الدنيويين كالسلاطين والأمراء وقادة الجيوش ، أو القادة الأخرويين كالعلماء المفكرين والعرفاء والأنبياء (ع) كل ذلك هو ذات التوجه إلى الواحد الكامل المطلق . فليس من حركة تقع إلا له تعالى ، وفي سبيل الوصول إليه جلّ وعلا ، وليس من قدم تخطو إلا نحو ذلك الكمال المطلق " .

وهو كما سيتضح ، متأثر إلى حد كبير بأقوال بعض الفلاسفة ومشاهير الغلاة الذين قالوا بالحلولية ، ومنهم الحلاج الذي قتل متهماً بالزندقة وصح عنه أنه قال في أواخر أيامه :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أنني قنعت لعشت حراً

ثم إمام التصوف محي الدين بن عربي الذي نسبت إليه نظرية هي من أغرب النظريات الصوفية والفلسفية في وحدة الوجود ، حيث زعموا أنه كتب : " فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير ، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه . فكن في نفسك هبولى لصور المعتقدات كلها ، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد فإنه يقول : { ... فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ... } وما ذكر أيناً من أين . وذكر أن ثم وجه الله ووجه الشيء حقيقته ... فقد بان لك عن الله تعالى انه في أينية كل وجهة ، وما ثم إلا الاعتقادات . فالكل مصيب وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرضى عنه (*) " .

وقد زعموا كذلك أن لابن عربي هذا البيت من الشعر :

" عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقده " .

(*) محي الدين بن عربي : فصوص الحكم (مع الشرح ط : القاهرة 1304 - 1323 هـ) ج 2 ص 60 وما بعدها .

ويلاحظ بوضوح أن كلامه (قدس سره) يطابق بمضامينه وأبعاده ، كلام ابن عربي المزعوم . وأقول المزعوم ، لأنني أشك ، حتى وأنكر ، أن إمام المتصوفين محي الدين بن عربي ، يعتقد هذا الاعتقاد أو يصدر عنه مثل هذا الكلام . وقد أنكر هذا الزعم غيري من المهتمين بالفكر الإسلامي ، ولا سيما ما يدور حول القرآن الكريم ومفهوم التوحيد الذي هو أعلى المفاهيم وأغلاها على الإطلاق .

أما الكلام الذي قرأناه له (قدس سره) ثم الذي قرأناه لابن عربي فهو يخالف الفكر الإسلامي عامة ، كما يخالف القرآن الكريم ، كما يتنافى تنافياً شديداً مع مفهوم التوحيد .

أما مخالفته للفكر الإسلامي والقرآن الكريم ، فلكون الفكر الإسلامي في أصلاته بسيط ، تقوم جميع مبادئه على الثواب والعقاب لفريقين من البشر وغيرهم ، في الدنيا والآخرة : فريق يُثاب وفريق يُعاقب . وضمن هذه المبادئ البسيطة ، قيام الساعة حيث تحشر الخلائق : ثم تقسم في نهاية المطاف : فريق في الجنة وفريق في السعير .

أما الكلام الذي هو بين أيدينا للعلامة الجليل والمنسوب لابن عربي ، فهو يخلط خطأ منكرًا بين أهل الثواب وأهل العقاب ، وكأنما كذلك بين الجنة والنار ، وواضح أن هذا لا يستقيم لا عقلاً ولا شرعاً ولا عدلاً ولا رحمة ، قال الله تبارك وتعالى : **{ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ . وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ . ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ . فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ . }** سورة البروج الآيات (12 - 16) .

وقال عزَّت عزته : **{ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . }** سورة العنكبوت الآية 40 .

فإذن حسب الآيات التي أوردنا من سورة البروج . بمن بطش ربك لشديد ، ولمن هو سبحانه غفور ودود ؟ إذا كان جميع الخلق ومنهم الناس على حق في عقائدهم وفي تعبدهم بين الصنم وبين الشيطان وغير ذلك من المعبودات المنكرة . ثم بين كل ذلك الكفر والشرك والإلحاد ... وبين عزة الله والتعبد له وحده ؟ وهما يُقران (أي العالم الجليل وكلام ابن عربي المزعوم) أنه لا إله إلا الله ، وأن القرآن حق ، فإذا كان في الآيات التي ذكرناها تأويل ، فما هو تأويلها ، سواء آيات سورة البروج ، أو آيات سورة العنكبوت التي فيها يقول سبحانه : **{ ... فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ... }** وهذه الآيات هي أحداث وقعت في تاريخ البشرية فهي غير قابلة للتأويل ، لأنها حقائق تاريخية مادية ، ومن أراد أن يعاند أو يكابر فيتمحل لها تأويلاً على طريقة الزنادقة وليس على طريقة الراشخين في العلم ، فنقدم له دليلاً مادياً على سفينة نوح ، التي اكتشفت في الخمسينات أو الستينات على قمة أحد أعلى جبال أرارات نواحي تركيا ، ونقلت بعض أهم أثارها إلى المتحف الرئيسي في موسكو . وهذا الخبر يعرفه الكثير ، من العلماء النجفيين والطلبة الذين كانوا في العراق في الفترة التي ذكرت .

وكذلك خبر أهل الكهف ، وهروبهم من قومهم الوثنيين لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، وقومهم لا يؤمنون . ثم خبر كهفهم الذي اكتشف بكامل أوصافه القرآنية ، في بعض نواحي

الإردن . فهل قوم أهل الكهف المعادين لله المهددين بالقتل من يؤمن به سبحانه هم كذلك على حق ؟ وهم كانوا يعبدون الله في الحقيقة ؟ حسب المنطق المزعوم ؟ .

ثم لو شئنا أن نستشهد بآيات أخر لتقرير الحقائق القرآنية التي تتعارض تعارضاً شديداً مع منطق العلامتين (قدس سرهما) - إذا صح زعم ابن عربي - فسنتاج لذلك إلى مئات الصفحات . وإنما نكتفي بما أوردنا من الآيات ، وحسبنا ما فيها من قوة الحجة وساطع البرهان ، وإلا كما قال أحد العقلاء :

وليس يقرُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل..

نكتفي بهذا لننتقل ، بالقارىء ، الذي خشينا عليه من الوقوع في المتاهات وفي ما يسخط الله سبحانه ، فيخسر الدنيا والآخرة . ننتقل معه ، إلى معارضة هذا الإعتقاد ، أو تنافيه - كما قلنا - تنافياً شديداً مع مفهوم التوحيد ، الذي هو أعلى وأعلى المفاهيم عند العقلاء في الوجود .

فالعلامة الجليل (قدس سره) ، إضافة إلى ما تقدم عن الإشارات المنكرة إلى وحدة الوجود ، والخلط العجيب بين منتهى الجمال في ما خلق الله وبين منتهى القبح فيما يصدر عن المخلوقين ، إذا كفروا أو أشركوا أو نافقوا أو ضلوا ضلالاً مبيناً ... هو يضيف في صفحة لاحقة من الكتاب إياه فيقول :

" والأمر سيّان إذا التزمنا إطار العقل ، أو الأطر الأخرى بأسرها . فجميعها تفصح عن ان الكمال المطلق هو جميع الكمالات ، وإلاً فهو ليس بمطلق . ولا إمكان لظهور أي كمالٍ أو جمالٍ في غير الله ، لأن الغيرية هي عين الشرك إن لم نقل إنها إلحاد " .
واهتمامنا الكبير من هذا القول ، بالعبارة الأخيرة : " لأن الغيرية هي عين الشرك إن لم نقل إنها إلحاد " .

وهذا الكلام يعني ، وبشطحة قلم ، قضى على مليارات المؤمنين في تاريخ البشرية ، منذ تاريخ الأديان المنزلة ، قضى عليهم بالعذاب المؤبد في جحيم النار ، لأن من لا يؤمن - حسب مقولته - (بأن الله في الجبة) كما قال الحلاج ، أو أنك أنت الله أو أنا ، أو ذاك الشيطان ، أو تلك التي في الزواريب ، أو مدينة بومباي ، التي تبين أنها أوسخ مدينة في العالم ، أو البقرة التي يعبدها الهندوس ، أو .. إلى آخر ما يصد من أنفك أو عينك أو أذنك في العالم ، طبعاً إضافة إلى كل ما هو جميل ، إذا لم يكن كل ذلك هو الله ، بنظرك وبنظر مليارات البشر ، الذين ينزهون الله حتى عن مقارنته بأعظم المخلوقين في الوجود ،

فأنت وكل هذه المليارات من المؤمنين في تاريخ البشرية أهل شرك أو إلحاد لأنكم فقط نَزَّهْتُمُ الله سبحانه كما نَزَّهَ هو نفسه ، بل ، وبأقل بكثير مما هو سبحانه نَزَّهَ نفسه .

ومعنى الغيرية التي تنفيها هذه المقولة ، يعني أن يكون الوجود المخلوق وأشياء هذا الوجود هي الله لا تنفك عنه ولا ينفك عنها - سبحانه وتعالى عما يصفون - وعلى هذا الأساس وبموجب هذه المقولة ، بدلاً من أن تصلي قائلاً إياك نعبد وإياك نستعين ، فتستطيع أن تقول إياي نعبد وإياي نستعين ، فلا تكون قد جاوزت فحوى هذه المقولة ومضمونها .

ومعلوم في دعوى وحدة الوجود هذه مع الإصرار كما رأينا على اللاغيرية فيها بين الله تعالى وبين بقية خلقه ، أن في الوجود ما يخشى الإنسان أو يأنف من مقاربتة أو حتى من مجرد رؤيته ، من أشياء خلقها الله سبحانه ، مثل الجحيم والشياطين ، وشجرة الزقوم ، التي لكي يصور لنا الله مدى قبحها ونفور الأنفس منها ومن أثمارها ، قال { **كأنها رؤوس الشياطين** } ، وسواء كانت هذه حقائق مجردة تقف عند حدود ألفاظها ، أو كانت رموزاً لهذه الحقائق الغيبية ، فالأمر سيان في كونها موحشة ورهبة ومنفرة . يضاف إلى هذا الذي خلقه الله تعالى ، ما يخلفه الإنسان في يومياته من أعمال مشينة ، وأخلاق ساقطة ، وسفالات ، ثم الأشياء التي يفرزها ويتقزز منها فيواربها تحت الأرض ، لكي لا تصدم عينه وأنفه ودماعه، كل هذه المنكرات والقبائح بين سلوك الناس ومخلفاتهم ، كل هذا تريد النظرية أن يكون هو الله لترتاح نظرية وحدة الوجود التي بدون غيرية .

أما أن الله مهيمن على الوجود ، أما أنه سبحانه محيط بالأشياء { **ألا إنه بكل شيء محيط** } أما أنه كما قال سبحانه عن نفسه : { **لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** } أما أنه سبحانه { **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** } أما أنه تبارك وتعالى { **هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم** } أما أنه سبحانه { **وهو معكم أينما كنتم** } أما أنه سبحانه قال : { **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** } فهذا كله لا يعني أنه هو سبحانه عين الوجود وعين المخلوقات وعين كل فعل يصدر عن مؤمن أو عن غير مؤمن ، بل هو سبحانه وتعالى عما يصفون ، وسبحانه وتعالى عما يشركون ، هو كما أخبر عن نفسه : كان ولم تكن سماوات ولم تكن أرض ولم يكن أي شيء غيره ، فخلق السماوات والأرض وخلق كل شيء . وحتى قوله عزت عظمته في الآية الكريمة في سورة الشورى ، والتي يلتف حولها المفسرون ولا يقاربونها :

{ **فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيُبَيِّنَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** . سورة الشورى الآية 11 } .

فهي لا تعني تجانسه مع خلقه ، بل تعني غيريته عن خلقه . وأقوى دليل على ذلك فيها ، قوله عزّ في كبريائه: { ليس كمثله شيء } .

فلقد تعلمنا في المدارس مثلاً ، أن الزئبق لا يلامس جوانب الإناء الذي يوضع فيه ، وطبعاً لا يجانسه . وتعلمنا أن أنواع الأشعة مثل (سينا) و (غاما) تخترق الأشياء والأجسام ، وتفعل فيها سلباً وإيجاباً ولا تجانسه . كذلك اليوم يطول الحديث عن أشعة (ليزر) التي تخترق الصخر والحديد ، وتستعمل حتى لقطع الحديد ، إضافة إلى إستعمالها في أنواع العمليات والعلاج للمرضى .

ونحن لا نعرض هذه الأمثلة ، التي هي من أسرار خلقه سبحانه ، إلا لنقرب المعاني في فهم غيريته هو تبارك وتعالى عن خلقه ، وإلا فهو عزت عزته ، منزّه عن المقارنة بها وبغيرها . وتكفي قوة حجته ، وإشراقة دليله ، وساطع برهانه في قوله عزّ من قائل : { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } .

على أننا لا ننكر على الرجل الكبير ، الذي غير الله به مجرى التاريخ ، لا ننكر عليه عرفانه ، وله في النفس موقع مهيب ومحبب ، وكما وإننا لا ننكر ما آتاه الله سبحانه من صفات القيادة الفذة ، وجعل منه منارة قلماً تتكرر في الأجيال .

إلا أنه هو يعترف في كتابه ، بأنه لم يكن عملياً في تطبيقه لما يؤمن به من هذه الأمور التي يسميها عرفانية .

وربّ قائل يقول ، ما دمت تعترف للرجل بكل ذلك على المستوى الإسلامي والعالمي ، وأنت من المعجبين والمحبين ، فمن أي موقع أنت تنظر لمقولاته وموقعه الذي لا يكاد يدانيه موقع أي رجل غيره في قلوب الملايين .

أقول هذا صحيح ، ولكن أذكر بأن الله في خلقه شؤون ، وأقارن عظمة الرجل ، بعظمة نبيّ الله موسى عليه السلام ، حيث أن موسى (ع) شغل كذلك العالم في يوم من الأيام ، وتصدرت أخباره ومناقبه أجهزة الإعلام في عصره على مستوى العالم المعروف آنذاك ، ولا تزال . وميّزه الله تعالى بتكليمه إياه ، وأنزل التوراة وأيده وأعزه ونصره على أعدائه أجمعين . حتى ظن موسى (ع) وظن أتباعه وأنصاره ومحبيه ، أنه فريد معدنه وعلمه في عصره وفي تاريخ البشر . ولكن الله عزت عظمته بيّن لموسى (ع) وللناس أن الحقيقة غير ما يظنون وما يعتقدون . فكانت الواقعة المشهورة بين موسى (ع) وبين من أرسله الله تعالى ليتعلم منه ، ونحن هنا نكتفي بتدوين هذه الواقعة بنصها القرآني وبدون أي تعليق : قال الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد :

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا . قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا . فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . سورة الكهف الآيات (60 - 82) { .

والأمر الوحيد الذي ينبغي أن نلفت إليه على وضوح الآيات والمعاني ، هو الفارق الكبير من حيث الشهرة الكبيرة التي نتجت عن الظهور في المواقف التي مكّن الله موسى منها ، وبين ذاك الرجل الذي مكّنه الله من تعليم موسى بعد أن آتاه رحمة من عنده سبحانه وعلمه من لدنه علما .

وكاتب هذه السطور ، وبمنتهى التواضع لله سبحانه ولعامة المؤمنين ، قد آتاه الله سبحانه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما ، فجعله مصداقاً من مصاديق آية النور ، وجعل فيه تجليات لرموزها ، وهي قوله سبحانه :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور الآية 53 { .

وتفضل الله سبحانه عليه بالآيات الثلاث التي بعدها :

{ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور الآيات (36 - 38) { .

ولذلك أنا في خشية كبيرة دائماً ، من أن لا أبلغ ما علّمني ويعلمني إياه الله تبارك وتعالى وتحت عظم المسؤولية التي حمّلتني إياها ، وتحت وطأة الآية الكريمة التي صدرت بها هذا الكتاب ، أكتب ما أكتب ، وهي قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . سورة البقرة الآية 159 { .

وحيث أن الله تبارك وتعالى بيّن لي وما زال يبيّن لي من حقائق التوحيد ما ينقذ الناس ويجنبهم البدع ، فأنا ملزم بإظهار ما يبين سبحانه ، وملزم بتبليغه وعدم كتمانها وطبعاً لأنجو من لعنه - والعياذ بالله - ولأنال رضاه وهو حسبي في الدنيا والآخرة .

لذلك كان لزاماً علينا ، بخصوص النظرية التي نحن بصدها أن نظهر ما فيها من التشريك بين الله سبحانه وبين بقية خلقه . هذا التشريك الخفي الذي قال عنه رسول الله (ص) وقال أمير المؤمنين علي (ع) والأئمة الأطهار (ع) أنه كدبيب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

وأعود فأقول ، إن الرجل كان معلماً وما زال لملايين البشر ، وذلك في طاعته لله وحبه له ، الذي جعله عملاقاً وقرّم أمامه طواغيت العصر وجبابرته كلهم . إلا أنه مع كل ذلك لم يدع العصمة ، وكان نموذجاً فذاً في تواضعه وترابيته ، ومن شاء أن يطلع على إنسانية الرجل ، وعلى بعض أخطائه وعدم عصمته فليقرأ كامل كتابه : (" وصايا عرفانية " الإمام الخميني) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

إشارات تدحض نظرية وحدة الوجود :

يلبس النور الذي خلقه من سنخ نور من أنواره يتداخل معه { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية 3 } .

أما بقية الأنوار التي ليست من سنخ أنواره { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. سورة النور الآية 3 } . وكذلك الأعراض مثل العظم واللحم والدم والخشب والحديد ، الخ ... فيفيض لها قوى من خلقه نورية أو نورانية ، ليست من قدسية نوره ، يخترق بها الأشياء يفعل فيها (أي بالأشياء) ، وهي أي الأنوار القوى المخلوقة ، ليست من قدسية نوره ولكنها فاعلة عاملة بالنسبية . وهكذا تكون جميع الأشياء (الوجود جملة وتفصيلاً) ما كان منها له قدسية أنواره أو ما كان منها قريباً من القدسية ، أو بعيداً عنها ، فكل شيء يكون مغموراً - ضمن النور العام - بدرجة تناسب شئنيته ، جواهاراً وأعراضاً وتحولات . ولا ننسى أن أشدّ الظلمات لها درجة من النور تناسبها . قال تبارك وتعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ .. أَوْ كظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا .. سورة النور الآيات (39 - 40) } . فكلمة (لا يكاد يراها) دلالة على وجود نسبة من النور في الظلام ، تناسب درجة إظلامه ، فيبقى هناك إمكان أن يرى يده بمنظار ليلي مما توصل إليه العلم المعاصر .

واختلاف قوى الأنوار والأشعة أصبح معلوماً في إيماننا ، وقد ذكرنا شيئاً من تأثيراتها في سياق بحثنا ، نستفيد من ذلك تقريب الأفهام ليس إلا .

غير أن غيرية نوره سبحانه ، رغم تلبسها الشديد بالأنوار التي تفضّل عليها وجعلها مقدسة ، تبقى هي المهيمنة والحاكمة والفاعلة ، والموجهة والعاقلة والموحية ، فإنه لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وإن القوة لله جميعاً والعزة لله جميعاً . اللهم لك الحمد ملء عرشك ولك الحمد زنة عرشك ولك الحمد ولك الشكر كما حمدت نفسك وكما شكرت نفسك وكما ينبغي لكرم وجهك .

ومن أدلة غيرية نوره القدسي ، أو أنواره القدسية سبحانه ، انكماشها عن الشخص المجتبي { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . سورة طه الآية 13 } . فيتراجع تأثيرها وتوجيهها وبركاتها بأمر منه تبارك وتعالى ، فتتراجع معها صحة الإنسان المجتبي النفسية والبدنية ، ويتراجع في مجال الهداية . ويكون ذلك لأسباب سببها الإنسان المختار من قبل الله لنفسه وبدنه وربما متعلقاته ، فتتزل فيها عقوبة أو أكثر ، وقد يعاد إلى مبدأ تصفيات كان مكتوباً له أن يعفى منه إذا هو ثبت وصدق وضحي وازداد قرباً ، { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ . سورة القمر الآية 55 } .

أو أنه سبحانه يبتليه ويعطى علامات منها الكشف ومنها الإلهام ومنها الإيحاء تحت وطأة غيبوبة واعية أو وجع هادف أو تعنيت له ، وتكون الغاية من ذلك تعليمه وتعليم درجات المؤمنين الذين وصولهم متأخر نوعاً عن وصوله .

وأضيف إلى الأسباب التي يتراجع معها المجتبي ، خيانة الله في كذبة ما ، مما هو غير مسموح به ، أو عدم الإهتمام بذكر ألهمه الله سبحانه ، أو أوصاه أن يعتني بمعانيه ، أو عدم الإقبال على قرآنة القرآن رغم التوصية ، أو عدم العناية بمعاني الآيات في الصلاة .. وغير ذلك من المعاصي التي تبدو للناس العاديين بسيطة ، ولكنها بالنسبة للمجتبين هي غاية في الأهمية ، وقد يترتب عليها غضب الله وسخطه . واستجير برحمته من ذلك . اللهم إني أعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك . (منسوب إلى النبي محمد (ص)) ، يا عفو يا غفور يا رحمان يا رحيم برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقد يكون من توفيق الله للشخص المجتبي أن يستجيب له دعاءه إذا كان مضطراً ، وقد يستجيب له إذا لم يكن مضطراً ، وتكون الإستجابة (مع الوصول النسبي العالي) فورية . فإذا قلص سبحانه نوره القدسي أو أنواره القدسية لسبب سلبي من الأسباب ، فإن دعاء هذا الشخص المجتبي لا يعود ينفع معه القبول والإستجابة كما كانا ينفعان أثناء رضى الله سبحانه وودّه ومحبتة .

فما العمل في هذه الحالات ، لكي يعود الإنسان المجتنبى إلى منزلته الممتازة ، التي كان فيها عند ربه تبارك وتعالى ؟...

وما غير الندامة الشديدة ، والخوف ، والإجتهاد في العبادة والتقرب إليه سبحانه والإستغفار ؟!

طبعاً تسبق كل ذلك التوبة النصوح ، وهو سبحانه ذكر في أكثر من مكان في كتابه الكريم ، أنه ما أمرنا بالتوبة وطلب المغفرة إلا ليغفر لنا وهو خير الغافرين .

ثم لا بد أن نذكر من الأسباب المغيرة لحسن الإتصال بكرمه وجوده ورحمته وعامة نعمه ، هو أن يطلب هذا المجتنبى بعد أن يكون قد تكفل له الله سبحانه بالكفاية وفوق الكفاية وبعد أن يكون قد أعطاه في نفسه وبدنه ومتعلقاته فوق ما كان هو يحلم بذلك . ثم يبتر طالباً المزيد وبغير حساب ، وهو لا يحتاج أبداً إلى هذا المزيد . فإذا كان حسب موقعه ، موعوداً بوعود كريمة عالية ، مثل النصر على أعداء الله وأعدائه ، أو غير ذلك من الوعود في مجال نصره في دعوته إلى الله عزت وعظمته ، ثم طمع فطلب المزيد من الدنيا مثلاً على طريقة سليمان وليس موسى ، حيث طلب الخبز فقط { .. فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . سورة القصص الآية 24 } . أو على طريقة محمد (ص) حيث أتاه جبرائيل مبعوثاً من الله سبحانه يحمل إليه مفاتيح كنوز الأرض . فردّها صلى الله عليه وآله ، بلطف قائلاً له : يا أخي يا جبرائيل لا حاجة لي بها ، وإنما أجوع فأسأل الله وأشبع فأحمده ، وهذا من جملة الأسباب التي مدح لأجلها رسوله وعبدته ونبيّه قائلاً له : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . سورة القلم الآية 4 } .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

بين المقهى وملعب كرة القدم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهْيَءَ قُلُوبُهُمْ
... سورة الأنبياء الآيات (1 - 3) .

بين المقهى وملعب كرة القدم :

قال الله تبارك وتعالى :

{ اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . سورة الحديد الآية 20 } .

قوله تبارك وتعالى { اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } فيه اعتباران ، الأول ، هو تصوير رائع لعمر الإنسان بمراحله ، منذ الطفولة ثم الصبا فالشباب مروراً ببقية مراحل العمر إلى أن يودّع هذه الدار الدنيا . فاللعب - حسب طبيعة العمر - مختص بالطفولة ثم اللهو مقارن لمرحلة الصبا ، ثم التزين في أعلى درجاته رهن بالشباب ثم التفاخر ، عندما يبدأ الشباب الصراع الحقيقي لإمتلاك الدنيا ، زوجة مميزة وداراً يبذل أقصى الجهد لأن يجعلها أحسن أو أفخم من دور أقرانه ، ثم التباهي بالسيارة حجماً ونوعاً وتألقاً ما أمكن له ذلك .. ثم يدخل في صراع آخر من أجل البقاء ، يخالطه إضافة إلى حب التباهي والتملك ، الخوف من المستقبل ، فيحرص على الإكثار من المال وتخزينه وكذلك إعداد الأولاد ، تعليماً وتوجيهاً وتثبيتاً للمساعدة والمشاركة في نيل هذا الهدف .

أما الإعتبار الثاني المفزعة صورته ، هو أن تجتمع هذه المراحل كلها في صورة واحدة على إنسان ودّع المراحل التي يمكن الغفران معها ، وهي الطفولة والصبا وبعض سن الشباب ، ودخل سن الكهولة وما بعدها ، وظل يلعب ويلهو ويتصايب إضافة إلى التفاخر والتكاثر أموالاً وأولاداً .. وهذه المرحلة من العمر فيها تشدد من الله سبحانه على عباده ، حيث لا يقبل منهم لا لعباً ولا لهواً ولا تفاخراً ولا تكاثراً ..

وأكثر من ذلك ، فإنه سبحانه كما هو وارد في الأخبار الموثوقة عقلاً ونقلًا ، يحب الشباب الوقورين الجادين ولا يحب الكهول الماجنين المتصابين .

وفي الآية الكريمة تأكيد لقبوله سبحانه أو محبته للإنسان الجاد الوقور ، يعني الإنسان التقي ، وكراهيته لأهل اللهو والعبث والمجون . وذلك في قوله تبارك وتعالى : { .. كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. } وقبل أن أشرع بشرح المطلب ألفت إلى أن بعض المفسرين ، اعتبروا كلمة (الكفار) في الآية ، هي بمعنى الزراع ، وهذا ليس صواباً ، والصواب هو ظاهر القول ، وبداهة العقل واللغة ، فكلمة (الكفار) تعني الكفار بالله أو بدينه أو بتعاليمه بعضاً أو كلاً . فالنبات بخضرته ونضرتة ، ليست رؤيته حكراً على الزراع ، بل هو يلفت جميع الناس ، ولا سيما كما هو مقصود الآية : الأكثر تعلقاً بالدنيا ومباهجها ومكاسبها ، وهم الكفار ، حيث ليس عندهم بديل عنها ، أو ليس عندهم - باعتقادهم - ما هو أفضل منها ، بخلاف المؤمنين ، الذين قلما تشدهم مفاتنها من نبات وثمرات ، وإذا شدهم شيء من ذلك فليسبحوا الله ويعظموه ويشكروه على ما أبدع من جمال وجلال متعاً للعقل والقلب والعين ، وقد ورد في أدعية المؤمنين : " اللهم إنا نسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل ، اللهم إنا نسألك بجمالك كله " . فلا حرص ولا دهشة ولا تعلق ، بمغريات الدنيا وجناتها وبساتينها ودورها وقصورها ، إذ ما عند الله للمؤمنين ما هو خير وأجمل وأبقى . وهم لا يعيرون الدنيا إهتمام الكفار ، لأنهم يدركون تعليم الله في آياته الكريمات ، ولا سيما في هذه الآية التي بين أيدينا ، حيث يتابع سبحانه فيقول : { .. ثُمَّ يَهَيِّجُ فِتْرَاهُ مُصَفِّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. } أي الغيث الذي يعجب الكفار نباته ، أي أنه يندثر ويتحطم ولا يبقى منه لأصحابه شيء . وهذا كناية عن موته عنهم وفنائه ، ثم كناية عن موتهم هم ، ولو كان ما يفتنهم من شأنه أن يعمر أكثر منهم إن كان من شجر أو حجر أو ما شابه ذلك ، فموتهم عنه ، فناؤه عنهم مجازاً ، وبالتالي هو إلى زوال ولو بعد حين .

ولو أن الأمر انتهى هكذا ، بفنائهم عن الدنيا أو فنائها عنهم ، لكان من السهولة والراحة بمكان ، أن ينظم الإنسان حياته على هذا الأساس . ثم ينام قرير العين نومة أبدية ، لا حياة بعدها ولا حساب ولا عقاب . إلا أن الحق أعظم من ذلك وأعدل ، فالحق أحق أن ينتصر ، والباطل أولى أن يخزى وأن ينهزم . وبقية الآية الكريمة تأكيد لهذا الحق ، قوله تبارك وتعالى : { .. وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } . يعني نهاية الإنسان باختصار شديد : إما إلى جنة إما إلى نار . والحياة الدنيا ، كل ما فيها ليس له قيمة حقيقية ، فهو لباس يبلى وأثاث يفنى ، إلا الصالحات من الأعمال مع الإيمان توحيداً بغير شرك ولا نفاق . فهذا هو الزاد الذي يُقبل ويتنامى في الآخرة حيث يجده أصحابه في موازينهم يوم القيامة . وهذه آيات كريمات تفصح خير إفصاح عن عدالة الله عزت عظمته ، وعن مسؤولية الإنسان في سلوكه وتطلعاته ، وصدقه أو كذبه ، وعن منزلته ونتائج أعماله في الدار الآخرة .

قال تبارك وتعالى :

{ فَأَذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . سورة المؤمنون الآيات (101 - 107) } .

فحكاية الموازين هنا ، هي التي توزن فيها الأعمال ، أي تقوم من حيث جهاد أصحابها في سبيل الله ومواقفهم منتصرين له ومنتصرين به سبحانه . إلى الجود بالأنفس والأموال وبكل ما يملك الإنسان تقرباً إلى الله عزّ وعلا ، فكل ذلك مما يتقل الميزان لصالح الإنسان المؤمن الموحد . وخلاف ذلك اللاعبون اللاهون المستهزون بآيات الله ، وبالمؤمنين وعشقهم لله ، بل وفنائهم في حبه . { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } أي أنهم يتضرعون يومها إلى الباري ليخرجهم من النار وعذابها ، فيتلقون الصدمة المزلزة لكيانهم ، قوله تعالى : { قَالَ احْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ . إِنَّهُ كَانَ قَرِيْقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيَا حَتَّى أَنسَوُكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِزُونَ . قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ . سورة المؤمنون الآيات (108 - 115) } .

هذه الآية الأخيرة ، قوله تعالى : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ } لها مصاديق كثيرة في المجتمعات البشرية ، أناس عبثيون ، ضائعون ، يهربون من أنفسهم تارة ، ومن الحقائق القوية التي تواجههم تارة أخرى ، وأكثر ما يلجأون لنقض المسؤولية عن أنفسهم ، إلى اللهو واللعب . وأماكن اللهو واللعب للكبار أكثر من أن تعد أصنافها ، وهي بين حرام وحلال مزعوم ، تفوق عدد بيوت العبادة والمكتبات والنوادي الثقافية مئات المرات . إلا أن يورتنين أصبحتا أكثر أماكن اللهو استقطاباً للناس هما المقاهي وملاعب كرة القدم .

أما المقاهي ، ويتفرع عنها الكباريهات والكازينوهات وغير ذلك مما هو ظاهر فوق الأرض أو مخبأً تحت الأرض ، فهي تؤوي المترفين من الجنسين ، وفي معظمها يباع الفسق وأنواع الفجور غير القمار والمراهنات الكبيرة والصغيرة حسب أحوال روادها ومستوياتهم .

يبقى أن نستثني بعض أهل الفكر ، الذين لهم مفاهيمهم أو منتدياتهم التي يقصدونها إما لكتابة أو لمطالعة ، أو للإجتماع بأقران لهم ، في مستويات تتراوح بين مراودة الإلحاد أو مراودة الإيمان .

أما الأكثرية الساحقة من أنواع هذه المقاهي . فهي مجتمعات خاوية خالية من أي معنى إنساني أو أخلاقي أو إجتماعي ، خلاصتها تدخين وألعاب تتداول على الطاولات بين شخصين أو عدة أشخاص . سألت مرة جماعة يلعبون " الورق " : بماذا تتحدثون وأنتم تجلسون ساعات طويلة ، بين الثلاث والأربع ساعات على كل لعبة ؟ قالوا لا شيء وإنما نلعب . قال أحدهم نردد ، جميعنا ، كل واحد بدوره أربع كلمات : هي " بستوني وكُبا وديناري وسباتي " وهي أسماء عالمية لأصناف " الورق " الذي يلعبون به بين أعلى مستويات القمار وأدنى مستويات التفاهة . والخلاصة في أحسن حالات اللهو " البريء " هذه ، هي : هدر الساعات الطويلة ، مع كل لعبة من عمر هذا الإنسان اللاعب اللاهي الذي يهرب من مواجهة الحقائق الناصعة التي لخصتها الآية الكريمة التي نحن بصددنا.

هؤلاء هم المترفون ، والترف ليس بالضرورة أن ينتج عن ثراء ، فالترف هو حالة استكانة واسترخاء ذهني وفرار من المسؤولية ، وهو سواء كان ناتجاً عن ثراء أو عن استعداد للنكاسل وعدم احترام الذات ، فقد قبحه الله سبحانه وقبح أصحابه وتوعدهم بالعقوبة والعذاب ، قال تبارك وتعالى :

{ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . سورة الواقعة الآيات (41 - 45) } .

أما تقويم الأمر بين الحلال والحرام ، والإدعاء بأن أنواع اللهو هذه مباحة ، ولذلك إقدام الكثرة الكاثرة من الناس عليها ، فالحقيقة ، في هذا الموضوع مناقشة ، لمن أفتوا بحلية هذه الألعاب بأنواعها والتلهي بها . وأدنى هذه المناقشة هي أولاً مواجهتهم بالآية الكريمة التي نحن بصددنا ، وما يساندها من الآيات ، كالتي ذكرنا عن المترفين . وآية سورة الدخان ، قوله تعالى : **{ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ . الآية 9 }** وقوله جلّت عظمتة : **{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . سورة الأنبياء الآية 2 }** . وإذا كان الإستنباط يقتضي أول ما يقتضي إعتداد كلام الله وتعليمه في كتابه الوحيد المجيد ، فما معنى أطراح هذه الآيات وغيرها الكثير من نمطها في كتاب الله ؟! هذا أولاً ، وثانياً ، لماذا عدم التصدي لطرح بدائل فيها الجدّ وفيها الإستقامة وفيها تحمّل المسؤولية أمام الله وأمام عباده ، من كل ما يحفظ كرامة الإنسان وشرف الإنسان وشهامته ومصيره في الدنيا

والآخرة . وهذه البدائل كذلك مبنوثة في كتاب الله العزيز ، والإستنباط منها سهل يسير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قد يتأفف من لا يعي حقيقة مسؤولية العباد في حياتهم الدنيا ، أمام ربهم ومصيرهم إليه سبحانه في يوم الفصل ووضع الموازين : { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . سورة القارعة الآيات (6 - 9) } .

" رَوِّحُوا عَنْ قُلُوبِكُمْ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا مَلَّتْ كَلَّتْ " حديث صحيح ، ونحن معه قولاً وتطبيقاً ، في السلوك الشخصي ، وفي المجال الوعظي والتربوي ، والترويح عن القلوب وعن الأنفس يتم بجماله وكماله بعيداً عن أنواع اللهو ، هذه التي هي أشبه بسجن للقلوب وتكبير للأعصاب . الترويح عن القلوب وعن الأنفس ، يتم بسلامة واستقامة وعبادة مقبولة بين عالمي الفكر والطبيعة ، بروائعها جمالاً وجلالاً وفتوحات جمال وجلال ، وحفاظ بينهما على العقل والقلب والنفس من الإنحلال والتهتك والخسران المبين .

واليكم أهمّ مثل عن تهتك العقل وسقوطه إلى مستوى الأقدام ، تقوده فينقاد ، متلبساً كرة مطاطية تتقاذفها أمام الجماهير المهووسة بأقدام اللاعبين .

عجيب هذا الإنسان القاعد في مدرّج ملعب كرة القدم ، أو أمام التلفاز ، صالِباً وجهه ساعاتٍ ، بل وأياماً متتاليات وعيناه مزروعتان في كرة القدم وأقدام اللاعبين ، وفكره يعدو مع هذا اللاعب ويركض مع ذاك ، ويتأزم تارة ويفرح أخرى بين اللحظة واللحظة ، أو بين الفذفة والقذفة ، إلى أن تنتهي اللعبة ، فينهض إما غاضباً ومن أي شيء ؟ من لا شيء . وإما سعيداً من أي شيء ، كذلك من لا شيء . حسب منطق العقل لا منطق الهوس .

هذا الوصف الذي وصفته - موجزاً - للإنسان المتفرج على هذه اللعبة ، أو هذا اللاعب بعقله ، ينسحب على الستة مليارات إنسان الذين هم اليوم يسكنون أرضنا إلا قليلاً ، يعني إلا من رحم ربك .

ففي أيام " المونديال " ، وهو الإسم العالمي ، للعبة كرة القدم ، حيث تتبارى بها دول العالم ، حسب أنظمة وتشريعات دقيقة ، وربما معقّدة ، وكلها متوجهة إلى أقدام اللاعبين وحركاتهم وسكناتهم ، حتى إذا قذف قاذف الكرة وأرساها في هدف خصمه ، هاجت جماهير المؤيدين وماجت ، وعلا الصياح والهرج ، وكما في الملعب ، كذلك في مدن العالم وقراه والشوارع والأحياء ، وأعماق الدور والأكواخ والقصور .

فما هو السر يا ترى في كل ذلك ؟ فالأمر عجب ، وفيه أكثر من غرابة . منذ زمن وأنا أفكر في هذه اللعبة التي تستقطب الجماهير العالمية ، وفي غيرها من الألعاب ، مثل الكرة الطائرة وكرة السلة ، وقد أكون مارست بعضها في شبابي وقبل ذلك في صباي ، وأنا الآن أتذكر وأفكر ، فلم أجد لذلك سرّاً ولا نكهة مميزة ، لا عقلية ولا نغلية ولا جدلية ، سوى أنها لعب .

فهل بلغ مستوى الست مليارات عالم ، إلا قليلاً ، أن تداس أفكارهم وآمالهم تحت أقدام لاعبي كرة القدم ؟

فمن هم هؤلاء اللاعبون يا ترى ، وأين سر قوتهم وعبقريتهم ، وما هو مستوى ثقافتهم ، حتى استطاعت حركات أرجلهم أن تهيمن على ستة مليارات من البشر إلا قليلاً ؟

صدق الله العليُّ العظيم ، قوله تبارك وتعالى : { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَعْبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ .. سورة الأنبياء الآيات (1 - 3) } .

بين اللعب العبي والريضة المفيدة :

اللعب أخضع حتى الدول لعبثيته . فهي تتنافس بتوتر وحماس شديد لبضعة عشر لاعباً يمثلون كل أمة ، أو كل دولة . ويشدون أبصارهم وأعصابهم ، قيادات وجماهير ، معلقين كرامة شعب بأكمله ، على النتيجة التي تحصلها زمرة اللاعبين ، إما انتصاراً وإما انكساراً . وملايين الناس تمثلهم الزمرة اللاعبة تمثيلاً قسرياً ، يعني شاؤوا أم أبوا .

والحقيقة أن المشكلة هي في الناس الناعقين مع كل ناعق والمائلين مع كل ربح . والذين مثلهم في هذا المجال ، كمثّل القرعاء التي تفرح بشعر إبنة خالتها . حيث أنهم متفرجون قاعدون ، لا عن فوائد الرياضة وحسناتها فحسب ، بل هم يهدرون ، إضافة إلى الوقت الثمين ، أعينهم وأعصابهم .

ويا حبذا لو يمارس الرياضة جميع الناس ، ومن كل سن ، تلك هي الحقيقة المطلوبة ، لا لعباً ولا لهواً ، وإنما بدافع الواجب ، الذي هو الحفاظ على أنفسهم وعقولهم وأبدانهم لتبقى سليمة معافاة . فالأنفس والأبدان أمانات هي لله تبارك وتعالى ، وإهمالها أو

إتلافها بشكل من الأشكال ، بما يضرها ، أو تعريضها للضعف والوهن ، كل ذلك خيانة نسبية لهذه الأمانة ، والتي هي ضمن الأمانة الكلية ، عنيت بها دين رب العالمين . وخير ما نختم به موضوعنا هذا ، هو قوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . سورة الأحزاب الآية 72 } . أي بخيانتها كان ظلوماً جهولاً . وإلا فهو من أولياء الله المقربين المحبوبين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع

دروس حوزوية تزوّر القرآن

دروس حوزوية تزوّر القرآن :

=====

لعلّ هذا الموضوع هو أخطر المواضيع التي نالت وما زالت تنال من عقيدة التوحيد ، هذه العقيدة التي على أساسها يقبل إيمان الفرد أو إيمان الأمة أو لا يقبلان . والتي على أساسها بني الإسلام العظيم دين رب العالمين .

والموضوع هذا ، هو تزوير أساس التوحيد ، من حيث نقل الحقوق والحقائق التي هي لله وحده ، إلى فريق من عباده ، مهما كان شأن هذا الفريق ودرجته بين المخلوقين .

وحقيقة هذا الموضوع ، أن عجيبة من عجائب قلب الحقائق تدرّس في الحوزات الدينية ، لطلبة يصبحون ، في كل جيل ، القادة الدينيين ، أي القادة الحقيقيين لأمة الإسلام ، فهم يحملون التزوير الذي تعلموه إلى الناس ، كل الناس . وإذا كان أساتذة الحوزات أصلاً ، لم يلتفتوا إلى حقيقة هذا التزوير ، وكذلك طلابهم الذين أصبحوا ويصبحون قادة ، فمن البديهي أن لا يلتفت كذلك عامة الناس . والأدهى من ذلك ، أن العامة فضلاً عما عندهم من السطحية والفقر في الدين وضيق الأفق والجهالة في جواهر العقيدة . وفضلاً عن أنهم أعجز من أن يحققوا أو يدققوا في الأمور الفكرية والاجتهادية التي تقدم إليهم ، فهم يتعصبون للكارثة ، هذه التي تجتاح عقيدة التوحيد ، طبعاً هم تعلموا هذا التعصب ، والتمسك الشديد ببعض الأمور التعصبية تقليداً لشييوخهم .

أما الحكاية ، فهي تفسير آية أو آيات ، هي من أخطر وأوضح الآيات القرآنية التي تدعو إلى اتباع الله أصلاً وأصالاً ، فقد حوّلها المحرفون تحت عين الشمس وتحت أنوار الله الكاشفة وأنوار كتابه الكريم إلى دعوة إلى الأئمة عليهم السلام ، حيث عطلوا حق الله سبحانه في توحيده هو ، وجعلوه حكراً على الأئمة الذين هم برآء من هذا التزوير .

وهذه هي الآيات الكريمات التي عطلوها وقلبوا معانيها ، قوله عزت عظمته :

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَا نُؤْفِكُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . سورة يونس الآيات (34 - 35) } .

وقبل أن أذكر التزوير الخطير لجواهر الآيات ومحورها الذي هو التوحيد . أفسرها ، فهي بسيطة أي غير مبهمة ولا معقدة من حيث تركيبها ووضوح معانيها :

أما قوله تعالى : { .. هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. } فهو سؤال بديهي إستنكاري محرج لجميع أهل الشرك ، سواء كانوا يشركون بالله أوثاناً أو بشراً ، زعماء دين أو زعماء سياسة ، أو ممثلين لمراكز قوى في حياة البشرية . والتحدي الواضح ، هو أنه لا أحد يستطيع أن يدّعي لمخلوق أنه يخلق من العدم كما خلق الله هذا الوجود بعناصره الكثيرة ومنها هذا الإنسان ، نبياً كان أو إماماً أو صالحاً في الصالحين ، أو غير ذلك ممن اختاروا الشرك والكفر والعناد لرب العالمين . وهذه تفيد باختصار أنه لا إله إلا

الله المتميز بألهانيته ، والتي هو بها سبحانه القادر المطلق والعالم المطلق والحاكم المطلق .
وكأنما هذه الآية الكريمة تمهيد للآية التي بعدها ، والتي فيها تقرير الحقيقتين الكبيرتين ،
الأولى أنه هو وحده سبحانه دون جميع خلقه يهدي إلى الحق دون أن يحتاج لهداية أحد .
والحقيقة الثانية المترتبة عليها وهي أنه إذا هو وحده أصالة يجب أن يتبع ، فاتّباع غيره
بدون هديه هو وبدون أمره هو وبدون إرشاده هو يؤدي إلى الهلكة ، وأية هلكة هي التأبّد
في نار الجحيم . هذا هو معنى الآية الثانية { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ... }
والجواب القطعي أنه لا ليس أحد من الشركاء ولو كانوا في زعمهم أنبياء أو أئمة ، فلا أحد
منهم يستطيع أن يهدي إلى الحق وهو بعد بشر ، ولن يكون إلهاً أبداً . هو سبحانه قال
لعظيمهم محمد (ص) : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ
يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . سورة الكهف الآية 110 }

فقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ .. } يعني محمد (ص) بشر مثل بقية البشر ،
يضل ويهتدي ، فإذا عصمه الله ، وقد عصمه ، فإنما يهدي بما يوحى إليه الله سبحانه ،
وهكذا الأئمة المعصومون عليهم السلام هم بشر كبقية البشر ، وهم في أحسن حالاتهم ليسوا
أفضل من محمد (ص) ، فهم لن يستطيعوا أن يهدوا أحداً إلا بعد أن يهديهم الله . فماذا جرى
حتى قلبوا هذه الحقيقة في الكتب التي تدرّس في الحوزات الدينية ، حيث جعلوا قوله تعالى :
{ .. قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ .. } ؟ جعلوها حكراً على
الأئمة (ع) وأنهم هم يهدون إلى الحق من دون الله (*) . أما قوله سبحانه { .. أَمَّنْ لَا يَهْدِي
إِلَّا أَنْ يُهْدَى .. } وهو سبحانه يقصد بها جميع ما خلق من الملائكة والجن والإنس وفيهم
الأنبياء والأئمة والأولياء ، جعلوها فقط للعوام من الناس { فما لكم كيف تحكمون } ؟ ! .

(*) كتاب التربية الدينية - دراسة منهجية لأصول العقيدة الإسلامية . الصفحة (60 - 61) .
وليس عبثاً ، ومعاذ الله ، أن يتّبع سبحانه هاتين الآيتين بقوله عزّت عظّمته : { وَمَا
يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . سورة يونس
الآية 36 } .

وفيما يلي أدناه النص الحرفي الوارد في الكتاب الأنف الذكر صفحة 60 - 61 :

ومن الآيات القرآنية التي تفرض أن يكون الإمام عالماً بالشريعة علماً كاملاً قوله
تعالى :

{ " أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع ، أمَّن لا يهدي إلا أن يهدى ؟! .. فما لكم
كيف تحكمون ؟! " سورة يونس آية 35 } .

يخاطب الله تعالى الناس بأسلوب الاستفهام ، فيقول لهم : أيهما أحق أن يقتدي بسيرته ، ويرجع إليه في معرفة الشريعة الإمام الذي يهدي إلى الحق (وهو العالم بالشريعة علماً كاملاً) .. أم الامام الذي لا يهدي إلى الحق ، وإنما يحتاج إلى أن يهديه غيره إلى الحق (وهو الذي لا يعرف الشريعة معرفة تامة) ؟! .

وإنما وجه الله تعالى هذا الخطاب إلى الناس بأسلوب الاستفهام لينكر فيه سبحانه على الناس : أن يقتدوا بالامام الذي لا يعلم الشريعة علماً كاملاً ، وليفرض عليهم أن يقتدوا بالامام العالم بالشريعة علماً كاملاً ، لأن الإمام العالم بالشريعة علماً كاملاً أعرف بالحق .. ولذا عقب - تعالى - خطابه الكريم هذا بقوله .

{ " فما لكم كيف تحكمون ؟ .. " }

كيف تحكمون بأنه يجوز الاقتداء بالامام الذي لا يعرف الشريعة معرفة تامة ، وأنتم تعلمون بأن مثل هذا الامام الذي لا يعرف الشريعة معرفة كاملة ، لا يطمئن الناس إلى أن يقتدوا به لانه يخطأ في تعليم الشريعة وتبليغها ، وفي تطبيقها وتنفيذها .

قال الله سبحانه مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وآله :

* { قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ . سورة سبأ الآية 50 } .

* { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . سورة الضحى الآيات (6 - 7) } .

* { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . سورة الجن الآيات (18 - 22) } .

* { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . سورة الأعراف الآية 188 } .

* { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فآتِكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ . وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . سورة يونس الآيات (104 - 107) } .

هذه الآيات ، كما تؤكد بشرية محمد رسول الله (ص) كذلك هي تؤكد عبوديته لربه وتبعيته له واهتدائه بهديه ، وفقره إليه ، وكذلك هي بديهة ، تؤكد بشرية الأئمة عليهم السلام وعبوديتهم وتبعيتهم لربهم ، واهتدائهم بهديه وفقرهم إليه . وبالتالي هي سنن الله فيهم وفي الناس أجمعين .

نعم { .. لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ . سورة الرعد الآية 7 } هادٍ مرسلٌ من الله أو مكلف من قبل الله تبارك وتعالى ، ليهدي الناس إلى الله ، وهو يستحيل أن يكون هادياً إلا بعد أن يهديه الله عز وجل . وإذا كان رسول الله محمد (ص) أعلى مقياس بين الهداة الذين أرسلهم الله أو كلفهم ليهدوا الناس ، فقد أكد الله سبحانه أن محمداً (ص) لا يمكنه أن يكون مستقلاً عن رعاية الله وتوجيهه وتسديده كما رأينا في الآيات الأنفات وفي آيات آخر . مثل قوله تعالى يخاطبه في بعض المناسبات :

{ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَا لَادَقْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا . سورة الإسراء الآيات (74 - 75) } .

أو قوله تبارك وتعالى :

{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . سورة الزمر الآية 65 } .

فإذا كان محمد صلى الله عليه وآله ، هو المقياس الأعلى بين الهداة ، فمن البديهي أن يكون الأئمة عليهم السلام ، وقد جعلهم الله خلفاءه أو أوصيائه (ص) ، في أحسن حالاتهم مخاطبين بما خاطب به سبحانه رسوله الأمين (ص) . فراجع الآيتين الأنفتين .

بقي أنه قد يدعى علينا أحد ، حيث اعتبرنا رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله أنه المقياس الأعلى بين الهداة في تاريخ البشر ، والإدعاء يستند إلى بعض الآيات من مثل قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . سورة النساء 125 } .

أو قوله عزت عظمته مخاطباً محمداً (ص) :

{ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . سورة الأنعام الآية 161 } .

فنقول تكفي آية العهد الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء أن ينصروا خاتمهم ويؤازروه ، لتزيل من الأذهان ما قد يعلق بها من تدني منزلة محمد صلى الله عليه وآله عن رتبة نبي الله إبراهيم عليه السلام ، فالآية وإشارات كثيرة غيرها في القرآن الكريم تؤكد سيادة محمد (ص) وإمامته لجميع النبيين والمرسلين عليهم السلام . وهذه الآية الكريمة :

{ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . سورة آل عمران الآية 81 } .

هذا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل الخامس

إِخْلَعْ نَعْلَيْكَ

إِخْلَعْ نَعْلَيْكَ :

=====

قال الله تبارك وتعالى :

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . سورة طه الآيات (9 - 13) . }

لأهمية الموضوع ، ولأهمية هذه الآيات المتعلقة به ، سنفصّل في تفسيرها أولاً ، ثم نعود إلى التأويل بقدرٍ مقدور ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم .

القراءة :

قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو : أني أنا ربك بفتح الألف ، والباقون : إني بالكسر . وقرأ حمزة لأهله أمكثوا ، وفي القصص أيضاً بضم الهاء . وأنا مشدد مفتوح الهمزة ، اخترناك على الجمع ، والباقون لأهله بكسر الهاء ، وأنا اخترتك على التوحيد ، وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة طوى بالتنوين والباقون بغير تنوين ، وفي الشواذ قراءة الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير أخفيها بفتح الألف .

الحجة :

من كسر إني فلأن الكلام حكاية كأنه نودي ف قيل يا موسى إني أنا ربك ، ومن فتح فكان المعنى نودي بكذا . وقوله طوى يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه فعلى وجهين :

أحدهما : أن يجعله إسم الوادي فيصرفه لأنه سمي مذكراً بمذكر.

والآخر : أن يجعله صفة ، وذلك في قول من قال أنه قدس مرتين ، فيكون طوى كقولك ثنى ، ويكون صفة كقوله مكاناً سوى وقوم عدى ، وجاء في طوى الضم والكسر ، كما جاء في مكان سوى الضم والكسر .

ومن لم يصرف احتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون إسماً لبقعة أو أرض فهو مذكر فيكون بمنزلة امرأة سميتها بحر ، ويجوز أن يكون معدولاً كعمر ولا يمتنع أن نقدر العدل فيما لم يخرج إلى الإستعمال ، ألا ترى أن جمع وكتع معدولتان عما لم يستعملا فكذلك يكون طوى . وأما قوله وأنا اخترتك فالإفراد أكثر في القراءة ، وهو أشبه بما قبله من قوله إني أنا ربك ، ووجه الجمع أن يكون ذلك قد جاء في نحو قوله تعالى : { سبحان الذي أسرى } ، ثم قال : { وآتيناه موسى الكتاب } ، ويمكن أن يكون الوجه في قراءة حمزة وأنا اخترناك ، مع أنه قرأ : إني أنا ربك بالكسر ، أن يكون التقدير ولأنا اخترناك فاستمع .

اللغة :

الأيناس : وجدان الشيء الذي يؤنس به ، والقبس : الشعلة من النار في طرف عودٍ أو قصبة ، والخلع : نزع الملبوس ، يقال خلع ثوبه ، وخلع نعله ، والوادي سفح الجبل ،

ويقال للمجرى العظيم من مجاري الماء واد ، وأصله عظم الأمر ، ومنها الدية لأنها العطية في الأمر العظيم ، وهو القتل ، والمقدس : المطهر ، قال امرؤ القيس : (كما شبرق الولدان ثوب المقدس) يريد العابد من النصارى كالفسيح ونحوه ، وسمي الوادي طوى لأنه طوي بالبركة مرتين .. عن الحسن ، فعلى هذا يكون مصدر قولك طويت طوى ، قال عدي بن زيد :

أعاذل إن اللوم في غير كنهه عليّ طوى من غيك المتردد .

المعنى :

ثم خاطب الله سبحانه نبيّه تسليّة له مما ناله من أذى قومه ، وتثبيتاً له بالصبر على ما أمر ربه كما صبر موسى (ع) حتى نال الفوز في الدنيا والآخرة ، فقال { وهل أتاك حديث موسى } هذا ابتداء إخبار من الله تعالى على وجه التحقيق ، إذ لم يبلغه حديث موسى ، فهو كما يخبر الإنسان غيره بخبر على وجه التحقيق ، فيقول هل سمعت بخبر فلان ؟ وقيل إنه استفهام تقرير بمعنى الخبر ، أي وقد أتاك حديث موسى { إذ رأى ناراً } عن ابن عباس ، قال وكان موسى رجلاً غيوراً لا يصحب الرفقة لئلا ترى امرأته ، فلما قضى الأجل وفارق مدين ، خرج ومعه غنم له ، وكان أهله على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت ، فأضلّ الطريق في ليلة مظلمة ، وتفرقت ماشيته ولم يقدح زنده وامرأته في الطلق ، فرأى ناراً من بعيد كانت عند الله نوراً وعند موسى ناراً (فقال) عند ذلك (لأهله) وهي بنت شعيب كان تزوجها بمدين (امكنوا) أي الزموا مكانكم ، قال مقاتل وكانت ليلة الجمعة في الشتاء ، والفرق بين المكث والإقامة أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم { إنني أنست ناراً } أي أبصرت ناراً { لعلي آتيكم منها بقبس } أي بشعلة أقتبسها من معظم النار تصطلون بها { أو أجد على النار هدى } أي أجد على النار هادياً يدلني على الطريق ، وقيل علامة استدلل بها على الطريق ، والهدى ما يهتدي به فهو إسم مصدر ، قال السدي : لأن النار لا تخلو من أهل لها وناس عندها { فلما أتاها } قال ابن عباس : لما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عثّاب ، فوقف متعجباً من حسن ضوء تلك الشجرة ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فسمع النداء من الشجرة وهو قوله : { نودي يا موسى إنني أنا ربك } والنداء الدعاء على طريقة يا فلان ! فمن فتح الألف من أني فالمعنى نودي بأني ، ومن كسر فالمعنى نودي فقيل إنني أنا ربك الذي خلقتك ودبرك ، قال وهب : نودي من الشجرة فقيل يا موسى ! فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه ، فقال إنني أسمع صوتك ولا أدري مكانك ، فأين أنت ؟ فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك ، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلاً لربه عز وجل وأيقن به ، وإنما علم موسى (ع) أن ذلك النداء من قبل الله تعالى لمعجز أظهره الله سبحانه ، كما قال في موضع آخر : { إنني أنا الله رب العالمين } وأن ألق عصاك

... إلى آخره ، وقيل إنه لما رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها تتوقد فيها نار بيضاء ، وسمع تسبيح الملائكة ، ورأى نوراً عظيماً لم تكن الخضرة تطفئ النار ولا النار تحرق الخضرة ، تحير وعلم أنه معجز خارق للعادة ، وأنه لأمر عظيم ، فألقيت عليه السكينة ، ثم نودي إني أنا ربك ، وإنما كرر الكناية لتأكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة { **فاخلع نعليك** } أي انزعهما ، وقيل في السبب الذي أمر بخلع النعلين أقوال :

أحدهما : أنهما كانتا من جلد حمار ميت .. عن كعب وعكرمة وروى ذلك عن الإمام الصادق (ع) .

وثانيها : كانتا من جلد بقرة ذكية ، ولكنه أمر بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدس .. عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج .

وثالثها : أن الحفاء من علامة التواضع ولذلك كانت السلف تطوف حفاة .. عن الأصم .

ورابعها : أن موسى (ع) إنما لبس النعل اتقاء من الأنجاس وخوفاً من الحشرات فأمنه الله مما يخاف وأعلمه بطهارة الموضع .. عن أبي مسلم { **إنك بالواد المقدس** } أي المبارك .. عن ابن عباس ، بورك فيه بسعة الرزق والخصب وقيل المطهر { **طوى** } هو إسم الوادي .. عن ابن عباس ومجاهد والجبائي ، وقيل سمي به لأن الوادي قدس مرتين فكأنه طوى بالبركة مرتين عن الحسن { **وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى** } إليك من كلامي وأصغ إليه وتثبت ، لما بشره الله سبحانه بالنبوة ، أمره باستماع الوحي .

تأويل الآيات :

قبل أن أبدأ بتأويل هذه الآيات . ينبغي أن ألفت وباختصار إلى الفرق بين التفسير والتأويل ، علماً أنني قد عقدت فصلاً مسهباً عن التأويل في كتابي " الحكمة الإسلامية - بحوث من مقتضيات العصر " ونكتفي هنا بالقول أن التفسير - كما هو شائع عند العلماء - هو إظهار معاني ظاهر الآيات القرآنية حسب تراكيبها وصيغها في اللغة العربية . علماً أن ظاهر القرآن الكريم حجة بالإجماع عند علماء المسلمين ، ويسمى هذا الموضوع حجة الظاهر ، وقد قمنا بواجب إظهار هذه الحجة ، تفسيرا للآيات التي نحن بصددّها . أما التأويل ، فهو استكناه بواطن الآي من حيث مجازاتها وكناياتها وكذلك أسرارها أو بعض أسرارها التي يطلع عليها الله عز شأنه من يشاء من عباده .

ولا بدّ من القول كذلك ، أن ليس كل الآيات في المصحف الشريف ، ذات ظاهر وباطن ، أو ظاهر وبواطن ، فمثال على ذلك مما ليس له باطن ، وإنما هو يفهم على ظاهره فقط ، قوله تعالى : { عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . أول سورة عبس } فهي على ظاهرها ، سواء كان العبوس من رسول الله (ص) أو من غيره ، فيبقى المعنى أن المقصود بالكلام عبس وأعرض عن أعمى دخل عليه . ونبدأ بالآيات الكريمات تأويلاً :

بين الرموز والحقائق :

ففي قوله تبارك وتعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } ثلاثة أمور زيادة على التفسير الذي رأيناه على مستوى الظاهر . الأول : خطاب لمن يجتبيه الله من عباده يريد تعليمه . الثاني : تنبيه لهذا المجتبي لكي يحسن الإستماع وأخذ العبرة . الثالث : موسى ، هو الرمز الذي يخاطب به الله أصفياءه الذين اختاروا الهجرة من دنياهم ومن أبدانهم ومن أنفسهم إليه سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقوله تبارك وتعالى :

{ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . سورة طه الآية 10 } .

النار في المتعارف ، أنها كذلك رمز وعلامة ، يوقدها في الليالي الباردة والمظلمة أهل الجود والكرم للأضياف وللمسافرين الذين بعدت بهم الشقة عن أهلهم وأوطانهم وللتائهين كذلك في البوادي والقفار . فهي النداء الذي يشفي ويكفي من وحشة الليل وأخطاره ومشقات السفر ، فيجدون عندها الأنس والراحة والكرم وحسن الضيافة .

والنار التي في الآية كناية عن هذه ، وإنما التي في الآية ينصبها الله للمسافرين إليه ، ويهديهم بها وإليها ، حيث يجدون أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين . أما كيف يريهم إياها ، فبالقلوب والبصائر ، نوراً بعد نور ، ثم نوراً على نور .

والأهل ، في قوله تعالى : { فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا } هم الأهل في الظاهر ، أي الزوجة وأهل البيت عامة ، أما الرمز فهو في قوله { امْكُثُوا } وهي ، أي الكلمة في اللغة ، ليست بمعنى أقعدوا أو أقيموا ، وإنما فيها معنى التلبث والتحوّل والإصطبار . ودائماً ، عندما يعزم الرجل على الهجرة إلى الله تبارك وتعالى ، تحصل ردود فعل من قبل أهله لا بدّ منها . فالرجل ضمن تغيراته عامة النفسية والعقلية والسلوكية ، يبدأ بالإنصراف تدريجياً عن الدنيا ومعظم شؤونها التي كانت شغله الشاغل ، وفي توجهه لربه عز شأنه ، تصبح حيثيات

التعامل عنده والإهتمامات الصغيرة ، تافهة ، والأهل إذ يلمسون هذه التغيرات ، ولا يستطيعون إدراك كلية الحقيقة التي أخذ فيها الرجل ، يبدأون بالتساؤل ، والتعليق ، والنقد ، إلى أن يدركوا تصميمه النهائي ، وهو أنه اختار ربّه تبارك وتعالى على الدنيا وجميع ما فيها ، وأصبح هو سبحانه همه الأعظم وحبّه الأعظم . فالأهل عندئذ يبتلون بإحدى حالتين إما إيجابية وإما سلبية ، فإذا اختاروا الحالة الإيجابية ، نجحوا ونجوا معه ، وتعاونوا على البر والتقوى ، بل وتنافسوا في حب الله تبارك وتعالى وفي طاعته . أما إذا كانوا في نظرهم إليه سلبيين ، كانوا عند الله جلت عظمتة من الخاسرين .

أما بقية الآية ، قوله تعالى : { إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } فالرمز فيها هو وعده لأهله إذ يحاول دعوتهم وإفهامهم الحقيقة التي صار إليها ، وخلاصتها دعوتهم إلى الله ، { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } . سورة فصلت الآية 33 { فإذا الرمز فيها وعد أهله إذا هم تفهموا وأطاعوا بنجاتهم من الشرك الظاهر والشرك الخفي وسعادة الدارين .

أما قوله تبارك وتعالى : { فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. } سورة طه الآية 11 { فقله تعالى : { نُودِيَ } ظاهرها النداء الذي هو برفع الصوت عادة . قيل إن إعرابياً سأل رسول الله محمداً (ص) يا رسول الله ربنا بعيد فنناديه أم قريب فنناديه ؟ فسكت محمداً (ص) ونزلت الآية الكريمة : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي .. } سورة البقرة الآية 186 { أي هي المناجاة لله تبارك وتعالى ، وليست المناداة . وحيث أن الله سبحانه أخبر أنه أقرب للإنسان من حبل وريده ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، هو سبحانه أقرب للعبد الصالح حيث يكون العبد في مقام القرب من ربه عز وجل ، فإذا لا ضرورة ولا حاجة للنداء برفع الصوت ، ولذلك ، فكلمة { نُودِيَ } في الآية الكريمة ، مشتقة من نادى التي تفيد المشاركة وهي حديث أهل النادي ، حيث يكونون قريبين من بعضهم ، وعادة يكون فيه الود والتصافي .

{ نُودِيَ يَامُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } لا بد أن يكون الله تبارك وتعالى قد تولّى موسى أو العبد الصالح برعايته وعنايته فترة من الزمن تمرّ فيها نفس العبد الصالح بتجليات رموز قول الله تبارك وتعالى : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلَاكِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . سورة النور الآية 35 { . وقد شرحنا رموزها في كتابنا " مفتاح المعرفة " الجزء الأول .

حتى إذا أصبحت نفس العبد الصالح كأنها كوكب دريٌّ في صفاء نوره وقوة إشعاعه ، ونقائه كلياً من أدنى شائبة تعكّر صفو التوحيد وصدق التوحيد ، أدخلها سبحانه في طمطم يم وحدانيته ، حيث تصبح صالحة للسمع ووعي ما يريد الله منها جلّت عظمتة .

وقوله تعالى { **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ** } والعبد الصالح في الحال الذي ذكرت يغيب عن حدود بدنه وعن حدود نفسه ، وليس إلا خضم النور الذي تضحلُّ دونه الأكوان .

تستذكر هذا الدعاء وهذا النداء : " يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة ، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة " تستذكر هذه المعاني ، إذ ترى هذه الأنوار وترى فيها نفسك بلا تحديد وبلا حدود : نور من نفس هذا النور في نفس هذا النور اللانهائي بحراً أو يماً أو خضماً . أيُّ حجاب هذا الذي نودي موسى أو ينادى من خلاله العبد الصالح : { **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** } وما هما هذان النعلان اللذان يؤمر العبد الصالح بخلعهما في هذه المرحلة النورانية الرائقة في بطنان الخضم ، المتألقة المشعة الوهاجة ببريقٍ فضي يكاد يخطف الأبصار في لانهاياته ؟ .

ماذا قيل في النعلين :

قيل في النعلين ، أن تأويلهما الدنيا والآخرة ، قالها ابن عربي وربما غيره من المتصوفين وبعض السالكين من أهل العرفان . والحقيقة ليست كذلك ، لأن الإنخلاع من الدنيا والآخرة هو براءة من الله جلّت عظمتة . إذ يستحيل على الإنسان أن يخلع الزمان والمكان ، حتى أن ينخلع من النور إذا تحوّل إلى حالة نورانية . الله وحده فوق الزمان والمكان يغمرهما .

صحيح أن بعض الربانيين أو المتألهين ، يعبرون عن حبهم لله جل وعلا ، وعن شوقهم إليه ، وعن ولههم به وتعلقهم بمحبته سبحانه ، بعبارات تنم عن استغنائهم بذاته عن الدنيا والآخرة ، وعن مغرياتهما ، وعما فيهما من عناصر الجذب بين مالٍ وجمالٍ ومتعٍ مشروعة ، وحتى عن زهدهم بعطاءات الآخرة رغم إغراءاتها وعظائم ما فيها من الوعود الجميلة الجليلة . وذلك لأن الله تبارك وتعالى عندهم أحب وأجل وأجمل وأعظم بلا قياس . بحيث تصغر مع محبته كل جمالات الوجود وعظائمه ، وهذه حقيقة لا مرأى فيها ولا جدال . إلا أن الإنسان مهما فني عشقاً وذاب حباً بالله سبحانه ، فإنه يبقى غير الله ، سواء تحوّل إلى نور خالص أو استمر من لحم ودم .

وهذه أبيات لرابعة العدوية نذكرها كنمط عن التعبير عن الحب الإلهي ، ورابعة هذه ، رضوان الله عليها ، اشتهرت بعفتها وصلاحتها ، وانقطاعها عن الدنيا وتفرغها لعبادة الله وفهم توحيده من خلال التفكير والتأمل وتدبر القرآن الكريم .

قالت :

عرفت الهوى مذ عرفت هواك	وأغلقت قلبي على من عداكا
وقمت أناجيك يا من ترى	خفايا القلوب ولسنا نراكا
أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا
وقلنا من قصيدة ، هذه الأبيات (*) :	

لكنما الروح في أشواقها لغةً
حبّابةً فوق هذا العالمِ الحربِ
لهمَّ حبُّك لولاهُ سقطتُ على
حضارةٍ بُنيَتْ للنارِ والخطبِ
به نَجَوْتُ ومثل النسر طائفةً
سفينتي فوق أمواجٍ من اللهبِ
مُدَّ شَفَّ قلبي أعلنني إلى أفقٍ
أبهى من المشتهى في سابع الحجبِ
أقفلتُ قلبي ما أبغي سواك به
أنساً ، ولا لي في الدارين من أربِ
الحبِّ أنت ، وإذ حدَّقْتُ في كبدي
ترقرق النور بين الهدبِ والهدبِ
وراح يُترعُ روعي فانشيتُ بهِ
نشوانَ كالعطرِ حولَ الزنيقِ الرطبِ
ريّانَ كالنهرِ والوديانُ تسمعهُ
مؤالَ حبِّ يروُدُ الله عن كُتبِ

(*) ديوان النهر . من قصيدة : الله حب هو المرسل .

الحن بين الخاصة والعامة :

ونعود إلى قوله تعالى : { فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ } لنقرر بهداية من الله سبحانه ، أن المقصود بهما الحزن والغضب . ولقد ثبت بعد التحقق من مجمل آيات القرآن الكريم ، أن هناك إشارات فيه كثيرات ، تدل عن النهي عن الحزن للواصلين ، وليس للسالكين . وليس حزن يعقوب على ولده يوسف عليهما السلام ، دعوة من الله إلى الحزن ، وليس من الواجب اتخاذه قدوة ، بل لعلّ العكس هو الصحيح ، ولقد ذكرنا في مكان آخر ، البديل الأولى من الحزن والأحب إلى الله ، هو التسليم له سبحانه وحسن التوكل عليه ، ولا سيما بعد المقدمات التي كان خليقاً بـيعقوب (ع) أن يعتمدها (*) ، من مثل الرؤيا التي فيها وعد من الله واضح بجمعه بأولاده كلهم ، ثم سُجودهم كلهم لله بحضرة يوسف . وكان هو صدّقها ووصّى يوسف بصددّها ما أوصاه .

القرآن الكريم يدعو في عمقه إلى الفرح ، الله يدعو أنبياءه وأوليائه وعارفيه إلى الفرح ، أن يكون الله في قلوبهم ، يعني أن تكون قلوبهم غير حزينّة ، حيث يكون الله يكون المجد والحب والفرح .

أقصى ما في القرآن الكريم بين الحزن والفرح آية واحدة ، هي آية التوازن أو الاعتدال ، قوله تبارك وتعالى :

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . سورة الحديد الآيات (22 - 23) } .

فقله تبارك وتعالى { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } فيه نهى عن الأسى وهو الحزن ونهى عن الفرح الذي هو البطر في حالة تجاوز حدوده .

والحزن لون من ألوان الشقاء ، وقد نهى الله سبحانه عنه بوضوح في قوله تبارك وتعالى : { طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ . سورة طه الآيات (1 - 2) } .

(*) انظر كتابنا " مفتاح المعرفة للدخول في عالم العرفان الإسلامي " الجزء الأول .

ولقد نهى الله ورسوله وعامة المؤمنين عن الحزن في آيات عديدة نذكر منها ما يؤكد هذه الحقيقة . قوله تبارك وتعالى :

{ .. وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . سورة النحل الآية 127 } .

وقوله تبارك وتعالى :

{ .. فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ .. . سورة طه الآية 40 } .

وقوله تبارك وتعالى :

{ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيبًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْتَ مِنَ الْغَابِرِينَ . سورة العنكبوت الآية 33 } .

وقوله تبارك وتعالى :

{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . سورة آل عمران الآية 139 } .

وقوله تبارك وتعالى :

{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . سورة الأنعام الآية 33 } .

{ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . سورة لقمان الآية 23 } .

وأختم هذه الإشارات الواضحة بقوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . سورة فصلت الآيات (30 - 31) } .

وفي القرآن الكريم ، إضافة على النهي عن الحزن ، حضُّ على الفرح وندب إليه ، وشرطه أن يكون فرحاً بالحق ، فرحاً بالله وبكلام الله وبكتاب الله ، وبكل ما هو مرضي ومقبول عند الله تبارك وتعالى ، من مثل نصره وآلائه وأنعامه وبشائره ووعوده ، ما يتحقق منها على الأرض وفي الحياة الدنيا ، وما هو متوقع مرجو في الآخرة . قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . سورة يونس الآيات (57 - 58) } .

أما الفرح بلا إيمان ، والفرح بلا تقوى ، والفرح بلا وقار ، والفرح بغير التعبُّد والشكر لله جلَّتْ عظمتُه ، هو فرح بغير الحق ، وهذا الفرح هو شأن المغنين والراقصين واللاعبين والماجنين ومشاهديهم والمستمعين إليهم ، هذا فضلاً عن الفاحشين والفاحشات على أعلى مستويات الإعلام في بلادنا وفي العالم ، وذلك بين الشارع والتلفاز ، والفديو وعامة بؤر وأجهزة الرذيلة . هؤلاء ، هذه الجماهير الغفيرة ، هي إلى الجحيم ، وهذا وعيد الله لهم :

{ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ . ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ . سورة غافر الآيات (75 - 76) } .

أما أن النبيَّ محمداً (ص) بكى لموت ولده إبراهيم ، فهذا أمر طبيعي وبديهي ، وهو كان حزناً لساعته ، أو ليوومه ، أو في أقصى الأحوال لبضعة أيام معدودات . ولكن غير الطبيعي أن يتخذ حزن النبيَّ (ص) ذريعة لحزن طويل ، يصحبه أذى النفس وأذى للآخرين في أسرة الفاقد أو في المجتمع ، فضلاً عن أن الحزن الطويل ، قد يكون إثماً ، لما فيه من

معاني عدم الثقة بالله وعم التسليم لقضائه وعدم الرضى بحكمه ، ولو كان كل ذلك بشكل غير مقصود . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لوصايا الله تبارك وتعالى بعدم الحزن - كما أشرنا في الآيات الأنفة .

بين أبطال كربلاء وأبطال مؤتة :

أما موقف الحسين عليه السلام في كربلاء ، أو جملة مواقفه الشريفة ، فإن إظهاره الأسى والأسف فيها ، وبعض الحزن ، فكان ذلك دائماً لإلقاء الحجة على الآخرين ، ولإعتبار ، ولإلقاء الدروس المشرقة على أهل الظاهر . أما حقيقة الحسين عليه السلام ، وحقيقة قلبه ومشاعره ، فكانت السعادة بقرب لقاء ربّه عزّ وعلا ، ولقاء جده محمّد (ص) وأبيه علي وأمه فاطمة عليهما السلام وجميع الأحبة من أنصار الله وأحبائه الذين سبقوه إلى جوار الله والنعيم المقيم .

والإمام جعفر الصادق سلام الله عليه ، ليس أدري من جده الحسين (ع) ، حيث يقول الصادق في تفسيره آية { قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } . سورة الشعراء الآية 50 { : من أحسنّ بالبلاء في المحبة لم يكن محباً (أي لله عز وجل) ، بل من شاهد البلاء فيه لم يكن محباً . بل من لم يتلذذ بالبلاء في المحبة لم يكن محباً . ألا ترى السّحرة لما وردت عليهم شواهد أوائل المحبة كيف زالت عنهم حظوظهم ، وهان عليهم بذل أرواحهم في مشاهدة محبوبهم فقالوا : " لا ضير " .

وقال عليه السلام ، في تفسير الآية : { .. كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } . سورة الشعراء الآية 62 { قال : من كان في رعاية الحق وكلايته لا يؤثر عليه شيء من الأسباب ، ولا يهوله مخوفات الموارد لأنه في وقاية الحق وقبضته . ومن كان في المشاهدة والحضرة كيف يؤثر عليه ما منه يصدر وإليه يرد ؟ ألا ترى كيف حكى الله تعالى عن الكليم قوله :

{ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } .

ومن الأدلة المادية على سعادة الحسين عليه السلام باستشهاديه بين يدي الله عز وجل ، وبكل البلاءات التي شهدها ، والتي تصورها عن أهله وذويه بعد مصرعه الشريف ، حيث هم في رعاية الله وكلايته ، وفي حضرة وتدبيره ، ليجعل منهم للعالمين أبلغ عبرة ، وأرقى مدرسة فداء وبطولة في تاريخ البشرية . قلنا من أبلغ الأدلة على سعادة الحسين (ع)

وسعادة المستشهدين معه يوم كربلاء ، هو موقف أحد الأبطال من أتباعه وتلاميذه : برير الهمداني .

إذ ورد في السيرة الصحيحة ، أن بريراً كان واقفاً قرب زميل له من الأبطال أتباع الحسين (ع) ، المنتظرين دورهم في القتال والمبارزة ، وكانت المعركة دائرة في ذروتها ، بين الحسين عليه السلام وأنصاره على قتلهم من جهة ، وبين الكفرة الفجرة أعدائهم على كثرتهم الكاثرة من جهة أخرى ، وعلى ساح المعركة رؤوس تطيح وسيوف تقطر دماً وأيدي وأرجل تنقطع ، وصهيل خيل ، وعجيج وضجيج ، وإذا برير يغمز بيده جنب صاحبه ويمارحه ويضاحكه ، وصاحبه يقول : يا برير ماذا جرى لك والساعة ساعة جد ، انظر واتق الله ، قال برير : سبحان الله والحمد لله ، وما هم ؟ ونحن في عين الله وفي سبيله ، وما هي إلا ساعة نجاهد بها هؤلاء الكفار بسيوفنا ونقتل منهم ثم نُقتل ، ثم نعانق الحور العين .

الحسين عليه السلام أولى بهذه المعاني العالية ، والمشاعر السامية ، وتفهم الحقيقة الناصعة ، من برير الهمداني رضوان الله عليه ، فهو أستاذه وإمامه ، وإنما تعلم برير هذا الشرف ، وهذه الشجاعة النادرة ، والثبات أمام الموت ، والسعادة بالشهادة المرتقبة من إمامه العظيم ، سيد شباب أهل الجنة ، الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام .

في معركة " أحد " ، في بدايتها ، رسول الله (ص) امتشق سيفاً أمام ثلثة من أبطال المسلمين وقال - يحرضهم على القتال - من يأخذها السيف بحقه ؟ فاندفع الرجال كل يقول : أنا يا رسول الله .. إلا رجل مُعْلَم بعصاة حمراء حول رأسه ، قال وما حقه يا رسول الله ، قال (ص) : أن تضرب به حتى يلتوي . قال أنا لها يا رسول الله . فأخذه وشهره ، وأخذ يمشي به ويتبخر ، والتبخر أبلغ من الخيال . قال من كان من المسلمين ، يا رسول الله ، انظر إلى أبي دجانة - وهي كنية الرجل - إنه يمشي مشية يبغضها الله ورسوله كما قلت عن مشية الخيال . قال (ص) : " إلا في هذا الموقف " . أي موقف تحدي أعداء الله وإظهار البأس والقوة وشجاعة الأبطال .

وأبلى أبو دجانة ، كما هو مشهور ، بلاءً حسناً في أحد .

لو لم يكن أبو دجانة ، سعيداً بمواجهة الموت وقتال أعداء الله ، ما كان صدر منه ما صدر ، من صورة المقاتل السعيد بقاء ربه ، وقد ملأ حب الله والنخوة برديه .

وفي سيرة ابن هشام ، أن رسول الله (ص) أرسل سرية لقتال الروم في مؤتة ، وهي ناحية من نواحي الأردن . وأمر على السرية مولاة زيداً ، وأوصى أنه إن استشهد فالأمير

جعفر بن أبي طالب ، فإن استشهد فالأمير عبد الله بن رواحة ، شديد الحب كان لرسول الله (ص) بطلاً وشاعراً .

وصل المسلمون إلى مؤتة ، ووصلت نجدات إلى عسكر الروم تفوق المائة ألف جندي ، ووجد المسلمون أنفسهم ضمن خضم من الأعداء يفوقونهم أضعافاً مضاعفة عدة وعدداً . وإذ فوجيء المسلمون بذلك ، تشاور القادة ، بين أن يتراجعوا منسحبين ، وبين أن يبادروا القتال غير المتكافئ . فقرروا القتال على قاعدة إحدى الحسينيين : النصر أو الشهادة .

فاستشهد زيد ، وأخذ الراية جعفر ، فاستشهد وأخذ الراية عبد الله ، فاستشهد ، فانسحب ببقية العسكر خالد بن الوليد ...

ما دعانا إلى تذكّار هذه الواقعة ، أثران تركهما لنا جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، كل موقف منهما ، أو كل أثر ، يشكل في الحقيقة قيمة عالية في علم النفس ، ومعرفة حقائق ما تنطوي عليه الصدور المؤمنة من فروق بين درجات اليقين .

فأما الأثر الأول الذي تركه جعفر ، فبيتان من الشعر ، ارتجز بهما قبل الإندفاع إلى المعركة التي فيها الشهادة شبه المحتملة . قال :

طيبة وسائغ شرابها	ما أجمل الجنة واقترابها
عليّ إن لاقيتها ضرابها	والروم روم قطّعت أصلابها

واضح لناقد الشعر المختص ، أنه ليس في البيتين شاعرية شاعر ، فجعفر بن أبي طالب لم يكن شاعراً كعبد الله بن رواحة . وإنما كان عليه أن يقول شيئاً بحكم عادة الأبطال المميزين ، قبل المبارزة أو الإنخراط في المعركة . وإنما في البيتين أولاً ، المضمون ، وهو يعبر عن الشوق إلى الجنة ونعيمها من جهة ، ومن جهة ثانية وهو الأهم في مثل هذا الموقف ، هو استبشاره باقترابها ، يعني باقتراب استشهاده ، وعميق اعتقاده أنه بالشهادة يدخل الجنة . وفي وصفها المختصر - لضيق الوقت ودقة الموقف - (طيبة وسائغ شرابها) دلالة على حنين مستبطن إليها . ثم يعلن عداؤه لهؤلاء الروم ، الذين هم أعلنوا عداؤهم لرسول الله (ص) وللدين المجيد . ثانياً ، في الشكل ، فجعفر رضوان الله عليه ، اختار - وطبعاً بغير قصد - بحراً من بحور الشعر ، يجري في أذن السامع كجدول ماء عذب ، وهو الأكثر انسياباً في وقعه وتفعيلاته ، وحتى في القافية المرتاحة . فالمضمون كما قلنا ، يدل على شوق إلى الجنة وحنين ، والشكل ينم عن حالة نفسية هائلة هائلة فيما تصبو إليه من لقاء الله عز وجل ، غير مترددة ، ولا أثر فيها للخوف أو الجزع ، واضحة عندها الطريق

والنهاية الجميلة المشرفة ، إلا غضباً في البيت الثاني ، في ثنياه ، من الطبيعي جداً أنه غضب الله على أعداء الله . وفوق ذلك كله ، قيل في استشهاد جعفر ، كما نقل لنا التاريخ المحقق ، أقوال ، لا ينتهي عندها الإعجاب بتلك البطولة الفذة ، ورباطة الجأش والبسالة في أعلى مستوياتها . فقد قيل إنه ضرب على يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، حتى لا يهزم من خلفه ممن يقود من المسلمين ، ثم قطعت يساره بضربة ، فاعتنق الراية بكلتا اليدين المقطوعتين ، حتى طعن ، فتلقف الراية عبد الله بن رواحة . عندما حدّث رسول الله (ص) بحديث جعفر قال : : أبدل الله جعفرأً بجناحين يطير بهما في الجنة ، أو كما قال (ص) . فعرف جعفر بن أبي الطالب في التاريخ فيما بعد بجعفر ذي الجناحين ، أو بجعفر الطيار .

أما عبد الله بن رواحة ، ذلك البطل الشاعر ، والصحابي المرموق ، المميز بصدقه وصراحته ، وصفاء شعره وصدق مواقفه ، فقد أخذ الراية ثم تراجع قليلاً إلى فسحة في الميدان ، ليرتجز ، وليحفظ المقاتلون من حوله أرجوزته وينقلوها إلينا صافية بكامل صدقها وعميق دلالاتها . قال :

أقسمتُ يا نفسُ لتَنزِلَنَّهُ لتَنزِلَنَّ أو لَتُرْغَمَنَّ
ما لي أراكِ تَكْرهينَ الجنَّةَ قد طالما قد كنتِ مُطمِئِنَّةً
ما أنتِ إلَّا نُطفَةٌ في شَيْئِهِ

فأولاً ، في المضمون : عبد الله يخاطب نفسه ، يقسم عليها أن تنزل في المعركة الطاحنة ، التي قضت أمام عينيه على كبيرين في القادة ، شهيرين في البطولة ، ويبدو أن نفسه لا تطاوعه ، فهي ترى الهول والدماء ، وكثرة عدد الأعداء ، والنجادات التي ترفدهم . ثم باختصار شديد ، هو الموت الأحمر ، فففسه تمنع ، ولكن هو حرّض قومه في البداية على الثبات وعدم الانسحاب كما ذكرت السيرة ، فما به الآن يتردد ؟ لا ! (لتَنزِلَنَّ أو لَتُرْغَمَنَّ) هو مع نفسه في صراع أي صراع ، وجدال صعب أي جدال ، يعاتبها عتاباً مريراً : (ما لي أراكِ تَكْرهينَ الجنَّةَ) هو على يقين كذلك بالجنة والنعيم في جوار رب العالمين ، ولكن نفسه ما زالت نزاعة إلى الدنيا ، يتابع عتابها ، هنا الوعي يعمل بسرعة مذهلة ، ثبت ذلك في الأخبار ، وثبت في التجربة ، وثبت علمياً ، أنه في ساعات الهول والرعب والفرع ، يستحضر الإنسان في لحظة أو لحظات ، تقارير مطوّلة مفصلة عن نفسه وعن تاريخه ، وإذا تكلم ، فبكلمات قليلة جداً ، يستحضر معاني ومواقف طويلة جداً . هكذا ، أرجوزة عبد الله بن رواحة ، تستعرض الواقع والمستقبل ، ولا يفوتها الماضي ، يقول لنفسه مستمراً بالعتاب المريع : (قد طالما قد كنتِ مُطمِئِنَّةً) أي أخذت قسطك كفاية من الدنيا والراحة فيها والإطمئنان ، وهذا وقت الجد ، أعلى درجات الجد ، بذل النفس في سبيل الله ، وكما قيل : الجود بالنفس أقصى غاية الجود . هذا المعنى هو في أعماق عبد الله بن رواحة . ثم شتم نفسه أهانها ، انتصر عليها : (ما أنتِ إلَّا نُطفَةٌ في شَيْئِهِ) أي في شن وإلهاء هنا في القافية

هي هاء السكت . والشن هو السقاء البالي . حسم أمره وحزم قوّته ، ثم اندفع في أتون المعركة ، وظل يقاتل حتى أبلى البلاء الحسن ، ثم استشهد تحت ضربات السيوف وطعن الرماح . راضياً كذلك ، فرحاً بما صار إليه من صدق العزيمة وشرف القرار .

موقف عبد الله بن رواحة ، هو لون آخر من ألوان البطولة الفذة الفخمة ، فبعد أن ترك للعالم ، خارطة واضحة المعالم لحالته النفسية ، وصراعه معها ، توج ذلك كله بالوصول إلى الهدف النبيل ، إلى أقصى الغاية ، وهل هناك هدف أو غاية أعلى من مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ، عند الله تبارك وتعالى ، ومخلداً في النعيم المقيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء . المهم في النتيجة ، هو الانتصار على النفس ، فالإنتصار عليها هو الخطوة الأولى الصادقة ، لمتابعة الإنتصارات في الحياة العامة ، ولا سيما في المواقف الصعبة وأقصاها بذل هذه النفس رخيصة بين يدي عزة الله ، وهو بعد ذلك البديل الأعظم والأكرم والأرحم ، وبلا قياس ، فله سبحانه المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

كلا البطلين كان سعيداً في مواجهة الموت ، ما دام في سبيل الله ، مع فارق تبين بالمقارنة بين شعريهما . الحسين بن علي عليهما ، كان أكثر إدراكاً للسعادة في سره ، فنفس أبيه علي عليه السلام بين جنبيه ، وهو الذي ساعة ضُرب الضربة القاتلة بسيف ابن ملجم قال : فزتُ ورب الكعبة .

بين الغضب المقدّس وغير المقدّس :

ونعود إلى قوله تبارك وتعالى : { فاخلع نعليك } وقد قلنا أن المقصود بهما الحزن والغضب والله العالم . وكما تحدثنا عن الحزن انطلاقاً من القرآن الكريم مدعين الآيات بأمثلة من تاريخ أنصار الله الأبطال ، الأصفياء والأولياء . كذلك وب نفس هذه المنهجية نتحدث عن الغضب ، لأنها الأعلى في الموازين والمعايير .

قبل أن أشير إلى الآيات التي تنهي عن الغضب أو الغيظ أو التجبر ، وهي معانٍ متقاربة ، ينبغي أن أفصل بين الغضب المقدس الذي هو أمر تعبدية ، وهو غضب أنصار الله ومحبيه ، وبين الغضب غير المقدس وهو الذي يضر بصاحبه وقد يعاقب عليه .

أما الغضب المقدس ، فهو الغضب لله عز وجل ، ولدينه وكتابه ولجميع شعائره . والله سبحانه يمنح به قوة غير عادية ، رهناً بالمواقف وأنواعها .

ومن أمثلته التاريخية ، غضب علي عليه السلام ، واقتحامه الباب الموصد لحصن خيبر ، واقتلعه من مكانه ، ليتدفق منه جيش المسلمين ، بعد أن كان أعياهم لضخامته وصلابته .

ثم الكلام عنه عليه السلام ، وفي أكثر من موقف ، ولا سيما في ميادين القتال ، إذ كان يغضب لله ، فيكبر ويضرب ، فلا تخيب ضربته . أما إذا غضب لنفسه لسبب أو لآخر ، فإنه كان يحجم عن القتل ، فيسأل عن ذلك فيقول : إنما أقاتل غضباً لله وليس غضباً لنفسي .

وإذا كان الغضب المقدس ، أي الغضب لله ، مؤيداً منه سبحانه فلا بد أن يكون مباركاً ونافعاً لصاحبه ، في نفسه وبدنه ونتائجه . وليس كذلك الغضب الشخصي ، أي غضب الإنسان لنفسه ، فقد ورد أن الإنسان إذا غضب لغير الله ، يبدأ غضبه بشرارة يأخذ الشيطان بالنفخ عليها حتى تتأجج ، ما لم يكبح الإنسان غضبه ويعقلن موقفه .

ولمعالجة الغضب الشخصي طرق . بعضها مستفاد من دين الله سبحانه ، وهذا يؤجر عليه صاحبه في الدنيا والآخرة ، وبعضها مستفاد من رياضات هندية مثل اليوغا ، أو غير هندية ، كبعض التقاليد الشعبية .

أما ما هو ديني ، فهو ناجح حتماً ، وذلك معروف بالتطبيق والتجربة ، وأبرزه استحضار بعض آيات القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْكََاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ فبمجرد أن يستحضرها ويقولها الإنسان المغضب ، يروّح عنه ، وتهدأ نفسه ، ومنها قول لا قوة إلا بالله وتكرار ذلك ، أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومنها الإستغفار ، ومنها أن يقف الإنسان ، إذا كان سائراً ، أو يقعد إذا كان واقفاً ، أو يستلقي إذا كان قاعداً ، ومنها أن يمسّ رحماً من أرحامه ، إلى غير ذلك من أسباب اللجوء إلى الله تبارك وتعالى .

ولعله غني عن القول ، الحديث عن مدى أضرار الغضب ، سواء في التفاعلات النفسية أو البدنية ، أو في النتائج . فقد تقع الجرائم الخطيرة ، والكبيرة والصغيرة ، من جراء الغضب الذي لا يكبح أو لا يعالج في حينه . وسجلات المحاكم حافلة بالجرائم التي سببها الغضب . هذا ، فضلاً عما يتركه من آثار على القلب وعامة الجهاز العصبي ، من ندوب وتمزقات ، وفي بعض حالات تفاقمه قد يؤدي إلى الذبحة أو الموت كمدا .

والإنسان الغضوب ، غالباً ما يكون متوتراً ، أميل إلى العبوس والكآبة . مما ينغص علاقته بجميع من يحتك بهم ، من أسرته إلى المجتمع ، وبالتالي ينغص عليه أمر دنياه وأمر آخرته ، وذلك بما يركم على نفسه من آثار سلبية وآثام صغيرة وكبيرة .

وهذه آيات كريمات ، لها صلة وثيقة بهذا الموضوع ؛ قال تبارك وتعالى :

{ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . سورة الشورى الآيتان (36 - 37) } .

وقوله تبارك وتعالى :

{ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَكُنْ لَهُ دُونُ اللَّهِ مَوْلًى . أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَنَافِعِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . سورة آل عمران الآيات (133 - 136) } .

شرط سبحانه في هذه الآيات لكي تتم مغفرته للمتقين ، شروطاً ، أولها الإنفاق في سبيل الله على أي حال ، في العسر ما أمكن ، وفي اليسر مع التمكن ، وفي حالي الرضا وخلافه ، وثانيها كظم الغيظ ، وبمعناه لجم الغضب في ترجمة غضبه عملياً ، والعفو عمن ؟! عن الناس ، وهي كلمة فيها إطلاق ، يعني عن جميع الناس على اختلاف أحوالهم ، طبعاً يستثنى الغضب المقدس كما أسلفنا . وما دام أمر الله تبارك وتعالى هو بالعفو عن الناس ، فأصبح من الأولى العفو عن الأقربين أرحاماً وإخواناً في الله . أما قوله تعالى : { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } يعني كلما كانت درجة الإنفاق في سراء أو ضراء هي أحسن ، وكلما كانت درجة كظم الغيظ هي أفضل ، وكلما كان العفو عن الناس ولا سيما الأقربين هو بدرجة أعلى ، كان الثواب من الله تبارك وتعالى أجزل وأفضل .

أما بقية الآيات ، فواضح فيها فضل الله تبارك وتعالى في توسعة باب التوبة يذكر الله ويستغفرونه نادمين أشد الندامة على معاصيهم وذنوبهم ، وفي الندامة بكاء ، وفيها تمرغ الوجه على الأرض ذلاً بين يدي الله جلّت عظمته ، هؤلاء ، وإن لم يغفر لهم الناس إذا اطلعوا على سوء أعمالهم ، والناس غالباً أميل إلى التحكم والتجبر والقسوة ، وبالتالي لعدم الغفران . وشتان بين رحمة الله ورحمة الناس ، ولا قياس .

كان رسول الله (ص) يوماً يسير في صحابة له ، فشاهد امرأة تحمل طفلاً لها رضيعاً ، فاستوقف القوم وقال : أرايتم إلى هذه المرأة وطفلها . قالوا نعم يا رسول الله . قال : هل هي ملقية ولدها في النار ؟ قالوا : طبعاً لا يا رسول الله . قال : فوالذي نفسي بيده ، الله أرحم بعبده المؤمن من هذه المرأة بطفلها .

وكل متكبرٍ متجبّرٍ غضوبٌ . وقد ذم سبحانه المتكبرين المتجبرين الذين يجادلون في آيات الله ولا يعملون بها ، وأوعدهم جهنم . قال تبارك وتعالى :

{ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . سورة غافر الآية 35 } .

ولقد نهى رسوله (ص) عن التجبر وعما فيه من الكبر والغضب . وبنيه رسوله نهى عن هذه الصفات الذميمة في البشر ، كلّ مسلم ومسلمة . قال تبارك وتعالى مخاطباً محمداً (ص) :

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. . سورة ق الآية 45 } .

الله وحده الكبرياء في السماوات والأرض ، وله الجبروت وحده ، ولو أنه سبحانه حمد من تخلق بأخلاق الله ، وأمر الناس بالرحمة والعدل والإحسان والغفران والرفق والعفو عند المقدرة . قال سبحانه :

{ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . سورة الحشر الآية 23 } .

والناس بفطرتهم ينكرون على أي إنسان أن يكون جباراً غضوباً لا يرحم . لذلك قال الرجل الوثني لموسى عليه السلام لما غضب لنفسه وللذي من شيعته وأراد أن يبطش به :

{ .. إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ .. . سورة القصص الآية 19 } فكفّ موسى عليه السلام عن غضبه ، واعتذر واستغفر ، فكان نموذجاً صالحاً وقدوة حسنة لكل من تنفعه الذكرى ولمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قوله تعالى :

{ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ . فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ .
وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مَنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ
. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ . يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَّاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ . سورة
ق الآيات (37 - 45) { .

يبقى أن نذكر أنه من غضب لقيمة أو لمنقبة أو لشيمة من الشيم من مثل كرامة
الإنسان أو عرضه أو ملكه ، فقد غضب الله ، لأن هذه الأمور وشبهاتها ، هي مما حفظه الله
لعباده وأمر بالحفاظ عليه كحقوق شرعية مقدسة .

والحقيقة أن الله تعالى أمر بالحلم لأنه نقيض الغضب ، وحبب الحلم وكره الغضب
. قال سبحانه يثني على نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . سورة هود الآية 75 } .

وقال سبحانه واصفاً الغلام الذي وعده به بعد عمره الطويل وصبره الجميل ، بأنه
غلام حلیم ، مما يشعر بأن هذه الصفة هي من أعلى المناقب التي يتفرع منها الكثير من
الصفات العالية والمكرمات ، على أن كلمة " حلیم " هي من جهة ضد الغضب وهي في
نفس الوقت - ما دامت كذلك - فهي تعني العقل والذكاء . قال تعالى :

{ فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . سورة الصافات الآية 101 } .

ورغم أن الحلم منقبة عالية كما أسلفنا ، إلا أنه في مواجهة ما يمسُّ حقوق الله الذاتية
أو حقوق عباده الشخصية ، فجدير بالحلم أن ينقلب إلى غضب مقدس . وفي رأس حقوق
العباد متداخلة في حق الله جلَّتْ عظمتُه ، حق الأمة ، حقها في الحفاظ عليها ، في إعلاء
شأنها ، وفي حفظ دستورها القرآن والعمل به ، وفي نصرتها وقتال أعدائها بالغالي والنفيس
.

كانت بين علي عليه السلام وبين معاوية ، خلافات تاريخية ليس أكبر منها حجماً
بمقياس ما بين الحق والباطل ، فنكل معاوية وغدر وخان ، وأعدَّ لحرب علي (ع) فوجد
علي (ع) نفسه مكرهاً مضطراً يُعدُّ بالمقابل لحربه . وفي هذه الأثناء ، وردت أخبار ، أن
ملك الروم ، يُعدُّ كذلك لغزو المسلمين في بلادهم فقال علي (ع) وهو في العراق ، وملك
الروم يريد بلاد الشام حيث معاوية . قال عليه السلام ، والله لو صدق الخبر ، وصدق ابن

الأصفر ، لوضعت يدي في يد معاوية ، لنقاتله جميعاً ، وإلا توجّهت بجيشي وحدي لقتاله .
هذه غضبة لله مقدسة ، على مستوى الأمة .

عندما نزلت آيات أول سورة النور ، وفيها :

{ وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . سورة النور الآيات (6 - 7) }

وتلا رسول الله (ص) الآيات ، وفي مجلسه صحابة وفيهم الأحنف بن قيس ، وكان مشهوراً بالعقل والحلم ، وكان يقصده شيوخ القبائل في الجاهلية ، يتعلمون الحلم منه ، حتى بعث محمد (ص) فكان سيد الحلماء . ومع ذلك ظل العرب يضربون المثل بحلم الأحنف . قال أبو تمام يمدح المعتصم :

لك حكم لقمان وصورة يوسف في حلم أحنف في ذكاء إياس .

فهذا الأحنف الأستاذ في حلمه . لما سمع الآيات ، التي فيها لزوم الإشهاد على الزوجة إذا كانت تزني ، ولا شهود غير الزوج : قال وقد غضب : والله يا رسول الله لو رأيتهما بعيني هاتين ، لقطعتهما بسيفي هذا إرباً . فضج المسلمون في المجلس : أتعترض على رسول الله وآيات الله . فأسكتهم محمد (ص) وقال : أرايتم إلى الأحنف ، فوالذي نفسي بيده ، إني لأشدّ غيرة من الأحنف ، والله عز وجل أشدّ غيرة مني ومن الأحنف على نساء المسلمين . وإنما في فهمكم للآيتين لبس . أو كما قال . وشرح لهم الأمر ، وموجزة أنه قد يلجأ أزواج من الرجال مرضى في شرفهم وقلوبهم وأخلاقهم ويتهمون أزواجاً لهم افتراءً عليهن وظلماً . فيكون المخرج الشرعي الزائع في هكذا حال : الملاعنة كما حكم الله وأنزل وهو خير الحاكمين . أما ما قصده الأحنف فهو أن يراهما حقيقة بعينه فهذا شأن آخر ، ويؤخذ فيه في الشريعة - بعد التحقق من صدقه - بأحكام آخر ، ينصف فيها الزوج الغيور على عرضه .

وقبل الخلوص إلى الغاية من قوله تبارك وتعالى :

{ إخلع نعليك } نذكر بأن انتفاء الحزن كلياً من الإنسان في جميع أطواره أمر يكاد يكون مستحيلاً . ولو كان الخلاص منه دفعة واحدة ممكناً ، لتخلص من ذلك سيد البشر وأمير الأنبياء محمد (ص) . ولأنه (ص) لم يستطع ، أوليس بالإمكان التخلص منه دفعياً ، رأينا أن الله تبارك وتعالى يكرر عليه الوصايا بالنهي عنه : **{ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي**

ضَيِّقِ مِمَّا يَمْكُرُونَ { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } { وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ .. } { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ .. } إلى غيرها من الآيات الكريمة .

وكذلك الخلاص من الغضب ، ليس من السهل أن يكون أمراً دفعياً . وإنما الله سبحانه أراد أن يكون الخلاص منهما - أي الحزن والغضب - كما يبدو ، بالتدريج ، وبالرياضة الروحية ، وجعل ذلك أمراً تعديداً ، يرجي من ذلك رضاه ووجهه الكريم .

وأما الغاية القصوى من أمر الله تبارك وتعالى في قوله :

{ اِخْلَعْ نَعْلَيْكَ } فنجدها في أول الآية وفي مجمل الحكاية ، ابتداءً من قوله تعالى : { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } إلى قوله : { .. فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } .

أما بداية الآية ، فقوله عز وجل مخاطباً موسى - الذي سيكون رمزاً فيما بعد - : { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } ومهما قلنا في وقع هذا الخطاب وتأثيره على المخاطب ، ومدى فعله فيه ، في نفسه وروحه وعامة كيانه ، فكل لغات الأرض لا تستطيع أن تعبر تعبيراً ولو شبه كامل عن عظمة الموقف وأبعاده في نفس موسى (الرمز) وفي روحه وكيانه .

وفي معاني { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } ما يمكن أن يقال . ففي قوله عز وعلا { أَنِّي أَنَا } فيها حصر ، في فقه اللغة ، لا تحتل اللغة حصراً أقوى منه ، وبماذا ؟ بالربوبية . أي { أَنَا رَبُّكَ } ولا رب لك غيري في هذا الوجود ، وفوق هذا الوجود ، وحول هذا الوجود . وفيها الإشعار بالعظمة التي ليس فوقها ولا بعدها عظمة { إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } رب الأكوان ورب الخلائق الذي لا إله إلا هو . ففي سياق الآية ، في خطابه لموسى (ع) { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } . إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . سورة طه الآيات (13 - 14) . وفيها الإيناس والعطف والرحمة ، وكم كان بحاجة إلى كل ذلك موسى ، والدليل على ذلك مؤانسته سبحانه له بسؤاله ، { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى } وفيها ما لا ينتهي معه التأمل والتفكير ، بالعظمة والرحمة ، والجبروت والرافة وبأسمائه الحسنی التي لا تحد ولا تعد .

أما قوله تعالى : { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ } بعد الذي ذكرناه عن معناهما ، فقد أصبحت واضحة الغاية القصوى من خلعهما ، وهي التهيئة لنيل مقام القرب من الله تبارك وتعالى وعزاً وعلا . فبخلعهما يغدو كل شيء في الإنسان صاقياً طاهراً صالحاً للتلقي ، لتلقي الوحي ، لتلقي الهداية ، لتلقي النور المقدس ، ثم النور الأقدس . ثم ... ثم مقعد صدق في جوار الحبيب الأعظم في جوار الله ﷻ ، وهنالك الأنبياء والشهداء والصديقون ، وهنالك عليون وسدرة المنتهى .

لا يحمل خطابي غيري ولا يجيبني سواي :

ولعلَّ أجمل ما نقل عن موسى (ع) وخطاب الله له ، رواية عن الإمام الصادق عليه السلام ما يلي :

" قيل لموسى عليه السلام : كيف عرفت أن النداء هو نداء الحق ؟ فقال : لأنه أفناني وشمّلني ، وكأنَّ كل شعرة مني كانت مخاطباً من جميع الجهات ، وكأنها تعبّر عن نفسها بجواب . فلما شملتني أنوار الهيبة ، وأحاطت بي أنوار العزة والجبروت ، علمت أنني مخاطب من جهة الحق ، ولما كان أول الخطاب { إني } ثم بعده { أنا } ، علمت أنه ليس لأحد أن يخبر عن نفسه باللفظتين جميعاً متتابعاً إلا الحق . فأدهشت وكان هو محل الفناء ، فقلت : أنت أنت الذي لم تزل ولا تزال ، ليس لموسى معك مقام ، ولا له جراءة الكلام ، إلا أن تبقيه ببقائك ، وتنعته بنعتك ، فتكون أنت المخاطب ، والمخاطب جميعاً . فقال لا يحمل خطابي غيري ، ولا يجيبني سواي ، وأنا المتكلّم وأنا المكلم ، وأنت في الوسط شبح يقع بك محل الخطاب . "

دفاعاً عن معرفة الله :

هذه المنهجية التي ذكرناها منذ بداية بحثنا هذا ، في إصلاح النفس وترقيتها وارتفاعها عن سفساف الدنيا ومطامعها ، وحتى عن المطامع في الآخرة ، وأن يعرف الإنسانُ الله لذاته ، ويعبده لذاته ويحبه لذاته سبحانه وتعالى عما يشركون . هذه المنهجية لا تخدم " الأنا " فحسب ، كما ادّعى بعض الباحثين ⁽¹⁾ من الذين كتبوا في علم نفس الفرد وعلم نفس الأمة (!؟) وإن كنا لمسنا في ما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام فيما سمّاه " كتابا الصادق : حقائق التفسير القرآني ومصباح الشريعة " فوائد جمة ، وكنوزاً من تأويل بعض الآيات المتفرقات ، والخروج بهذا التأويل عن حديّة الحروف والعبارات . إلا أنه في مقدمة كتابه هذا ، يبدو تارة محكوماً بقوة اعتقاد العرفانيين والصوفيّين ، وتارة يشن عليهم حملات لا هوادة فيها ، متهماً إياهم ، كما أسلفنا ، بالأنانية والرهانية التي حرّمها الإسلام حيث أنها تعتزل الناس والمجتمع . ونحن إذ نقدّم نموذجاً من هجماته ، نذكّر أننا إذا كنا لم ننقل من إجابياته ، فلأننا محكومون تجاهه وتجاه أنفسنا بمضمون هذا الدعاء :

" اللهم ما كان من خير فهو منك لا حمد لي فيه ، وما عملت من سوء فقد حذرتنيه
لا عذر لي فيه ، اللهم إني أعوذ بك أن أتكل على ما لا حمد لي فيه ، أو أن آمن مما لا عذر
لي فيه".

وعلى هذا الأساس ، هذه عينة مما قاله في الصوفيين وأهل العرفان :

" المذهب الصوفي ، في ميدان القيم والجمال والمقدس ، مغرق في الذاتية . وسبق
أن شككنا في قدرته على أن يتعمم ، وعلى أن يقود المجتمع والمواطن ، وهو مذهب فرداني
، يدعي قدرته على تجاوز القانون الأخلاقي (!؟) والواجب والإلتزام الإجتماعي (!؟) . كما
أننا لا نستطيع قبول مذهب في المقدس والجمال والفضيلة أو القيمة يكون تجاوزاً للإجتماعي
وللأخلاقي نفسه بحجة أن الإنسان [الصوفي الفاضل] يبني لنفسه مجتمعاً أو يشرع أخلاقاً
وقيماً . "

ثم يتابع في الفقرة التي بعد هذه ، ويتعرض فيها للفلسفة العرفانية : " إن في هذه
الفلسفة ما هو مضاد للمجتمع . " ... (الفقرة الثالثة ص 45) .

والحقيقة في مقابل هذه الدعوى الظالمة ، نرى أكثر من كُتِبَ وحقق في تاريخ
المعرفة الإلهية والصوفية ، على أنهما استفادات من القرآن الكريم ، من عباراته وإشاراته
وأسراره ، في آيات كثيرات ، بسط معانيها رسول الله محمد (ص) للامة ، وأظهر بواطنها
لخاصته من أهل بيته وأصحابه ، على أن أكثر أسرارهم أودعها ابن عمه

(1) انظر افتراءاته في كتابه " حقائق التفسير القرآني ومصباح الشريعة " مؤسسة عز الدين - الطبعة
الأولى 1413 هـ - 1993 م .

وصهره علياً بن أبي طالب بإرشاد وتفضل من الله تبارك وتعالى ، ولا يختلف المسلمون في
صحة الحديث ، قوله (ص) : " أنا مدينة العلم وعلي بابها " ولا يكادون يختلفون في قول
علي (ع) " علمني رسول الله من العلم ألف باب يفتح لي من كل باب ألف باب . "

وكبار أهل العرفان وكبار الصوفيين . من الصادقين والصدّيقين ، ينسبون مناهجهم
وسلوكلهم الروحاني وتواصلهم الفكري ، بعلي بن أبي طالب عليه سلام الله ، تارة مباشرة ،
وتارة ، وهو الأرجح ، عبر أبنائه وأحفاده وعامة أهل بيت النبوة عليهم السلام .

وعلى هذا الأساس ، إذا كان علي بن أبي طالب (ع) هو الرمز وهو القدوة للصوفية
الحقة ولأهل العرفان الصدّيقين ، فمن ذا يجرو أن يقول أن علياً (ع) كان ذاتياً أو غير قيادي
كأشرف وأنبل ما تكون القيادة للأمة وللمجتمع ؟ وهو قد ملأ الدنيا ، في زمانه ، وشغل

الناس ، وما يزال . وكذلك القول في أولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، ولا سيما الحسين (ع) الذي ما زالت مواقفه في كربلاء ، تحرك الدنيا وتحرك الناس ، كلما هجعت الهمم ، واستباحت الحقوق ، وهيمن الظلم ، واستبد طاغية ، وتغطرس عدو ، فيكفي أن تحدّث عن الحسين وأهل بيته وأصحابه ، في آثارهم الكربلائية ، لتلهب مشاعر أهل الإيمان ، وتنفخ فيهم روح النخوة والثورة وصدق العزيمة والتزام على الشهادة في سبيل الله .

ثم الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام ، الذي اخترق المجتمع الظالم الكابي في عهد بني أمية قتلة أبيه ، الذين تنكروا لله عزت وعظمتها وكتاب الله المجيد ، وحولوا الخلافة إلى ملك عضوض ، لا يميزه عن جوهر الوثنية والجاهلية إلا الاسم الذي هو الإسلام وشكلياته من أذان وصلاة أفرغوها من قدسيّتها وغالباً ما كانوا يؤمنون الناس بها مخمورين . فالإمام زين العابدين عليه السلام اخترق هذا الترس الماكن المتكالب على جيف الدنيا ، بأسلوب أدبي راقٍ ، مجدداً الدعوة إلى الله ، بأبهى حلة من القول ، وأزهى أسلوب ، وأروع مناجاة عرفها تاريخ الدعاء ، منذ مزامير النبي داود عليه السلام وربما إلى قيام الساعة ، حتى إنه ليدعى بحق شاعر الله . حيث ترك للأمة الإسلامية ولجميع المؤمنين من شتى الملل ، تراثاً ، أو قل كنوزاً من الدعاء والإبتهال ، مشحونة بالروحانيات ، وبمفهوم التوحيد الذي جعله محوراً أساساً لجميع أدعيته ومناجاته . مما ألف بين المؤمنين وجمع شملهم ، بعد أن كادت تعصف بهم رياح التفرقة والفساد ومكائد السلطان الغاشم .

وزين العابدين هذا ، عليه سلام الله ، كان من أبرع المؤسسين بعد جدّيه محمّد (ص) وعلي (ع) وأبيه الحسين (ع) لعلم العرفان أو فلسفة العرفان ، أو المعرفة الإلهية ، في جميع شؤون الحياة ، الأخلاقية منها ، والاجتماعية بأنواعها ، وحتى السياسية . وحتى كلامه عليه السلام في أدعيته ومناجاته كان له ظاهر تفهمه العامة وتستسيغه وتأنس به ، وتصلح به عقيدتها وعامة سلوكها . وباطن تفهمه الخاصة ، من الذين تفضل الله عليهم بأنواع أسرارهم ، من السرّ والسرّ والسرّ المستسر . وهذا نموذج مما ترك هذا الإمام النبيل علي بن الحسين (ع) مما يعتبر مثلاً متقدماً رائعاً مما يتوصل إليه أهل العرفان بفضل الله وعنايته ورعايته ، قال شعراً :

إنني لأكتم من علمي جواهره
كي لا يرى الحقّ ذو جهلٍ فيفتننا
وقد تقدّم في هذا أبو حسنٍ
إلى الحسين ووصى قبله الحسن
يا ربّ جوهر علمٍ لو أبوخُ به
لقل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجالٌ مسلمون دمي

يَرُونَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنًا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تناقضات في كتاب

هل نرى الله

للعامة الطهراني

تناقضات في كتاب هل نرى الله :

=====

وما زالوا يذهبون بعيداً عن القرآن المجيد ، عن كلام الله الحي القيوم الذي لا إله إلا هو ، إلى الفلسفة وعلم الكلام ، وكلاهما ما أنزل الله بهما من سلطان . بعد نزول التعاليم الإلهية وختمها بالقرآن .

قال تبارك وتعالى :

{ .. قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ .. . سورة سبأ الآية 23 } .

وقال تبارك وتعالى :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذُ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ

الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا
الْأَغْلَالَ فِي الْأَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة سبأ الآيات (31 - 33) { .

يلاحظ في هذه الأيام (ونحن في القرن الخامس عشر من الهجرة المباركة والواحد
والعشرين الميلادي) هجمة على ما يسمى بعلم العرفان الإسلامي ، وهي هجمة بانسة ،
باعتبارها أولاً ليس فيها من جديد يذكر ويتلاءم مع ما أوصل الله إليه العالم من العلم
والكشوف والأعاجيب في خلقه ، وثانياً أنهم يستخرجون ما ينشرونه بغزارة ، وبطريقة تبدو
فيها بقوة النزعة التجارية عند الناشرين ، وليس كما هو المفروض ، النزوع إلى معرفة الله
أكثر فأكثر ، ومن مصادره الصافية والتي أصفها على الإطلاق ، ذاته القدسية ، أمراً ناهياً
، مفهوماً الخاصة ، معلماً العامة ، في قرأته المجيد . بل يستخرجون هذا العلم مما تراكم في
بطون الكتب والمجلدات القديمة من الفلسفة اليونانية والرومانية ، ومما تداخل في كل ذلك
من علم الكلام مع الفلسفات القديمة مشرقية ومغربية .

أكتب هذا الآن ، وأنا خارج للتو من مطالعات مرهقة في مجلدات " الحكمة المتعالية
في الأسفار العقلية الأربعة " وبين يديّ كتاب " هل نرى الله " للعلامة الطهراني .
ويبدو بوضوح أن الكتاب متأثر كمعظم الكتابات العرفانية ، بأنماط الفلسفة التي في
الأسفار العقلية الأربعة ، كما أن هذه المجلدات من الأسفار متأثرة وبحدود قصوى بالفلسفات
الدخيلة على الإسلام .

وكتاب [" هل نرى الله " الطبعة الأولى - بيروت - 2001] انتشر انتشاراً سريعاً
وملفتاً بين الشباب المتعشق لكل جديد عن الإسلام ، ولا سيما عن معرفة الله عزت عظمته
. وقد نقله إليّ أحد الطلبة الجامعيين ، وهو صديق محب لله تعالى ولدينه الحنيف ، معروف
بالاتزان وعدم التعقيد ، وإنما بدا لي مع هذا الكتاب ، وبعد أن طالعه ، وفي وجهه وعينيهِ
الكثير من علامات التعجب والإستفهام ، يخالطها مسحة من الخوف والحيرة . وإذ اطلعت
على الكتاب ، عرفت السبب وبطل مني العجب .

وقبل أن أبدأ بعرض ما يناقش في الكتاب ، أريد وبفضل منه تعالى وبإذنه ، أن
أعرّف عن نفسي هذه التي تفضل عليها ربي وأخرجها من الظلمات إلى النور ، وإلى نور
على نور ...

وحقيقة الأمر ، أن الله تبارك وتعالى جنّبنني فوضى التعلم من المعلمين غير
الأصيلين ، وألجأني إليه وحده سبحانه مستقلاً عن الآخرين ، بعد أن جعلني على بينة من
أمري ، مدخلاً إياي في منازل النور ، فيما يقال وفيما لا يقال . وقد ألمحت في بعض شرائح

كتبني على بعض فضله ومننه وآلئه عليّ . وقد جنبني الإنفعال الغضبي ، وقواني في روعي ونفسي ، ليطلعني على الأرقى والأنقى من الحقائق ، نصاً وروحاً فيما يدور حول معرفته سبحانه ، وذلك في كتابيه العظيمين : القرآن والكون ، وبين القرآن والكون ، سنة خاتم النبيين محمد وآله الأطهار الميامين .

ومن أنواع قوته سبحانه التي قواني بها ، أن جنبني ظلمات المعلمين غير المجتبيين ، والخلاص من فوضى أتباعهم ومقلديهم ، تحت عناوين الفلاسفة والحكماء والمتكلمين . ليرفع بما يعلمني سبحانه من يشاء من عباد الصالحين ، من بؤر التقليد والعبث والانحراف عن صراطه في داري الدنيا والآخرة .

وهذا نمط من اختلاف آراء وأقوال فلاسفة كبار وحكماء وعلماء كلام : فقد ورد في " كتاب الحكمة المتعالية " هذه العبارة : [وكذلك الحال في أكثر التعريفات الحقيقية للأشياء كتعريف الحيوان بأنه الجسم الذي من شأنه أن يحسّ ويتحرك وتعريف الإنسان بأنه الحيوان الذي من شأنه أن يدرك الكليات أي يتعلل المعاني الكلية ويتصورها] (1) .

(1) المجلد السادس ص 16 الطبعة الثالثة 1981 دار إحياء التراث العربي - بيروت .

هذه التعريفات ، أصبحت من المضحكات للتلاميذ في الصفوف المتوسطة ، في عصرنا هذا ، عصر فلق الذرة . ومع ذلك ما زالت هي هي تدرّس في حوزاتنا الدينية في مادة المنطق ، وهي في معظمها مأخوذة من منطق أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ، أيام تعدد الآلهة .

فاليوم أصبح بين الكتابيين العظيمين : القرآن والكون ، كل شيء يحس ويتحرك . أما في القرآن المجيد ، قوله تبارك وتعالى :

(1) - { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيماً غَفُوراً . سورة الإسراء 44 } .

وقوله تبارك وتعالى :

(2) - { أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . سورة النور الآية 41 } .

وقوله تبارك وتعالى :

(3) - { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . سورة [الحديد + الحشر + الصف] الآية 1 } .

وقوله تبارك وتعالى :

(4) - { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ . سورة الرعد الآية 13 } .

وقوله تبارك وتعالى :

(5) - { إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ . سورة ص الآية 18 } .

وقبل أن أتشرّف بالإلفات إلى المضامين الحقيقية للآيات الكريمة ، أريد أن أثبت نماذج كذلك من المنطق الذي ما زال يدرّس في الحوزات الدينية ، بعد أن أصبح معظم ما فيه في وادي القديم البالي ، وأصبح ما فتح وما يفتح الله تبارك وتعالى على عباده من العلم المتسارع المذهل في قمم عالية ، تفسّر مغلفات القرآن وتفسّر لها مغلفات القرآن . ويبقى القرآن هو القول الفصل الذي ليس فوقه فوق دون منازع .

ورد في كتاب المنطق المفروض على طلبة العلوم الدينية ما يلي ، وذلك تحت عنوان الكليات الخمسة (1)(2) :

" وقد يسأل السائل عن الإنسان والفرس والقرد (ما هي ؟)

" وقد يسأل السائل عن الإنسان فقط (ما هو ؟)

" لاحظ أن الكليات هي المسؤول عنها هذه المرة ! فماذا ترى

" ينبغي أن يكون الجواب عن كل من السؤالين ؟ - نقول : أما

" الأول فهو سؤال عن كليات مختلفة الحقائق ، فيجيب عنه بتمام

" الحقيقة المشتركة بينها ، وهو الجنس ، فنقول في المثال : (حيوان)

" وأما الثاني ، فهو سؤال بما هو عن كلي واحد . وحق الجواب

" الصحيح الكامل أن نقول في المثال : (حيوان ناطق)

وقبل هذا ص 79

" أنه إذا كان الإنسان يساوي الناطق فإن لا إنسان يساوي لا ناطق " .

ويلاحظ القارىء مدى التقارب بين هذا المنطق وبين نظرية دارون في النشوء والإرتقاء ، والتي ثار عليها هؤلاء العلماء ، واضعوا هذا المنطق ، لأنهم لم يرضوا أبداً أن يكون جدّهم قرد وهم بهذا الجانب محقون . فكيف إذا يناقضون أنفسهم بهذا الوضوح ؟

ثم إنهم يعارضون كتاب الله تبارك وتعالى ، فانظر كيف أخذهم منطق أرسطو وغيره من مناطق وفلاسفة بعيداً جداً عن قرآنهم المجيد ، وهو بين أيديهم ، يتلونه ويقدمونه !!

وهكذا ففي منطقهم أن الإنسان والفرس والقرد ، حيوانات وأن الإنسان وحده حيوان ناطق .

بينما في القرآن الكريم ، الهدد ، يخاطب سليمان (ع) ويتحداه { .. أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . سورة النمل الآية 22 } . ويذهب ويجيء واعياً

(1) كتاب المنطق - تأليف العلامة المظفر . الطبعة الثالثة - المجلد (1-3) . مطبعة النعمان . النجف الأشرف . السنة 1388 هـ 1968 م .
(2) ص 85 و 86 .

عاقلاً مفكراً ناطقاً كأحسن ما يكون النطق . وظاهر القرآن حجة على جميع خلقه ، وبعد الظاهر ، فليتأول ما يشاء المتأولون . وكذلك النملة إذ تخاطب قومها : { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . سورة النمل الآيات (18 - 19) } .

ويجب أن لا ننسى كذلك قوله تعالى :

{ قَالَ عَفْرِتٌ مِنْ الْجِنِّ { وَ { فَدَاثَةُ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. } و { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ { .

وتحت عنوان : الفصل . ورد ما يلي :

" فإذا رأينا شبحاً من بعيد وعرفنا أنه حيوان وجهلنا خصوصيته
" فبطبيعتنا نسأل (إلى أن يقول) والجواب عن الأول (ناطق)
" وهو فصل الإنسان أو (صاهل) وهو فصل الفرس . وعن

" الثاني (حساس) مثلاً وهو فصل الحيوان⁽¹⁾ . "

وفي مكان آخر من نفس الكتاب ، نكتفي بهذا النموذج من النماذج الكثيرة المفتونة بالفلسفة بعيداً عن النصوص الإلهية ، من مثل أنه حتى الله لا يقدر أن يجمع النقيضين ، وقد عالجنا هذا الموضوع الخطير في كتابنا (العقل الإسلامي) وغيره وغيره كثير . يقول في صفحة 76 :

" (نسبة التساوي) : وتكون بين المفهومين اللذين يشتركان في تمام أفرادهما ، كالإنسان والضاحك ، فإن كل إنسان ضاحك وكل ضاحك إنسان⁽²⁾ . "

ثم في الصفحة 77 :

(1) نفس المصدر ص 86 و 87 .

(2) نفس المصدر .

" (نسبة العموم والخصوص) وتكون بين المفهومين اللذين يصدق أحدهما على جميع ما يصدق عليه الآخر وعلى غيره . ويقال للأول : (الأعم مطلقاً) ، وللثاني (الأخص مطلقاً) كالحيوان والإنسان والمعدن والفضة ، فكل ما صدق عليه الإنسان يصدق على الحيوان ولا عكس⁽¹⁾ . "

فقوله كل إنسان ضاحك وكل ضاحك إنسان ، صحيح في أن كل إنسان ضاحك ، وليس صحيحاً في كل ضاحك أنه إنسان ففي لغة العرب ، يقولون ضحكت الأرنب وضحكت الضبع أي حاضت ، وقد ورد ذلك في أشعارهم . هذا إلى جانب قولهم ضحكت المرأة أي حاضت . وقد فسّروا قوله تعالى { .. فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقٍ .. } أي حاضت⁽²⁾ .

ويلاحظ في القسم الثاني من هذا النموذج تحت عنوان (نسبة العموم والخصوص) ، وكذلك في بقية النماذج الأنفة ، مدى الإصرار على عدم الفصل بين الإنسان والحيوان . وعلى الإصرار في نفس الوقت على الفصل بين الإنسان والحيوان من جهة وبقية خلق الله من جهة ثانية ، فلماذا لا تكون الملائكة أناساً - بحكم هذا المنطق - وهي ناطقة ، ولماذا لا يكون الجن كذلك وهم ينطقون ويتكلمون ويسمعون القرآن ويبلغون قومهم بأفصح النطق وأبلغ الكلام . ولماذا لا يكون الطير وأنواع الحيوان كذلك أناساً وقد أثبت الله عز وجل كونها ذوات لغات أطلع عليها وأفهمها بعض أنبيائه عليهم السلام ، ولماذا لا تكون كذلك الأشياء

أناساً بحكم هذا النطق ، وقد ثبت في كلام الله تبارك وتعالى وهو أصدق المصادر على الإطلاق ، وهو المعيار ، وفيه القول الفصل ، وقد ثبت فيه أن الأشياء تسبّح مدركة واعية ناطقة { .. كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. } كل في درجته من سلّم الخلق وبالتالي من سلّم الوعي والإدراك .

وكذلك كما رأينا في أحد نماذج كتاب المنطق الأنف الذكر قد حصر الإحساس في الحيوان قوله ص 87 : " والثاني (حساس) مثلاً وهو فصل الحيوان . يريد بالفصل أن ما دون الحيوان من نبات وحجر وحديد وغير ذلك مما تعارفوا على تسميتها بالجمادات أنها دون إحساس . وقد أثبت الله تعالى كذلك في القرآن الكريم أن الجمادات ، لها إرادة نسبية وحس نسبي لا يعلم مداه إلا الله تبارك وتعالى ، قال سبحانه : { .. فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَبْقُضَ .. سورة الكهف الآية 77 } وقال تعالى :

- (1) نفس المصدر .
- (2) أنظر باب ضحك . لسان العرب لابن منظور المجلد العاشر . دار صادر - بيروت .

{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . سورة فصلت الآية 11 } .

ولقد أثبت العلم لغة للنبات تحت (بوقال) زجاجي معزول عن الأصوات الخارجية ، وضع فيه جهازاً للتسمع يلتقط ما تحت مستوى الصوت . وكانت المفاجأة : أن النبات يتكلم . ولغة أخرى ، عند حيوان البحر ذلك الذكي ، الدرفيل .

قال تبارك وتعالى : { وَقَالُوا أَنِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا . سورة الإسراء الآيات (49 - 51) } .

والحقيقة أن هذا تصوّر مما يخطر في بال من يتأمل ، وقد قيل (ساعة تأمل أفضل من سنة عبادة) أن يصهر الإنسان في فرن حديد ، أو أناس كثيرون ، أو في أتون حجارة مما يصنع الكلس ، فلا يبقى من الإنسان خبر يذكر . ففي الحديد يصبح حديداً في سقف منزل أو في قطار ... وفي الكلس كما يرى القارئ ، إما في عمران المنازل أو غير ذلك ، ثم التحدي في الآية { أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. } { .. مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍ .. } { .. مَتَى هُوَ قُلَّ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } . و { عَسَى } القرآنية واجبة ليس فيها خلف ولا تردد .

كان الرد على عجب المتعجب في الماضي أصعب . أما اليوم ، فقد تبين بالعلم القطعي ، ، أن جميع المجسمات ذرية أو نووية ، ومنها هذا الإنسان وذلك الحديد أو الخشبة أو الحجر . وأن ذرات الحديد بمضامينها من النوى والبروتونات والألكترونات إلخ ... هي في حركة دائبة لا تتوقف ، حتى أنها لا تكف عن الإشعاع إلا عند درجة الصفر المطلق ، أي 273،1 تحت الصفر في الميزان المئوي (سنتيغراد) .

أما في القرآن ، فهي إضافة إلى ذلك واعية تسبّح بحمد ربها ، والناس لا يفقهون تسبيحها ، فإذا حصل الإمتزاج بين الإنسان وهو ذري وبين الحديد أو أي شيء آخر سيكون ذرياً قطعاً ، فسيبقى الحديد على حديدته ، أو أي شيء على شينيته ، وكذلك الإنسان على إنسانيته ، وكل صنف في حدود شخصيته ، ووحده الله عزت عظمته ،

وحده القادر على الفصل بين الأجناس ⁽¹⁾ وأوصافها ، وبكلمة كن فيكون .

ولا ننسين أن المَعُول على الأنفس بعد الموت . فبمجرد أن يموت إنسان ، تفارق نفسه بدنه . فيلبسها الله بدنأ كما يشاء عند بعثها ، قال تعالى :

{ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . سورة الأحقاف الآية 19 } وقال تبارك وتعالى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الزمر الآية 42 } .

فالأنفس يمسكها الله ويحفظها الله دون الأبدان التي تتحلل إلى عناصرها الأصلية ، أو يبقى بعضها محفوظاً مكرماً بإذنه تعالى وبحكمته ، حتى يقضي الله فيها قضاءه أو يرفعها إلى حيث يشاء ، كما رفع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

والأنفس لا يحتجزها حديد ولا حجر ولا أفران حامية . ويطلقها الله عندما يتوفاها ، أو يجعلها حيث يشاء في برزخها ، أو يرفعها إليه تبارك وتعالى ، وهو بكل شيء محيط وعلى كل شيء قدير .

(1) الشحنات التي في أجزاء الذرة لا تولد ولا تموت ولكن تبقى محفوظة .
ويحسن بنا كذلك هنا ، أن نذكر كلمة موجزة عن أصغر شحنة كهربائية موجودة في الطبيعة .
تلك هي التي أسموها الكوارك : Les Quarks ، وإلى سنة 1936 كان يظن الفيزيائيون أن
شحنة الإلكترون هي الأصغر في الكون وأنها الشحنة الأولية . وفي السنة 1936 اكتشف علماء
الفيزياء أن النوترونات والبروتونات مكونة من عناصر Particules اعتبروها الأصغر في
الوجود وسموها Quarks .
فتبين أن النوترون ليس هامداً أي Neutre كما كان متفقاً عليه عند الفيزيائيين .

عوداً إلى كتاب :

هل نرى الله ؟

يقول العلامة الطهراني في أول الكتاب تحت عنوان الله نور :

" قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ (إلى منزل قربه) مَنْ يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور الآية 35 } " .

وما بين هلالين بعد قوله تعالى : يهدي الله لنوره ، عبارة (إلى منزل قربه) هي
تعليق من العلامة ، صحيح لا نقاش فيه .

إلا أنه يتناقض مع قوله في الصفحة 11 حيث يقول بالحرف : " إِنَّ ذَاتَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
نور " (*) .

وهذا ليس صحيحاً ، لأنه تشبيه واضح ، حيث يتبادر لذهن القارئ أو السامع وبالضرورة ، النور المؤلف المتعارف لدى الناس . ثم ، وإن كان قصده كما سيظهر فيما بعد ، أنه نور غير الأنوار المعروفة ، فمهما أعطاه من صفات النورانية ، يبقى نوراً ، ولو كان بينه وبين بقية الأنوار مليارات الدرجات ، ومع ذلك يبقى متعارضاً مع قول الله { .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. } . سورة الشورى الآية 11 { وإن أدنى الأنوار المعروفة ، يوجد بينها وبين أرقى الأنوار المعروفة ، وأصفى الأنوار المتخيلة ، وأسمى أنوار التجلي ، شبه ومماثلة . يقول تعالى : { .. وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. } . سورة البقرة الآية 25 { سواء كان نوراً أو فاكهة أو أنواع الجمال المادي والمعنوي .

_____ (*) أنظر صورةً للصفحة التي فيها العبارة وكذلك صوراً لبعض الصفحات ذات العلاقة آخر كتابنا هذا .

وفوق النور المجلي للنور وغير النور ، لا بد أن يكون شيء أرقى من النور ، وأبهى وأجمل من أجمل الأنوار ، هو مرصود في قوله تبارك وتعالى :

{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ . سورة السجدة الآية 17 } .

فإذا كانت ألوان الجمال وروائع المشاهد والسعادات ، في الآخرة ، هي في واقع خفاء قبل قيام الساعة على جميع ما خلق الله من أنفس في السماوات والأرض ، حتى نفوس الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين ، فمن الأكثر بداهة أن تكون ذات الله تبارك وتعالى هي أخفى وأخفى على جميع خلقه . قال تعالى في كتابه الكريم { ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . سورة الأنعام الآيات (102 - 103) } .

وقال جلّت عظمته في قضية موسى (ع) وطلبه أن يرى الله سبحانه :

{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . سورة الأعراف الآية 143 } .

ومعلوم عند أهل اللغة أن لفظة { لَنْ } في قوله تعالى : { لَنْ تَرَانِي } هي للنفي القطعي . فالمعنى لن تراني إطلاقاً ، لا على الحقيقة المجردة ولا حتى بتجلي الذات . لأن تجلي الذات ، كما رأينا في الآية ، يدمر الجبل ويسويه بالأرض الصحراوية ، أي يفقده

جبليته ، ولو كان تجلي الذات لإنسان ، لأفناه وأفقده بشريته . والذي صَعَق موسى ليس تجلي الذات الإلهية ، وإنما الرهبة من تدمير الجبل وجعله قاعاً صفصفاً .

فكيف كان تجلي الله بذاته ، حتى جعل الجبل دكا ؟ فهل كان بقوة ذرية أو هيدروجينية أو نيوترونية أو أية طاقة هائلة مما ركبها الإنسان وأخرجه من المادة ؟ فإذا كان ذلك ، صحَّ أن نقول إنه تعالى نور في ذاته ، أي طاقة مميزة رهيبية ، فوق الأنوار المعروفة ، كما يقول أصحاب هذا الزعم . ولكن هل يملك أي نور متخيّل أو متصور ، هل يملك أن يكون عاقلاً وعادلاً وخلاقاً وخيراً محضاً ، ورحماناً ورحيماً ، وحليماً وكريماً ، وحنّاناً ومَنّاناً ، ومبدعاً السماوات وأفلاكها ، ونظام الذرة مكبراً في النظام الشمسي ، موسّعاً في أنظمة المجرات ، متعالياً في نظام السماوات ، متحجباً بحجب الجمال وحجب النور ، فعلاً لما يريد ، يقول للشيء كن فيكون ؟! ...

هل صحيح أن كل ما هو موجود هو الله ؟!

ورد في الكتاب المذكور " هل نرى الله " في الصفحة 13 السطر الرابع هذه العبارة : " كل ما هو موجود هو الله . "

ثم في الصفحة 18 ، ابتداءً من السطر الثامن ، يقول :

" لقد خلقنا الله عز وجل في أحسن تقويم ، وأودع فينا من جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا وجعل أنفسنا من الهبولى ."

ثم يتابع في نفس السياق : " ولم يجعل لنا حداً ولا حدوداً من جهة الإستعداد والقدرة على التقدم والتكامل والإرتقاء في سلم اليقين والوصول إلى العرفان والتوحيد ، والفناء في ذات الله المقدسة ." .

ثم يوقع نفسه في تناقض شديد ، حيث يستشهد بالتتابع بهذه الآيات الثلاث ، ص 48 :

{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ .. }

{ .. فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }.

{ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } .

فبعدما ثبت أن الشك في وجود الإنسان العياني ووجود عامة المخلوقات والأشياء ، سفه وسفسطة ، وأن الأدلة عن الوجود العياني لأفراد الكون ، لا تنتهي إبصاراً وإحساساً ومعاناة ، ما كنا مضطرين لإثبات ما هو ثابت ، وما هو موجود بديهية وعقلاً وشرعاً ، لولا أن بعض الكتاب والمتكلمين نفوا وجود الإنسان ووجود الحيوان ووجود عامة الموجودات جملة وتفصيلاً ، واعتبروا أن " كل ما هو موجود هو الله " وهي العبارة التي أشرنا إليها في الكتاب المنوه عنه ، وغيره من الكتب الفلسفية الدخيلة على تعاليم الله ورسله وأوليائه الصالحين .

ولو كانت هذه الكتب تزين بعض مقولاتها بين الحين والآخر ، بآيات من القرآن الكريم ، والقرآن كلام الله ، والفلسفة منطق المخلوقين .

ولنقارن بين هذه المقولة :

" كل ما هو موجود هو الله "

وبين قوله تبارك وتعالى :

{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ.. }

فإذا كان " كل موجود هو الله " فإن كل موجود تدركه الأبصار أي ببساطة هي تراه بحدوده الظاهرة ، وقد تفصّله تفصيلاً دقيقاً ، الإنسان يرى الحيوان ويصنّفه فصائل ، ويدرسه ، حتى أن الإنسان يدرس طبائع الحيوان من الحشرة ، بل من الخلية البسيطة المفردة في مياه البحار إلى الفيل وفرس النهر ، والحيوان يرى الإنسان ويألفه ويعطيه مما أودع الله فيه من منافع ، أو يستوحش منه ويظل بعيداً عنه في بحاره وأنهاره أو براريه وأجوائه . وكلا هذين المخلوقين يعرفان حدودهما وحدود الصخرة والشجرة والماء والهواء وطيب الطعام وخبثه ، فيقبلان على الأول ويجتنبان الآخر ، فإذا كان كل فرد من أفراد الإنسان أو الحيوان أو الأشياء هو الله ، فكيف يقول الله تعالى أنه { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ .. } وهذه آية في كتاب الله { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . سورة فصلت الآيات (41 - 42) } .

وهؤلاء الفلاسفة لا يريدون قطعاً ، أن يردُّوا القول على الله ، ولا أن يشككوا في كتابه المجيد ، ولكن تُغويهم الفلسفة وشياطين الفلسفة ، وتشطح بهم بعيداً عن الحقائق الإلهية فيقعون في الأوهام ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ولو كانت الفلسفة حقاً ، لما تناقض الفلاسفة وخطأ بعضهم بعضاً وانقسموا إلى أكثر من فرقة ، حتى طلع عليهم وما زال يطَّلَع من الملهمين ، من يطعن بأصل الفلسفة ، فيرمونها تارة بالسفسطة وتارة بالتهافت وتارة بأنها جنت على جوهر الإسلام أكثر مما جنته حملات الغزو البربرية .

وهذا نموذج من اختلاف الفلاسفة ، وتعدد آرائهم وتناقضها حول الحقيقة الواحدة :

فقد ورد في كتاب " الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة " وتحت عنوان (1) : " في ذكر اختلاف الناس في تحقق الجوهر الجسماني ونحو وجوده الذي يخصه . " ما يلي :

" فمن قائل من زعم أنه مركب من ذوات أوضاع جوهرية غير منقسمة أصلاً لا وهماً ولا فرضاً ولا قطعاً ولا كسراً ، وهؤلاء أيضاً تشعبوا إلى قائل بعدم تناهي الجواهر الفردة في كل جسم حتى الخردلة وهو النظام من المعتزلة وأصحابه .

وقائل إلى تناهيها وهم جمهور المتكلمين .

ومن قائل أنه متصل في نفسه .

فمن هؤلاء من ذهب إلى أنه يقبل الإنقسام بأقسامه لا إلى نهاية وهم جمهور الحكماء .

ومنهم من ذهب إلى أنه يقبل عدداً متناهياً ثم يؤدي إلى ما لا ينقسم أصلاً ، وهو صاحب كتاب الملل والنحل .

ومنهم من ذهب إلى أنه لا يقبل من الإنقسام إلا ما سوى الخارجي أعني الفك أو القطع لكون الجسم المفرد عنده صغيراً صلباً لا يقبل شيئاً منهما لصغره وصلابته وهو ذي مقراطيس من الفلاسفة المتقدمين .

والقائل بانقسامه لا إلى نهاية افترقوا ثلاث فرق ففرقة ذهبت إلى أنه جوهر بسيط هو الممتد في الجهات المتصل بنفسه اتصالاً مقدارياً جوهرياً قائماً بذاته وهو رأي أفلاطون الإلهي كما هو المشهور ومذهب شيعته المشهورين بالرواقيين ومن يحذو حذوهم وسلك منهاجهم كالشيخ الشهيد والحكيم السعيد شهاب الدين = يحي السهروردي في كتاب حكمة الإشراق. وفرقة إلى أنه جوهر مركب من جوهرين أحدهما صورة الاتصال والآخر الجوهر القابل لها وهم أصحاب المعلم الأول ومن يحذو حذوهم من حكماء الإسلام كالشيخين أبي نصر (يعني الفارابي) وأبي علي (يعني ابن سينا) . وفرقة إلى أنه

مركب لكن من جوهر قابل وعرض هو الاتصال المقداري وهو ما ذهب إليه الشيخ الإلهي في كتاب التلويحات اللوحية والعرشية وقد شنع عليه بعض الناظرين

(1) المجلد الخامس ص 16 و 17 - دار إحياء التراث العربي - بيروت . الطبعة الثالثة 1981.

في كتبه لما وجد تناقضاً بين كلاميه في هذين الكتابين حيث حكم ببساطة الجسم وجوهرية المقدار في أحدهما واختار أنه مركب من جوهر سمّاه هيولى وعرض هو المقدار بناءً على تجويزه تركب نوع واحد طبيعي من جوهر وعرض وبين الكلامين مخالفة بحسب الظاهر". انتهى كلام الحكيم الإلهي صدر الدين الشيرازي مؤلف الكتاب .

وما دام للفلسفة ، نفس قواعد المنطق والمصطلحات ، وطرق الاستنتاج والاستقراء ، التي تؤسس عليها وتنطلق منها ، فلماذا إذاً يتفرق أصحابها هذا التفرق المنكر ، حتى انقسموا إلى فلاسفة ماديين ملاحدة ، وآخرين مؤمنين إلهيين . ثم انقسم الماديون وتفرق الإلهيون ، بين ملين أتباع كتب منزلة ، وأتباع كتب غير منزلة ... إلى أن تلممت فلسفة ، فيها الكثير من أفكار الفلاسفة الإغريق مثل أرسطو وديمقريطس وأفلاطون الإلهي وغيرهم ، وألبست ثياباً إسلامية مطرزة ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ثم سميت فلسفة إسلامية .

وهذه الفلسفة الإسلامية ، كذلك ، دهيت بمزاعم منكرة ، كان من شأنها أن تنحرف بكل من يطلع عليها عن مضمون الإسلام ، إلا من تحصن بربه جلّت عظمته ، وبدينه الحنيف ، ومن أخطر هذه المزاعم ، أن الدين بفرائضه وعباداته المرسومة ، إنما وضع للعامة وليس للخاصة ، لأن الغاية من الدين ، هي أن يكون الإنسان مهذباً خلوقاً مستقيماً ، والعامة وحدهم بحاجة إلى هذه الصفات لأنهم جهلة ، أما أهل الخاصة فهم مثقفون متعلمون متحصنون بتربية صالحة وخلق قوي .

هذه المزاعم ، أدت بأكثر من اطلع عليها ، سواء كان مثقفاً أو غير مثقف ، إلى أن يعتبر نفسه . هو كذلك من أهل الخاصة ، فيتحلل من الفرائض والعبادات .

هذا نور ما يرى ! فأين نور ما لا يرى ؟

في كتاب " هل نرى الله " وفي أكثر من مكان فيه ، أمر يعتبر اليوم بديهية لأنها يساندها العلم ، وهي أن الأشياء وعامة الموجودات ، إنما ترى بواسطة النور أو الضوء الذي يحيط بها أو ينبعث منها ، كما ثبت أنه حتى في الليل الدامس ، وحتى في درجات الحرارة المتدنية جداً ، تنبعث من الأجسام أشعة تكشفها لبعض المناظير الخاصة ، والتي أصبحت من جملة أسلحة الحرب والقناتل في الأجواء المعتمدة .

والعلم اليوم يقول إن الفضاء الذي تسبح فيه سفن الفضاء ، هو في حقيقته كالحـد الفاصل بين نواة الذرة والكتروناتها ، وأن الحد الفاصل بين نواة الذرة والألـكترونات ، هو في حقيقته كالحـد الفاصل بين الشمس والكواكب السيارة . وهذه الفاصلة سواء كانت في الوحدة الذرية أم وجدت بين الشمس وبين الأرض أو الزهرة أو المريخ وغيره من الأجرام ، هي جزء من المادة . والدليل على ذلك أن الجاذبية تمر فيها ، وقوة الجاذبية لا تنفصل عن المادة ، ولا تنفصل المادة عنها .

وقد تعلمنا في الكيمياء أن الذرة لها عدة مستويات من الطاقة ، وأن كل مرة يمر فيها الألـكترون من مستوى طاقة إلى مستوى طاقة أدنى ، يسبب موجة ألـكترو-مغناطيسية .

هذه الموجات Les ondes electromagnetiques ، بعكس الموجات الميكانيكية ، لا تحتاج إلى وسط معدني لتنتشر فيه ، إذ بإمكانها أن تعبر الفراغ ، أي تنتشر في الفراغ ، وبنفس سرعة الضوء التي هي 300,000 كلم / ث . هذه السرعة ليست هي ذاتها في أوساط كثيفة أخرى .

ومما لا ريب فيه أن الجاذبية ليست أشعة . ومن المناسب هنا أن نذكر المغناطيس لنقول كلاماً موجزاً فيه ، وعن بعض الحقائق المعاصرة حوله .

- أصل المغنطة هي في مادة اللوديستون ، وأكثر ما توجد في معدن الحديد .

- المغناطيسية المتوازية في المواد غير المعدنية ، تتميز بتبعية درجة الحرارة . ذلك بأن العزم المغناطيسي ، ينخفض مع ارتفاع درجة الحرارة ، ويزيد بانخفاضها . هذه النتيجة تجعل الصعوبة متزايدة في الإنتفاع من العزم المغناطيسي . إضافة إلى ذلك فإن المواد المعدنية عندما تسخن ، تفقد صفاتها المغناطيسية كلياً في النهاية . هذه الخسارة تصبح كاملة فوق درجة حرارة كيوري - سميت باسم العالم الفرنسي بيار كيوري . درجة حرارة كيوري للحديد هي حوالي : 770 سنتغراد . وقد ثبت أن للمغطة في المواد الصلبة ترتيبات أكثر تعقيداً . وفي المادة بشكل عام (أي في الكون جملة وتفصيلاً) يوجد نوعان من الأيونات الحديدية ، كل نوع منهما بعزم مغناطيسي مختلف .

هذه التغيرات الحادة في الطاقة والمادة ، تطعن بقوة في زعم من يزعم " أن كل ما هو موجود هو الله " .

فلا قوى الجاذبية التي بين الذرة والكتروناتها ولا التي بين الشمس والكواكب وبالعكس ، هي الله ، وهي لا من الضوء ولا من النور ، ولا الجاذبية في كل أنحاء الكون هي الله ، لأنها تتغير ، تضعف وتقوى على كل كوكب على حدة ، وبين الأجرام السماوية عامة ، إذ تضعف حتى يظن أنها انعدمت ، وتقوى حتى ليصبح وزن الإنسان الذي على الأرض سبعون كيلو غراماً ، يغدو وزنه الآف الأطنان . يعني مغروساً كجبل من الهم ، على قلب و دماغ إنسان نتخيله معقلاً معاقباً في مكان هائل الجاذبية من هذا الكون . بينما هو يصبح على القمر مثلاً حوالي إثني عشر كيلو غراماً .

ولا الموجات الممغنطة التي تحدثنا عنها ، والتي يسببها قفز الألكترونات بأعدادها اللامتناهية ، هي الله ، لأنها تسرع في الفراغ (300,000 كلم/ث) وتبطيء في غيره حسب كثافة المادة .

ولا المغناطيس هو الله ، لأنه كما رأينا ، تعدمه الحرارة العالية ، وهو ينتشر في المادة بشكل عام ، بعزم مختلف متفاوت ضعفاً وقوة .

ثم إن هذه الموجودات التي ذكرناها ، والتي هندسها الله بقدرته التي لا تحاول ولا تطاول ، وبحساباته المعجزة ، والتي تكاد تكون ممسكة بمادة الكون ، بإذنه تعالى وبتدبيره ، من الجاذبية إلى الموجات الممغنطة الألكترونية إلى المغناطيس وأشباهاها ، إلى الإنسان الذكر والأنثى ، والأسود والأبيض .. والطفل والشاب والهرم ، الذي يولد ويتنامى ويموت . ويضحك ويبكي ، ويسعد ويتألم ، وتعتوره الأمراض والتحولات النفسية ، إما صاعداً وإما هابطاً ، وإما متأرجحاً بين الصعود والهبوط ، وباختصار شديد ، أوله نطفة وآخره جيفة . فكيف يتجرأ المتجرون على القول إن هذا الإنسان هو الله ؟! ...

كل شيء يتغير ويتحول باتجاه أن يموت ويفنى ، الحيوان والنبات والجمادات . حتى الحديد الذي فيه بأس شديد ، يصدأ ويتآكل ، وكذلك جميع المعادن . { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . سورة الرحمن الآيات (26 - 27) } هذا قول الله تبارك وتعالى { .. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا . سورة النساء الآية 122 } { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا . سورة النساء الآية 87 } . فكيف يذهبون بعيداً عن تعليم الله في قرآنه الكريم ، ويزعمون خلاف الحقيقة الناصعة ، التي هي وحدانيته وفردانيته وصمديته ، فيقولون بدون أي خوف ولا وجل " إن كل ما هو موجود هو الله " والله تبارك وتعالى يخاطبهم معلناً غيريته عن خلقه وتعالیه وعزته وعظمته وكبريائه ، وأنهم هم المخلوقون وهو الخالق لهم وللسموات وللأرض وما فيهن وما بينهن قائلاً جلت عظمته :

{ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا . سورة نوح الآيات (13 - 16) } .

وقوله جلّ جلاله الذي نختم به ردنا على مقولة " إن كل موجود هو الله " حيث لا تنتهي الأدلة على غيريته عن خلقه :

{ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . سورة الجاثية الآيات (36 - 37) } .

ثم نعود إلى موضوعنا : هذا نور ما يرى فأين نور ما لا يرى ؟! فنقول رداً على دعواهم أن الله تعالى هو في ذاته نور ، وأن كل شيء لكي يكون موجوداً ينبغي أن يكون إما منيراً بذاته أو أن يكون مضاء بالنور . نقول إن الله تبارك وتعالى خلق الكهرباء ، وقد ظلت كامنة لا يرى لها نور ولا تُرى هي في نور ، ظلت كذلك فاعلة عاملة في نواحي الكون ، ظلت من جملة القوى الهائلة العجيبة التي يحفظ الله بها وبقوى أخرى هائلة وعجيبة ، كما أَلْمَحْنَا ، يحفظ ويدير بها ويدبر خلقه وممالكه ، حتى شاء لحكمة منه أن يظهرها في عصرٍ كان في علمه وتدبيره عصر إظهارها ، فقيض لها رجلاً اسمه أديسون فكشف عنها النقاب والحجاب الأول ، ثم توالى بعده كشف الحجب عن أعاجيبها وأسرارها لتاريخه .

يحكى أنه يوم اكتشف أديسون الكهرباء ، وأقام الدنيا وأقعدھا أو أنها لم تقعد بعد ، بسبب هذه الثورة العلمية التي غيرت وجه التاريخ . وحرك الله بمشيئته بها المصانع والمعامل وشتى أنواع المحركات والقطارات ... وأضاء بها ليالي هذه الأرض .

حصلت إحدى الصحفيات الناشطات بعد انتظار على موعد مع صاحب هذا الحظ العظيم أديسون ، فزارته في معمله ، وأطلعها على أول محرك صنعه ليديره بقوة ضغط الماء ، وأكثر ما أدهشها أن أمسك بسلكين معدنيين مغلفين ، لا يظهر عليهما ولا فيهما أية حركة ولا حرارة ولا ضوء ، فيصلهما بقنديل كان مما جهزه ، فيضيء بسرعة وبدون عود ثقاب أو ما شابه . ثم يصلهما بقطعة معدن على فخّارة فتحمّر وتصبح كالجمره تتوهج بحرارة شديدة . هنا كان لا بدّ أن تسأل عن الشيء أو عن القوة التي تلد أو تولّد هذا الضوء وهذه النار الحامية . وهي لم تشاهد إلا محركاً وسلكين نحاسيين بين يديه . هو يومها احتار في الإجابة . وجلّ ما قال ، ما كان يعرفه ، أن هذه القوة هي التيار الكهربائي . Le courant électrique . قالت عرفت الاسم ولكن ما هو كنهه وحقيقة التيار الكهربائي ، فإنني أريد أن أشرح لقرائي ، وحيث أنه لم يكن يومذاك يعلم الكثير من الحقائق حول التيار ، طلب إليها أن تجلس على كرسي معدني كان في الغرفة ، ثم التفّ وعقد الشريطين بناحية من الكرسي وضغط على الزر المتصل بهما ، فقفزت هي عن الكرسي وقد قذفها التيار الكهربائي الخفيف ، فنظرت إلى أديسون وهي خائفة شاحبة اللون . فتبسم وقال : سيدتي هذا هو التيار الكهربائي ، فحدثني عنه قراءك كيف تشائين .

فدات التيار وكنهه وكينونته هي غير ما يلد من آثار النور أو الضوء والحرارة . هذه من جهة ومن جهة ثانية ، فإن الخلق غير الولادة . فأن نقول إن الإنسان خلق السيارة أو الطائرة بما علمه الله تعالى من قوانين وأسرار عن الطاقة والميكانيك ، هذا غير أن نقول إن الإنسان ولد السيارة . وبهذا التقريب نفهم كم هو الإنسان أعظم وأسمى وأجمل وأعلم بما لا يقاس من السيارة والطائرة والكمبيوتر وغير ذلك من المدهشات التي أتاحتها الله تعالى لخلقه .

وبنفس هذا التقريب كذلك ، ينبغي أن نفهم أن كل موجود خلقه الله ، هو غير الله ، من أعلى درجات النور الخفي الذي يظهر للعارفين بالله من أهل خاصته ، بالتجلي ، أو الإشهاد ، أو أعلى درجات النور المعروف تحت السماء الدنيا ، وحتى ولو بالتخيل أو بالتصور ، إلى آخر ما خلق سبحانه من أشياء في الأرض أو في السماوات مما يعقل ومما لا يعقل ، ومما يرى ومما لا يرى . سواء كان في النور الساطع ، أو في الظلام الدامس ، أو في غيب من غيوب علام الغيوب .

وهنا يجب أن يستوقفنا جمال وجلال وعمق قوله تبارك وتعالى :

{ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ }

هذا هو القول الفصل والحقيقة الحاسمة . وفيها أن خلقه للموجودات ، غير صدورها كأجزاء من ذاته القدسية ، وهو : { ليس كمثله شيء } جلّ عن ذلك { وسبحانه وتعالى عما يصفون } وأنه أجمل وأجل وأسمى وأعلى بدون قياس . { له المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . } المثل الأعلى الذي ليس مثله مثيل ، وليس فوقه فوق .

ولنبق قليلاً مع بعض أسرار الله تبارك وتعالى ، في هذه الطاقة المتنوعة العجيبة : الكهرباء ، ونحن ما زلنا تحت عنوان : هذا نور ما يرى فأين نور ما لا يرى ؟

فأنت تدخل إلى بيتك ، وقناديل الكهرباء مطفأة . وإنما تسمع الغسالة الأوتوماتيكية تعمل سواء أظهرها نور النهار أو غمرها ظلام الليل ، وكذلك المروحة ، وكذلك المصعد الكهربائي ، وكل أدوات الكهرباء التي ليست بحاجة إلى أن يظهرها النور ، ولا هي بحاجة إلى أن تُظهر النور .

ثم أين أنوار الملائكة يروحون ويحيئون بيننا في النهار وفي الليل . ما نراهم إلاّ بآثار تصدر عنهم ، إذا شاء الله لأحد أن يشعر بهذه الآثار ، أو إذا شاء تبارك وتعالى أن يريهم لأحد متمثلين أو متشكلين بأشخاص قوله تعالى { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } أو الملائكة الذين أتوا إبراهيم (ع) وجاءهم بطعام ، وهم طبعاً لا يأكلون ، فانتبه إلى أن أيديهم لا تصل إلى الطعام ، قال تعالى : { فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة .. } ، وهكذا فإنه لا إبراهيم (ع) ولا أحد غيره تمكنه رؤيتهم إلاّ برحمة من الله لمن يشاء من عباده .

فأين نور ما لا يُرى في العادة ، ولماذا لا يظهره النور ؟!...

قال تبارك وتعالى :

{ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ . سورة النحل الآية 2 } .

والملائكة موجودون ، والله ينزلهم ، كما هو يقول سبحانه ، على من يشاء من عباده ، وهو يحملهم هذه الرسالة الواضحة : أنه لا إله إلاّ هو سبحانه ، فلا الملائكة هم الله ولا أي مخلوق في الأرض أو السماوات هو الله ، لأنه لا إله إلاّ هو ، فسبحانه عما يشركون .

وصفوة القول ، أن هذه القوى الهائلة ، والتي يحكم الله بها وبغيرها الأكوان والخلائق ، من مثل الجاذبية إلى المغناطيس إلى الكهرباء ، إلى النظم الإلكترونية ، والتي ليست بحاجة إلى أن يظهرها الضوء أو تخفيها العتمة وهي تعمل دائبة ما قامت السماوات والأرض . وتترك آثارها فيزيائياً وكيميائياً بالحسابات العلمية الدقيقة ، التي علمها ويعلمها الله تعالى لمن يشاء من عباده . هذه القوى ليست هي الله تبارك وتعالى ، وهي موجودة ، وإنما هي كما قدمنا ، من جملة آياته الكبرى وأعاجيب خلقه ، الدالة على وحدانيته وفردانيته وغيريته وتعاليه عن جميع أصناف خلقه . ولو كان هو الرؤوف الودود ، والحليم الكريم ، والرحمن الرحيم .

ثم لننظر نظرة ثانية وثالثة ، في رحاب قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَاهُ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور الآية 35 } .

والملاحظ بوضوح مدى استعمال المعاني المجازية ، متداخلة بالمعاني الحقيقية ، ليدل سبحانه عن نور خصوصي هو ضمن النور العمومي الذي يغمر الأكوان ، وأن هذا النور المصقَّى من مشكاة المصباح لزجاجة من الدرّ ، في مقابل الأنوار التي تنعكس من الأجرام الترابية أو الصخرية ، كما في الكواكب السيارة ومنها الأرض والقمر ، أو في عامة الأجسام التي هي أدنى جوهرًا من الدرّ . ليختص بهذا النور الأصفى والأسنى والذي هو كذلك نوره سبحانه ، ليختص به رجالاً وقلوب رجالٍ في بيوت أذن الله أن ترفع - سواء كانت مساجد أو بيوتاً عادية أو أبدان أناس هي بيوت أنفسهم - وشيعة هؤلاء الناس أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة لله وإيتاء الزكاة قربة إلى الله ... يعني أناس متفرغون لخدمة الله وخدمة دينه وعبادته والجهادين الأكبر وهو جهاد النفس والأصغر وهو جهاد أعدائه سبحانه . لا يريدون من الدنيا مكاسب تجارتها ولا إغراءات زينتها ، وحسبهم من ربهم الحبيب الكفاية ورضاه وحبه الذي يكمل لهم به خير الدنيا والآخرة .

هذه البيوت النادرة المنوّرة بالنور الخاص ، ليست كبقية بيوت غير الموحدين العارفين بالله سبحانه ، وهؤلاء الرجال النادرون الذين تفضل عليهم ربهم الكريم ، الغفور الودود ، واختص قلوبهم بتجلي أسمائه بنوره الأسنى ، وتجليات نورانية لها صفاتها المميزة

جداً ، ولها درجاتها عنده جلّت عظمته ، هؤلاء الرجال هم أهل العرفان بالله تعالى ، سواء كانوا كملاً ، أو كانوا ما زالوا في السالكين ، برعاية أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

وعلى كثرة آيات النور التي يتداخل فيها المجاز بالحقيقة ، أو التي تعني المعنى الحقيقي لكلمة نور ، أو التي تعني المعنى المجازي ، نختار آية لكل حالة ، نكتفي بها اعتماداً على نورانية القارئ إن شاء الله . فبالنسبة للمعنى الأول المتداخل قوله تعالى :

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة الآية 257 { .

ومثالاً على المعنى الحقيقي ، قوله تبارك وتعالى :

{ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . سورة البقرة الآية 17 { .

وعن المعنى المجازي ، قوله عز شأنه :

{ .. فَأَلْذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . سورة الأعراف الآية 157 { .

كلمة عن إجابيات كتاب " هل نرى الله "

لا بدّ من كلمة للإنصاف ، ولمكانة العلامة الطهراني في أهل العرفان بشكل عام ، نشير فيها ، إلى أن أكثر العرفانيين ، على قدسية منازلهم من حيث السلوك صعوداً في الدرجات ، إلا أنهم لم يبلغوا كمال المعرفة بالله تبارك وتعالى ، وكيف يبلغون هذا الكمال ، وهم لم يبلغوا ولن يبلغوا كمال العلم ، في الله وفي غير الله ، حتى محمّد (ص) أوصاه ربه سبحانه قال **{ .. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً }** .

يحكى أن موسى (ع) عندما جلس مع الرجل الصالح على ظهر السفينة ، كان أول درس تلقاه منه ، هو قوله له : يا موسى انظر إلى هذا البحر المحيط ما أغزر مياهه ، وما أعظم اتساعه ، وانظر إلى تلك النوارس (طيور البحر) ، كم يأخذ الواحد منها من هذا

البحر ؟ يا موسى إن علم البشرية بالنسبة إلى علم الله تبارك وتعالى ، هو بمقدار ما يأخذ ذلك الطائر بالنسبة إلى هذا البحر المحيط .

يقول الله تبارك وتعالى : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } . سورة لقمان الآية 27 { كناية عن لا محدودية علم الله واستحالة الإحاطة به أو استكماله . وحتى عن القرآن وحده قال عز من قائل : { قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } . سورة الإسراء الآية 88 { فكيف بعلم ما في السماوات والأرض وغيب ما فيهما وبينهما .

من هنا نقول إنه وإن كان في الكتاب المذكور للعلامة الطهراني تناقضات وشطحات ، كما ذكرنا وكما سنذكر بعضها ، إلا أن إيجابيات وفوائد جمة تنم عن درجة وصول هذا العالم المميزة والمتقدمة . نقول هذا ولو كنا في موقف المعارض على المتناقضات فقط ، ولسنا في موقف التعريض والثناء .

هذا ، إلى أنني احتاط احتياطاً شديداً بالنسبة لإمكانية سلامة النص الأصلي للعلامة الطهراني ، وإمكانية صفائه من الشوائب ، إذ أن في مقدمة الكتاب الذي بين يديّ أنه مترجم وأنه مختصر ، ولعلّ الذين ترجموه واختصروه ، هم وقعوا في ما تصدينا نحن لإصلاحه ومناقشته . ومع ذلك كان لزاماً عليّ - وجوباً - أن أعلن وأثير هذه القضايا الحساسة جداً بالنسبة للعرفان الحقيقي بالله تبارك وتعالى ، اعتماداً ، حصراً ، على قرآنه المقدس الكريم ، وحيث أن الكتيب المذكور أصبح متداولاً جداً ، بين أيدي الأبرياء من المؤمنين ، ولا سيما الشباب ، وهم في هذه الأيام متعطشون لكل جديد عن الإسلام ولا سيما عن أسرار التوحيد والعلوم العرفانية ، وهذه ظاهرة رائعة ، تنبئ بالخير العميم لهذه الأمة المباركة ، ولكن الخطر شديد في سوء التسويق والتشويق ، إذا كانا على غير أساس الحق وأساس تعاليمه سبحانه في كتابه المجيد .

ولعل ما أقوله هنا عن إمكانية وقوع الخطأ في الترجمة والإختصار ، يستحسن أن أقوله كذلك عن كتاب " وصايا عرفانية " للإمام الخميني قدس سره ، حيث أن النسخة التي علقنا عليها ، والمتداولة جداً ، هي كذلك بالعربية مترجمة عن الفارسية .

ما الهيولى ؟! وما الفناء في ذات الله المقدسة ؟!

كذلك رجوعاً ، إلى الصفحة 18 من كتاب " هل نرى الله " فقد ورد في كلام المؤلف هذه العبارة : " وجعل أنفسنا من الهيولى " وهذه العبارة : " ... والوصول .. إلى الفناء في ذات الله المقدسة " .

فأولاً ، ما هي الهيولى ؟

الهيولى لفظة فلسفية يونانية نقلت بلفظها إلى بقية اللغات ، وكما اختلف حول مفهومها ، الفلاسفة اليونان ، كذلك تبعاً لهم ، اختلفت الفلاسفة الإسلاميون . وهذا نمط من الخلاف (*) ، نثبتته ، كنموذج عن خلافاتهم حول أكثر القضايا الفلسفية إن لم نقل جميعها . آملاً من القارئ المشتاق إلى الحقيقة ، أن يصبر معي صبراً جميلاً لعنا نعتاض عن مفردات القرآن الكريم ، بمفردات ومصطلحات جاهلية اليونان ، بدلاً من اشراقات نور الله في كتابه العزيز ، الذي { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } . سورة فصلت الآية 42 { . معذرين من الذين يقولون بتمددات الحضارة الإنسانية وتداخلها ، بأنه صحيح في الهوامش ، وغير صحيح في الأصول ، حيث من غير الحق القبول ، بخلط الظلام بالنور ، والعماية بالهداية والحقائق بالأباطيل . وإليك أخي الكريم ، هذا الخلاف حول الهيولى : فقد ورد تحت عنوان عقد وحل (*) ، ما يلي :

" وربما قال قائل إن هذا الرسم غير صحيح بوجوه :

أما أولاً : فلصدقه على الهيولى الأولى لأنها جوهر يقبل الأبعاد وإن كان بواسطة الصور الجسمية فإن صحة فرض الأبعاد بواسطة أخص من صحة فرض الأبعاد مطلقاً ومتى تحقق الخاص تحقق العام بالضرورة .

وأما ثانياً : فلأن الوهم مما يصح فيه فرض الأبعاد الثلاثة كذلك للمقادير الموجودة فيه والتعليمات مع أن الوهم ليس جسماً طبيعياً .

(*) أنظر الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة . ج 6 ص 13 و 14 .

وأما ثالثاً : فلأن الصحة والإمكان ونظائرها أمور عدمية وأوصاف لا ثبوت لها في العين والتعريف بالعدميات لو جاز لجاز في البسائط التي لا سبيل إلى معرفتها إلا باللوازم وأما الجسم فمهيئة مركبة لوقوعها تحت جنس الجوهر فلها فصل تتركب هي منه ومن الجنس ولتركبها من الهيولى والصورة والتركيب في الوجود يستلزم في المهيئة .

إلى أن يقول :

وبهذا يندفع كثير من الإشكالات التي تكون من هذا القبيل فإن المعلم الأول (*) حدّ المتصل بأنه الذي يمكن أن يفرض فيه أجزاء يتلاقى على حد مشترك ورسمه بأنه القابل

لانقسامات غير متناهية ، وحدّ الرطب بأنه القابل للأشكال بسهولة واليابس بأنه القابل لها بصعوبة فيتوهم ورود النقض بالهيولى الأولى في جميع هذه الحدود ونظائرها ...

إلى أن يقول :

ولنا أن نجيب عنه بأن القبول ههنا بمعنى مطلق الإتصاف بشيء سواء كان على وجه الانفصال والتأثر التجدي الذي يقال له الاستعداد لا مطلق الاتصاف لوجود الأوصاف الكمالية في المفارقات من غير انفصال هناك ، فقبول الأبعاد الثلاثة بحسب الغرض لا يحتاج إلى انفصال مادة أصلاً ، أولاً ترى أن الجسم لو كان محض الجسمية من غير هيولى لكان قابلاً للأبعاد العرضية باتفاق العقلاء ، ولهذا عرف الجسم به من لا يعتقد وجود الهيولى الأولى ... أو نقول إن إمكان القبول للأبعاد صفة للجسم لا القبول فلا ينافي هذا كون القبول من جهة أحد جزئيه أولاً ترى ان إمكان الإنسانية صفة للمني وليس المنى إنساناً فإمكان قبول الأبعاد من لوازم الجسم التي لا يحتاج ثبوتها له إلى قابلية واستعداد ...

هذا عن الهيولى .. وبقطع النظر ، عن أنه عندنا بدائل تقرّبنا من الحقيقة ، بل وهي الحقيقة الأصلية ، قوله تبارك وتعالى : { .. وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . سورة السجدة الآية 7 } . إلا أننا نتساءل ، إلى أين مع الفلسفة ، ولماذا هذه اللفظة أخاذة لعقول الناس . ونحن لم نجد لها يوماً في التاريخ ، حلّت مشكلة ، كان الحل فيها بديلاً عن دين رب العالمين ، في جواهره وتعاليمه ؟

(*) هو عند أهل الغرب سقراط ، وقد اعتمد هذه التسمية كذلك الفلاسفة الإسلاميون كما ترى

خلافات ، وتناقضات ، وفلاسفة كبار وحكماء وعلماء كلام .. فبمن يقتدي الباحث المتعلم ، ومن يقلّد ؟ وبكلمة أهم ، من منهم المجتبي عند الله ، نقول بعصمته ؟ فإذا كانوا جميعهم مجتبيين ، فلماذا خلافاتهم الحادة هذه ، وإذا كان واحداً منهم فكيف نحصره ونحدده ؟ وإذا كانوا جميعهم غير مجتبيين ، فكلهم عرضة للسقوط والانحراف عن الحق وعن صراط الله الذي عليه الحقائق المجردات .

إذاً ، الحكم الفصل هو القرآن وأهل القرآن ، فمن تجاوز القرآن آملاً الوصول عن طريق غيره ، ضلّ وارتبك وخلّط .

{ .. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . سورة النحل الآية 33 } .

ثم انظر إلى هذا التناقض البين : هم يقولون إنهم لا يتوصلون إلى معرفته سبحانه عن طريق العقل ، والفلسفة طريق العقل ، وهم يسترشدون بالفلسفة ، كما رأينا عن الهيولي وغير الهيولي ، عند العلامة الطهراني في كتابه (هل نرى الله) وهو في هذا الكتاب كذلك يقول ما نصه بحرفيته :

ليس بمقدور الإنسان معرفة الله بواسطة الفكر والتفكير ولا حتى بطريق الإدراك ، ذلك أن الفكر والتفكير محدودان بينما الله سبحانه لا حدَّ له . فكما حاول الإنسان جهده الإحاطة بالتفكر والقدرة العقلية كان ذلك له محالاً ، ذلك لأن صورة تفكيره ، وهو ذهنه ، هي صورة تخيلية من صنعه وصنيعته هو ، فأين ذلك من الله عزَّ وجل (*) ؟

ولا بأس أن نذكّر هنا بما أوردناه سابقاً ، بأن رسول الله محمّداً (ص) سئل كيف عرفت الله ؟ قال : بالله عرفت الله .

وصحيح أن العقل لا يكفي للوصول إلى معرفة الله عزَّ وجل ، وحتى لا يكفي لبناء أمة أو جماعة أو أسرة من أب وأم وأولاد أو حتى علاقة سوية بين شخصين ، وما أقصده بالبناء ، هو البناء السوي القائم على الحق والعدل والجمال والحرية والفضيلة ، وهذه الركائز في بناء المجتمعات أو الأمم ، هي صبغة الله ، التي أرادها وعلمها الله تعالى للبشرية ، فإذا حصلها أو حصل بعضها العقل فيكون ما حصله ، من تعليم الله والفطرة التي فطر الناس عليها .

(*) ص 21 آخر سطر وما بعده .

وهنا يجب أن ننبه إلى أن العقل الذي نتحدث عنه هنا ، هو الذي في عرف الناس ، والذي هو نتاج التفاعل بين النفس والدماغ ، وهو ليس كذلك في الحقيقة ، ولقد تحدثنا بإسهاب عن العقل الحقيقي في كتابنا " العقل الإسلامي " فلا ينبغي التكرار . سوى ملاحظة سريعة نقول تريخ القارئ الذي لم يطلع على كتابنا من الحرج ، وهي أن العقل الحقيقي إنما هو الروح ، أو النفخة التي في كلام الله تعالى ، قوله : { .. فَفَخَنَّا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا .. } .

كم من الأمم سادت ثم بادت ، لأنها استبدلت بتعاليم الله العقل العرفي ، أي التركيب الغريزي بين النفس الأمانة والدماغ.

هذا الدماغ ، قلنا عنه إنه (اللب) الأوسع نشاطاً ، أو المفاعل الأعلى خطراً في عالم الجواهر المادية ، فهو مركز التبليغ والترجمة والتفسير ، إضافة إلى الإحساس

والذاكرة ، والعواطف والقدرة على الحركة ، فإن ضاق عن العقل ، تحوّل إلى الآلية والغريزية بنسبة ما يضيق ، وبقيت له هذه الأمور كما هي للدماغ الإلكتروني أو المخلوقات الغريزية الراقية .

أما العلاقة بين العقل الحقيقي والدماغ ، هي علاقة الطاقة الغيبية الموجهة لبرمجة مفاعلها الأرقى في جواهر المادة. والنفس هي التي تسبب انفتاح الدماغ على العقل أو انغلاقه دونه ، أو جعله في حالات بين الحالتين . يعني يكون هذا الواقع المتكيف ، رهن بمدى إقبال الإنسان على ربه ، أو تباعده عنه جلّت عظمتة .

وفي حال تلبس النفس بكفر أو شرك أو استكبار ، أو الوقوع في هوى أو إثم ، ينشغل الدماغ والنفس بالحدث منصرفين عن العقل ، فتفقد النفس بذلك الهداية والسداد والرشاد، وتحاول الإستئثار ضالة ظالمة بموقع القيادة ، مأذوناً لها بذلك تبعاً لاختيارها وتنكرها لولاية الله ورعايته ، فيتخلّى عنها الله امتهاناً وإمهالاً وتحجيماً ، وليس إهمالاً أو تفويضاً . وفيها قال سبحانه :

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . سورة الشمس الآيات (7 - 10) } .

وباختصار شديد ، إن مجمل نشاطات الدماغ وعلاقته بالنفس حصراً ، مستقلّين عن الروح أو الروحانيات ، هذا المجمل هو ما يعنيه الناس بجميع درجاتهم عندما يقولون : العقل ، وهو هو بالنتيجة العقل الفلسفي ، أو هو العقل الذي يعتمد الفلاسفة ، مستقلين به إجمالاً عن التعاليم الإلهية . منذ منطق أرسطو مروراً بالفلسفات اليونانية - الهلينية والرومانية ، والفارسية ، وفيها الزرادشتية والإثنية وغيرها وغيرها ، كل ذلك قبل الإسلام المجيد ونزول القرآن الكريم ، من لدن الله تبارك وتعالى على قلب عبده ورسوله محمّد (ص) . ثم تمددت هذه الفلسفات الوثنية - حيث كان تعدد الآلهة عند جميع من ذكرنا من الأمم - داخلية أو مدخلة فيما سمي بعد ، بالفلسفات الإسلامية ، عند توهج الحضارة بالتوحيد وبالقرآن ، الحضارة التي أوشكت أن تعمّ العالم ، لولا زندقة الفلسفة ، وركوبها متون الفلسفات التي ذكرت ، فضلاً عن جنوح أكثر الخلفاء عن دين الله بردة عنيفة إلى الجاهلية تارة ، وإلى الملك العقيم العضوض تارة أخرى .

في هذا الوقت الذي كانت الفلسفة والملك الباطل والردة تنخر بالحضارة المرشحة لخلاص العالم وإسعاده ، كان الغرب يستيقظ من ظلام أمّيته وبدائيته ، ليدخل من جديد في عهود ، هي بمقياس الآخرة ومقياس دين رب العالمين ، هي أشد ظلاماً. فكان من نتاج هذه الفلسفات في تمدداتها في الفكر الغربي الهجين ، الذي كان حتى المسيحية حوّلها إلى وسيلة

ابتزاز وسحق لعامة المسيحيين ، إنطلاقاً من ديكتاتورية الكنيسة ، مروراً بمحاكم التفتيش وقتل عباقرة العلم باسم الدين ، ناهيك عن اتخاذهم إلهاً من دون الله ، إنساناً بشراً ، هو رسول الله عيسى المسيح بن مريم عليه وعلى أمه الصلاة والسلام . مما أسس في الغرب حضارات زندقية ، وليدة فلسفات مادية معلنة ، كالفلسفة التي بنى عليها الإتحاد السوفياتي عالياً وشامخاً ، وفجأة دمّره الله المنتقم الجبار ، فجعله قاعاً صفصفاً . وفلسفات أخرى مادية كذلك ، وإنما غير معلنة ، كفلسفات بقية دول أوروبا الوسطى والغربية ، ثم الفلسفات التي بنيت عليها الولايات المتحدة الأميركية ، والتي هي أشد كفراً وظلماً وزندقة ، وتنكراً للمسيح وأمه وجميع القديسين والأنجيل . غير مرجع واحد يرجع إليه الجميع يدّعي روحانية كاذبة مشوهة ، هي التي ستفقد أوروبا وأمريكا وعامة حضارات الغرب الراهنة ، إلى دمار وانهارات سيكون صوت دويها أعظم من دويّ انهيار نديها الإتحاد السوفياتي ، عنيت بهذه الروحانية الكاذبة والدجالة ، الصهيونية العالمية ، والتي هي في هذه الأيام تحفر قبرها في فلسطين بأيدي أبنائها وأيدي المؤمنين ، الذين هم لها بإذن الله تعالى بالمرصاد .

وآتية هذه الأمة ، التي ستخلص العالم إن شاء الله .

{ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا . سورة المعارج الآيات (6 - 7) } . ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

والآن بعد أن تحدثنا عن (الهبولى) وعن الشأن الفلسفي وغربته عن علم العرفان الإلهي ، وعدم الوصول بواسطته إلى الحقائق العرفانية الصحيحة المتلائمة مع كتاب الله المجيد ، بل الشأن الفلسفي كما أوضحنا ، وكما سنتابع الإيضاح بإذنه تعالى ، يجر إلى التناقض الشديد مع بعض الحقائق المبيّنة بالنصوص الإلهية القرآنية التي لا تعلو عليها أية نصوص في هذه الحياة الدنيا . والتي يجب أن تكون هي المرجع الذي يحكم بحكم الله جل وعز ، في ما يصدر من تناقضات وخلافات بين القرآن المجيد من موقعه الإلهي من جانب ، وبين الفلاسفة أو علماء الكلام أو الحكماء ، من مواقعهم البشرية من جانب آخر ، ولو كانوا - مما لا شك فيه - كثيراً ما يصيبون ، إلا أنهم في الوقت نفسه كثيراً ما يخطئون ، كما نرى بوضوح في نصوصهم التي بين أيدينا .

وإذا قيل إن تأويل الآيات قد يختلف - وحتى تفسيرها - بين مفسّر وآخر ، أو عالم وآخر ، قلنا هذا صحيح . ولكن إذا أُخرج معنى النص عن حقيقته وعن مجازاته ، وإذا كان قلب المفسّر أو المؤوّل غير صالحٍ للتلقي وغير مؤهلٍ للتفريق بين العبارة والإشارة والحقائق القرآنية ، فلا يقتحمن هذا الميدان ، فإن في ذلك حساب صعب ، كما أن فيه الثواب ، كذلك فيه العقاب ، في الدنيا والآخرة . وإذا لم يوافق التفسير أو التأويل إرادة الله عز وجل كانت الداهية الدهياء . أما الحديث المزعوم: من اجتهد فأخطأ له أجر واحد ، ومن اجتهد

فأصاب له أجران ، فينقضه قول الله تعالى : { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . سورة الزلزلة الايات (6-7) } . وأي شر هو أدهى من تحريف كلام الله أو الإنحراف بمعانيه عن إرادة الله تبارك وتعالى ! ..

بقي أن نجيب عن السؤال الثاني الذي طرحناه في عنوان هذا البحث ، وهو :

ما " الفناء في ذات الله المقدسة " ؟!

هذه العبارة هي الإشكال الثاني الذي ورد في كتاب (هل نرى الله) والذي وعدنا بالرد عليه(*) .

لقد أوردنا في بداية هذا الفصل ، استحالة رؤية ذات الله المقدسة ، من خلال النص القرآني وفيه طلب موسى (ع) أن يرى الله عز وجل . فكانت النتيجة أن تجلّى

(*) أنظر الصفحة 133 .

سبحانه للجبل فجعله دكاً وخر موسى صقاً . بعد أن عمّم تعالى على البشر هذا الخبر : { لن تراني } وهو القول الفصل الذي قاله لموسى ، وبَيَّن له عملياً استحالة رؤيته من قبل خلقه سبحانه .

هذا أولاً ، وثانياً ، من المعروف عند السالكين من أهل العرفان ، أي الذين هم في هجرة من بيوت نفوسهم إلى الله تبارك وتعالى . وقد تحدثنا في سياق هذا الكتاب عن برمجة هذه الهجرة ، كما تحدثنا في كتابنا (العقل الإسلامي) عن المحطات الأولى فيها ، ومما ذكرناه أن فناء المهاجر ، إنما يكون (في فناء الله) جلّت عظمته وتبارك وتعالى ، وأن هذا الفناء هو شعور الإنسان بانمحائه كلياً من الوجود ، ويكون هذا الإمحاء ، أو الأولى أن نقول هذا المحو ، غالباً أثناء السجود ، ثم يبعث الله عبده بعد محوه الذي يدوم عادة لثوانٍ معدودات . ولأن جميع السالكين يمرون في هذه الحالة فقد تعارفوا على تسميتها " الصحو بعد المحو " أما " فناء الله " بكسر الفاء ، فالفناء في اللغة ، نقول فناء البيت أي داره ، وفناء الله بالمعنى العرفاني التطبيقي ، هو دار بيته العتيق ، أي الكعبة المشرفة . وقد يتدرج الفناء في المطلق ، دون تحديد مكان ما ، إلى أن يمرّ في فناء الكعبة أعزها الله ، وقد يتم الدخول إليها بالنفس الكلية . وفيها تظهر النفس الخامسة للمجتبين . وهنا يعرف معنى قوله تبارك وتعالى { .. وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. } . سورة آل عمران الآية 97 .

أما هذه المراحل التي أوجزنا الحديث عنها ، فتتم بوضوح في اليقظة وليس في المنام كما قد يخيّل لبعض القارئین .

والخلاصة النهائية ، هي أن الفناء العرفاني ، إنما هو " فناء في فناء الله " وليس فناء في ذات الله المقدسة لأن هذا الأخير مستحيل .

ونكتفي بهذا المقدار من هذه التناقضات التي أشرنا إليها علماً أن في الكتاب المشار إليه ، غيرها ، يحصل لها من تفضل الله عليه بتجليات نورانية من الأرقى إلى الأنقى والأصفى ومن نور عظيم إلى نور أعظم ، إلى بحر أحديته ، إلى يم وحدانيته ، إلى سعة فضاء رحمته يطير في الأفق الأعلى بجناحين لازورديين ...

الفصل السادس

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ

سورة السجدة الآية 5

بين العرفان التقليدي والعرفان العلمي :

المعرفة بالله جل شأنه لها قواعد تعبدية يتناقلها أهل العرفان والصوفية ، حتى إنهم جعلوا لها مناهج مكتوبة أو شفوية يعلمها الواصلون للسالكون والساكنون أو المهاجرون إلى الله تعالى للمريدين ، وهؤلاء للمبتدئين الذين يراودون هذا العلم العالي والمقدس .

إلا أن هذه القواعد والمناهج ، ولو كانت تؤدي غالباً إلى نتائج مقبولة ، فيها الروحانية ، وبعض النورانية المريحة والمسعدة نسبياً ، إلا أنها أصبحت شبه مغلقة دون المجتمع العالمي ، والثورة العلمية التي باتت تسمي الأرض كلها قرية ، ذلك بسبب تواصل القارات التي كانت لآلاف السنين تفصل بينها وبين سكانها مجاهل المحيطات والصحاري والجبال التي كان اجتيازها من المعجزات .

أما وقد بلغت ثورة التواصل ، عبر الأجهزة الكثيرة والمتنوعة والمدهشة ، من فتوحات الكمبيوتر ، إلى الهواتف النقالة ، إلى الأنترنت ... إلى الفضاء والأقمار التي ضيقت مساحة الأرض وكشفت مجاهلها ، فضلاً عن ألوف الوظائف المنوطة بها ، ما هو معلن منها وما هو في عداد الأسرار .

إلى فتوحات علم الفلك المذهلة ، مواكباً أسرار الذرة والرياضيات والفيزياء وميكانيك الكم .

والتغيرات المفاجئة وغير المألوفة في الكون ، من فتحات الأوزون والغيوم الحرارية ، والإزدياد المتسارع في حرارة الأرض ، مما يسبب الاضطرابات المناخية العنيفة ، فتصحّر يزحف في مناطق كانت بالأمس القريب واحات خضراء وغابات وبساتين ، وفيضانات في مناطق قلما كانت تعرف الفيضانات .

إلى شحٍ وتناقص مطّرد للمياه العذبة ، التي يقولون معها إن العطش كذلك يزحف إلى أهل الأرض عامة ، مما سيسبب حروباً وتزاحماً على مصادر المياه ينغص حياة المتزاحمين وحياة الناس أجمعين ، إلا من رحم ربك ربُّ العالمين .

لذلك كله ، مما ذكرنا ومما لم نذكر ، احتساباً للوقت الذي أصبح كذلك معه الربانيون والقرآنيون أكثر مسؤولية . لذلك ينبغي على المتصددين للعرفان الإلهي ، منطلقين من القرآن الكريم مهاجرين إلى الله جلّت عظمتها ، معرضين عن مجريات الكون ، وحالة المخاض التي يمرُّ بها العالم في قرنه العشرين وما بعده ، ينبغي عليهم أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية ، أن يواجهوا بقرآنهم هذا الكريم وهذا العظيم ، مجريات الكون ، ويتصدوا لمعرفة أسرارها وأسبابها الإلهية ، والتي يحكي عنها بأبلغ الكلام وأقوى الحجج وأسطق البراهين ، قرآننا هذا الذي { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . سورة فصلت الآية 42 } .

وباختصار شديد ، فإن معظم ما يحدث من السماء إلى الأرض في هذه الأيام ، هو من أشراط الساعة ، التي نبّه الله إليها الخلائق في كتابه هذا المجيد ، والذي لا كتاب له غيره تحت هذه السماء الدنيا ، فيه كلامه ، وفيه أخباره ، وفيه معرفته ، وفيه كشف أسرار هذا الكون .

وكما أنه لن يتم فهم القرآن في معزل عن مجريات الكون ، كذلك لن يتم فهم الكون في معزل عن ينابيع النور ، والكشف ، ومعرفة أسرار الوجود ابتداءً وانتهاءً وما بين الإبتداء والإنتهاء ، وبعد ذلك كله التخليد إما في السعادة الأبدية وإما في العذاب الأبدي .

ذلك بأن النص القرآني ، هو النص الإلهي الوحيد الصافي الخالص من أي إدخال عليه أو أي تحريف كما حصل للكتابين المنزلين التوراة والإنجيل . حيث أن الأوّل كتبه عزرا كبير الأحبار ، (واسمه في القرآن عزير) كتبه أثناء السبي في العراق ، بعد أن كان نبوكد نصرّ قد أحرق جميع نسخ التوراة وهدم الهيكل في بيت المقدس وسبى جميع اليهود الذين كانوا بفلسطين ، إلى بابل في العراق ، حيث ظلوا هناك مائة سنة ، بعدها عطف عليهم بتأثير من أمه اليهودية قورش الملك الفارسي ، فبقي بعضهم في العراق ورجع

البعض الآخر إلى فلسطين ، ليبكوا على أنقاض الهيكل الذي كانوا وما زالوا يعبدونه من دون الله .

وحيث أن الثاني ، أي الإنجيل ، قد أصبح خمسة أناجيل يعارض بعضها بعضاً ، حيث يصعب فيها فصل الإلهي عن غير الإلهي .

لذلك ذكر الله تبارك وتعالى أن القرآن المجيد ، معترف ببعض ما فيهما مهيم عليهما ، وقد اعتبرهما في النص القرآني كتاباً واحداً . قال سبحانه مخاطباً رسوله محمداً (ص) :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . سورة المائدة الآية 48 } .

وما يهمننا من جملة مضامين الآية ، هو المعرفة اليقينية بأن القرآن الكريم متفوق على الكتابين المذكورين تقدُّميةً وتفرداً في حقائق التوحيد وأسرار التوحيد ، نذكر الآن تميُّزه في أكبر مجالين يشملان عامة النشاطات البشرية : التشريع والعلم (*) كشفاً ومواكبة .

نموذج عن التدبير الإلهي في التشريع :

فهو ، أي القرآن الكريم ، يقر للملتين اليهودية والنصرانية ببعض التشريع وبعض الحقائق التي سلمت من تحريف الكلم عن مواضعه ، حيث قال سبحانه : { .. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ .. سورة النساء الآية 48 وسورة المائدة الآية 13 } .

وباختصار شديد ، فإن الشرائع في التوراة فيها قسوة وتشدد ، مما جعل أتباعها بين قتلة بما يتوهمون أنه سيف العدالة ، وبين متفلتين من شريعتهم وأحبارهم ، واقعين في فوضى الفكر والكراهية والجريمة . وبذلك التقى الفريقان على بغض كل من هو غير يهودي ، وبالتالي على الإفساد في الأرض وقد تختصر هذه الآية الكريمة نظرهم للذين آمنوا أي للمسلمين وكذلك نظرة النصارى ، وهي قوله تبارك وتعالى :

{ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . سورة المائدة الآية 82 } .

(*) تعرضنا في كتابنا " العقل الإسلامي " لأهم المواضيع العلمية ربطاً بالقرآن الكريم ، وكذلك في هذا الكتاب . فراجع .

أما الشرائع في الأنجيل - على اختلافها - فقد جاءت تصحيحية لما أفسده اليهود في الشريعة ، جاء بها السيد المسيح عليه السلام ، فأنت سهلة متراخية ، وفي أقصى درجات التسامح ، ولكن الغرب لاحقاً ، ومعظمه مسيحي جنح إلى التقلت والإنحلال الخلقي وتفكك الأسر والمجتمع ، وشيوع العلاقات المحرمة ، حتى وتشريعها وتقنينها سواء بين الذكر والأنثى ، أو بين المثليين ، الأمر الذي تتشدد في تحريمه جميع الملل . ولقد نتج عن كل ذلك كوارث ليس أقلها أمراض الإيدز وانتشار الجريمة بين المراهقين وحتى الأطفال ، فضلاً عن الموازين الجائرة فيما بينهم وفي نظرتهم إلى العالم . حيث تحولت هذه الحضارة ، إلى قنبلة ، كأنما موقوته ، تكبر وتتضخم ، وقريباً ستنفجر وتدمر نفسها وما يمكّنها الله من تفجيرها وتدميره في أنحاء العالم .

و { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . سورة الفجر الآية 14 } .

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . سورة الزلزلة الآيات (7 - 8) } .

ولكي أعطي دليلاً - كذلك مكثفاً ومختصراً - على قسوة اليهودية المؤدية للكرهية والإفساد ، وعلى تفريط المسيحية المؤدي إلى التقلت والإنحلال وعدم العدالة . ثم إنزال القرآن بعدهما على محمد (ص) ليكون - بما أنزل عليه الله - حدّاً اعتدال بين إفراط اليهودية وتفريط النصرانية . أعتمد ثلاث حالات متقابلات في موضوع واحد ، هو حدُّ الزنى في كل ملة من هذه الثلاث .

ففي التوراة ، حدُّ الزنى هو الرجم بالحجارة حتى الموت للرجل وكذلك للإمرأة .

ولا حدّ له في النصرانية ، لقول المسيح عليه السلام عندما أتاه الفريسيون ومعهم الناس ، بزانية أشهدوا عليها ، فقال: " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر " ، وقيل ان

الله تعالى جعل أمامه مرآة يرى فيها خطاياهم ، إذا هم أقدموا على رجمها ، فيدينهم بها .
فقطّل بذلك قسوة الرجم ، بالرحمة والتسامح ، حيث سحبت هذه القاعدة فيما بعد - خطأ -
على الأزواج الزناة ، ففقد الزوج المتضرر بزنى زوجته حقه ، وكذلك فقدت الزوجة
المتضررة بزنى زوجها حقا .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ أنّ اللطف والتسامح والحرية غير المنضبطة ،
حوّلت المجتمعات الغربية وبعض المجتمعات الشرقية ، عن طريق العدوى ، إلى بؤر فساد
وفجور ، وانحلال ، وجرائم أخلاقية ، حتى شأهت حتى القوانين وشأهت النفوس وشأهت
القلوب والوجوه . ونتج عن ذلك ، الظلم والاستبداد والغرور بأسباب القوة المدمرة ، تحت
عناوين هشة وكاذبة ، تنتستر بها مافيات الحكم في العالم ، من مثل الديمقراطية والعدالة
والحرية ...

أما الإعتدال في القرآن الكريم الذي ضبط المجتمعات الإسلامية بنسبة عالية جداً
ومميزة ، في جميع الجبهات الأخلاقية ومنها العلاقة الجنسية ، التي حصرنا فيها برهاننا ،
فقد جاء في القرآن الكريم حكم الله تبارك وتعالى قوله :

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . سورة النور
الآية 2 } .

هذا هو النص القرآني الإلهي .

وقد تلت هذا الحكم الإلهي أحكاماً أخرى ، أتت في سياقه وكأنما فيها تعجيز دون
كشف واقعة زنى تستوجب إيقاع العقوبة . وهذا التعجيز يختص بالإشهاد على الزانيين .

ولنستعرض الآيات البيّنات ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا
تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ
شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَدْرَأُ
عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا
إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ . سورة النور
الآيات (4 - 10) } .

ففي الإشهاد على اثنين لإيقاع الحد عليهما ، ينبغي أربعة شهود ، فإذا جاء واحد يشهد على واقعة زنى أو اثنين أو ثلاثة ، جلد الجميع كل واحد ثمانين جلدة ، وردت شهاداتهم فيما بعد في أي حال من الأحوال ، ووصموا بالفسق وهو ما يقابل في لغة القانون ، إخراجهم من الحقوق المدنية ، إلا أن يكونوا أربعة .

والملفت جداً في الآية ، الثامنة ، قوله تعالى :

{ وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } .

هذه الحال ، إذا رماها زوجها ، كما هو مفصل في الآيات . فيمنع عنها العذاب أن تقول أربع مرات :

أشهد بالله إنه من الكاذبين فيما رماني به ، وتسمي زوجها ، وتقول في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

وفي واقعة لعان أقامها رسول الله محمد (ص) قال لها بعد الخامسة : " ويلك إنها موجبة إن كنت كاذبة " أي ان غضب الله واقع عليك لا محالة - أن كنت كاذبة .

وصحيح أن رسول الله (ص) أضاف الرجم على أسوأ صور الزنى . وذلك أن يكون كلاهما محصنين ، أو أحدهما محصناً فالرجم هو العقوبة على المحصن ، يعني الذي له زوج أو التي لها زوج .

ومن البيهقي أن تفصيل السنة المطهرة ، هذا الموضوع إلى صور ، فجعلت الرجم للمحصن المسافح ، والجلد لغير المحصن ، ذكراً كان أو أنثى ، وأن يكونا حرين ، أما إذا كانا من الرق أحدهما أو كلاهما فنصف الحد . وكل ذلك وبالضرورة ، بتعليم من الله تبارك وتعالى .

ومن لطائف فقه السنة المطهرة ، أن المحكوم بالرجم رجلاً كان أم امرأة ، يوضع بحفرة ، ثم يأتي طائفة من المسلمين ، - والطائفة ، قد تكون رجلاً واحداً فما فوق - كذلك في فقه اللغة - ثم يؤتى بالرجم - فإن تمكن المرجوم أثناء ذلك من الهرب فيخلّى سبيله .

وفضلاً عن كل ذلك ، فقد استنّ رسول الله (ص) الرجم ، بعد تشدّد غريب وعجيب ، في وصف الشهود للواقعة ، فإذا كان فيها أدنى شك أو شبهة ، فيرفع الحد ، وكذلك في

اعتراف الفاعل ، إذا لم يكن عليه شهود . ووضع ذلك قاعدة شرعية فيها متنفسات عجيبة مؤدية إلى رحمة الله ، وهي [درء الحدود بالشبهات] .

ومن كان حريصاً على التبسط في هذا الموضوع ، فليراجع السيرة النبوية المباركة ، ولست أذكر أكثر من حالتين فقط أوقع فيهما النبي الكريم حدَّ الرجم : إحداهما على رجلين يهوديين شهد عليهما قومهما بالزنى ، محكمين بذلك رسول الله (ص) فنفذ فيهما حكم الرجم على شريعة موسى (ع) . والثاني قضية مالك بن عذر الذي جاء يعترف مختاراً عند رسول الله (ص) ، فأكثر النبي الكريم الأسئلة عليه ، لعله يجد شبهة في إقراره فيدراً عنه الحد ، وإذا أصرَّ الرجل على اكتمال خطيئته ، وهو يعلم طبيعة الحد ، فأوقعه النبي (ص) عليه ، بعد أن أفهمه أن ذلك يحط عنه العذاب والسؤال في الآخرة ، فمضى قرير العين بصدقه إلى رحمة ربه .

ومن الأهمية بمكان ، أن أذكر قضية رجم اليهوديين ، لما فيها من الدلالات على قبح تعامل اليهود مع حكم الله ، ومحاولة التهرب منه والإلتفاف عليه وكيله بمكيالين ، وحتى كتمان هذا الحكم عن الناس :

في تفسيره لآية :

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سورة المائدة الآية 41 } .

أورد الطبرسي في مناسبة نزولها ما يلي (*) :

" قال الباقر (ع) وجماعة من المفسرين أن امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشrafهم وهما محصنان فكرها رجمهما فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبي عن ذلك طمعاً في أن يأتي لهم برخصة فانطلق قوم منهم كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسيد ، وشعبة بن عمرو ، ومالك بن الصيف ، وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم فقالوا : يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدُّهما فقال وهل ترضون بقضائي في ذلك ؟ قالوا : نعم ! فنزل جبرائيل بالرجم ، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به . فقال جبرائيل إجعل بينك وبينهم ابن سوريا ووصفه له ؟ فقال النبي هل

(*) انظر " مجمع البيان في تفسير القرآن " للطبرسي . م 2 ج 6 ص 94 منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت . لبنان .

تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدكا يقال له ابن سوريا ؟ قالوا نعم ! قال فأَيُّ رجل هو فيكم ؟ قالوا أعلم يهودي بقي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى (ع) . قال فأرسلوا إليه ففعلوا ، فأتاهم عبد الله بن سوريا فقال له النبي : إني أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى ، وقلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون ، وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن قال ابن سوريا نعم ، والذي ذكرتني به لولا خشية أن يحرقني رب التوراة إن كذبت أو غيرت ما أعترفت لك . ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمد ؟

قال إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم ، قال ابن سوريا : هكذا أنزل الله في التوراة على موسى . فقال له النبي فماذا كان أول ما ترخصتم به أمر الله ؟

قال : كنا إذا زنى الشريف تركناه ، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدّ ، فكثير الزنى في أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه ، ثم زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فقال له قومه لا ! حتى ترجم فلاناً يعنون ابن عمه . فقلنا تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع ، فوضعنا الجلد والتّحميم ، وهو أن يجلد أربعين جلدة ثم يسوّد وجوههما ثم يحملان على حمارين ، ويجعل وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما ، فجعلوا هذا مكان الرجم ، فقالت اليهود لابن سوريا ما أسرع ما أخبرته به ، وما كنت لما أتينا عليك بأهل ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك . فقال أنه أنشدني بالتوراة ولولا ذلك لما أخبرته به فأمر بهما النبي فرجما عند باب مسجده وقال : أنا أول من أحيا أمرك إذ أماتوه . فأنزل الله فيه : " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير " قام ابن سوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله ثم قال : هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الذي أمرت أن تعفو عنه ، فأعرض النبي عن ذلك . ثم سأله ابن سوريا عن نومه فقال : تنام عيناوي ولا ينام قلبي : فقال صدقت وأخبرني عن شبه الولد بأبيه ليس فيه من شبه أمه شيء أو بأمه ليس فيه من شبه أبيه شيء ، فقال أيهما علا سبق ماء صاحبه كان الشبه له : قال قد صدقت : فأخبرني ما للرجل من الولد وما للمرأة منه . قال فأغمي على رسول الله طويلاً ثم خلى عنه محمراً وجهه يفيض عرقاً فقال اللحم والدم والظفر والشحم للمرأة ، والعظم والعصب والعروق للرجل . قال له صدقت أمرك أمر نبي ، فأسلم ابن سوريا عند ذلك وقال من يأتيك من الملائكة ؟ قال جبرائيل ! قال صفه لي ! فوصفه النبي (ص) فقال أشهد أنه في التوراة كما قلت ، وأنتك رسول الله حقاً فلما أسلم ابن سوريا وقعت فيه اليهود وشتموه ، فلما أرادوا أن ينهضوا تعلقت بنو قريظة ببني النضير

فقالوا يا محمد ! إخواننا بنو النضير أبونا واحد وديننا واحد ونبينا واحد إذا قتلوا منا قتيلاً لم يُقَد ؟ وأعطونا ديتَهُ سبعين وسقاً من تمر ، وإن كان القَتيل امرأة قتلوا به رجلاً منا ، وإذا قتلنا منهم قتيلاً قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقاً من تمر ، وبالرجل منهم رجلين منا ، وبالعبد الحر منا وجراحاتنا على النصف من جراحاتهم فاقض بيننا وبينهم " فأنزل الله في الرجم والقصاص الآيات .

هذه هي واقعة رجم اليهوديين بأمر النبي محمد (ص) تنفيذاً لحكم التوراة .

إلا أن في آخر القصة عبارة أوردها المفسر الطبرسي ، هي :

[فأنزل الله في الرجم والقصاص الآيات ..]

والحقيقة ، أنها شبهة قال بها أحد الصحابة ، زاعماً أن الله تعالى أنزل في الرجم آية ، ثم نسخها الله حكماً وتلاوة . وقد رفض المسلمون هذا الزعم بالإجماع ، لأن التلاوة لا تنسخ .

نظرة في التشريعات الثلاثة :

تحت عنوان ، أن الله سبحانه { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ } نلاحظ كيف أنه جَلَّتْ عظمته رَبُّى البشر بمنطق العقل والحكمة ، أي بنفس منطق العقل والحكمة الذي علمهم إياه ، ليربوا به أنفسهم وأولادهم جيلاً بعد جيل .

وفي جملة مقاصده تبارك وتعالى ، أن يرفعهم ويدرجهم من مراحل البدائية ، التي فيها ظلام الجهل والشرك والوثنية وما ينتج عن ذلك من قسوة واستسلام لحكم الغرائز ، إلى كمال الإستنارة بالعلم الإلهي ، أي بمعرفته هو تبارك وتعالى .

ومن الأدلة على ذلك تعليمه لأمة الإسلام بقوله :

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . سورة الحديد الآية 16 } .

فالله عز وجل أنزل على قوم موسى أحكاماً تلائم واقعهم الزمني وتركيبهم الثقافي والنفسي والاجتماعي . ولكنهم بمرور الزمن هم تشددوا وقسوا على أنفسهم وكذلك على الآخرين .

وكان الله سبحانه ناظراً إلى أمرهم بدءاً ونهاية واعدأ إياهم بإرسال المسيح (ع) وبعده محمد (ص) خاتماً للتعاليم والرسالات .

فبعث المسيح عليه السلام ، يصدّم قسوتهم باللين والرحمة ، ويصدّم شركهم وعبادتهم للهيكل من دون الله ، (وقولهم) إن عزيزاً ابن الله أي " عزرا " عندهم ، بالدعوة إلى توحيد الله ونصرة الله . فاستجاب له الحواريون مؤمنين برسالته ونبوته ، منتصرين لله جَلَّتْ عظمته ، واحداً لا شريك له . مما أغاظ الفريسيين ، بعد أن فضح نفاقهم وكأبهم على الدنيا وتزويرهم لأحكام التوراة ، فانتفضوا عليه ، وانتصروا به ليقتلوه ، وقد شرعوا بذلك عن تصور وتصميم . ولكن الله تعالى أنجاه من لؤمهم وحقدهم ورفعهم إليه كما هو محقق في القرآن الكريم .

قال تبارك وتعالى ، مخبراً عن هذه الحقبة بطولها وعرضها بين المسيح (ع) وبني إسرائيل ، ببلاغة هذه الآية واختصارها العجيب ؛ حيث تدعو لنصرة الله والإنصار بتوحيده :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ . سورة الصف الآية 14 } .

فكانت مصداقية الآية الكريمة واضحة تماماً ، حيث غلب الله تعالى المسيحيين على أعدائهم اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح عليه السلام وبأنه النبي الذي وعدهم به الله في التوراة والذي أرسله لينقذهم من الضلالة والغواية والعمى الذي هم فيه . غلب الله المسيحيين على اليهود إلى قيام الساعة .

ولكن اللين والرحمة والوداعة التي أرسل بها المسيح عليه السلام . حولتها الأجيال المسيحية اللاحقة عن مقاصدها الإيجابية ، واستعملتها فيما بعد كغطاء لكثير من المفسد ، ضربت أولاً في أركان الكنيسة وتحت ثياب الكهنوت ، وزعمت الألوهة للمسيح عليه السلام . مما أدخلها في بدعٍ انتجت فيما بعد البروتستانتية التي تحللت من أخلاق المسيح وتعاليمه ، والتي طبعت أميركا بهذه الحضارة الزنديقة التي تحاول اليوم أن تقود بها العالم ظلماً وقهراً وبهمجية أين منها جنكيز وهولاكو وتيمورلنك .

وإضافة إلى البروتستانتية التي أفرزتها حروب طويلة ودامية بين المسيحيين أنفسهم ، فإن المسيحية تفرقت في مذاهب كثيرة يعادي بعضها بعضاً .

وقد جمّدت الحالة الروحية في المسيحية انطلاقاً من قوانين وتشريعات وضعية وتعسفية كانت تصدر عن الكنيسة ويغذيها اليهود ، الذين استطاعوا أن يربوا بعض أولادهم على الإزدواجية بين الدين اليهودي والدين المسيحي ، كاتمين يهوديتهم مزايدين على المسيحيين بتعصب كاذب للمسيحية ، مما جعلهم يتمكنون من بلوغ أعلى الرتب الكهنوتية ، التي توصلوا من خلالها إلى الكرسي البابوي .

وبالحقد اليهودي المتأصل فيهم على المسيح الذي كانوا وما زالوا ينعنونهم بالكذب والدجل وينعتون أمه القديسة مريم عليها السلام كذلك ، طاعنين في شرفها وأخلاقها ، استطاعوا أن يشوهوا الدين المسيحي ، ويضيعوا المسيحيين عن حقيقة الرسالة التي بعث الله بها عيسى بن مريم .

وهكذا استطاعوا أن يمنعوا كل تقدم علمي أو ثقافي أو أخلاقي في القارة الأوروبية كلها ، مما أدخل هذه القارة بجميع دولها ذلك العصر ، في ليل دامس من الجهالة والأمية ، والطبقية ، التي في رأسها السلطة ورجال الكهنوت ، ثم عامة الشعب الرازح تحت وطأة استلاب حقوقه والفقر والضياع .

وقد زاد من تفاقم الأمر في العصور الوسطى هذه التي استمرت بضعة مئات من السنين ، عقوبات الإحراق بالنار ثم بالمقصلة ، ولا سيما للعلماء والباحثين ، ولكل من يجاهر برأي علمي أو تحرري أو نقدي ، وذلك منذ القرن الثاني عشر وما بعده . وقد نص القانون الصادر عن المجمع الديني المنعقد في مدينة (ورون) على أن جزاء الهرطقة الخارجين على الدين هو الإعدام بالمقصلة . ثم جاء البابا جيورجوس التاسع ، ووضع محاكم التفتيش بقوانينها التي تتنافى بقسوتها ورهبتها كلياً مع تعاليم المسيح عليه السلام وذلك في سنة 1233 للميلاد ، وفي هذه القوانين ، أن يحرق بالنار كل من يدان بالإعتقاد بعقيدة تخالف الدين المسيحي ، طبعاً حسب تحريفهم وتشويههم لهذا الدين .

وكانت لهذه المحاكم سلطة واسعة في التحري والتفتيش حتى في البيوت والمدارس ، وكانت عقوباتها الصارمة بانتظار أي طالب يتجرأ على سؤال غير مألوف أو خارج عن القواعد الدينية التي هم وضعوها .

في هذا الوقت كانت تتقدم وتتوسع الحركة العلمية في العالم الإسلامي ، متميزة بحرية البحث والمناقشة حتى لو تعارضت مع مذهب أو رأي ديني ، وحتى في أحلك فترات الحكم في التاريخ الإسلامي كأيام بعض الخلفاء العباسيين .

ولو أن النقد الذي وجهه مثلاً ، الإمام الصادق (ع) وهدم به نظرية بطليموس في الأرض والنجوم وعلم الفلك ، تصدى له باحث من أوروبا في تلك العصور ، لكانت عقابه الإعدام والإحراق بالنار .

وهناك قول سائد ومعروف ، هو أن أسس الحضارة العلمية في الغرب اليوم إنما نقلوها من الشرق الإسلامي وحتى لا نقع في الإسهاب نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، أرجوزة ابن سينا في الطب ، التي نقلت إلى الغرب ، ووضعت لها ترجمة باللاتينية . وقل من لم يحفظ أو يقرأ الترجمة لهذا المرجع بين أطباء الغرب في تلك الفترة .

ومن الشائع الثابت ، أن الإمام الصادق (ع) كان على علم بخواص الأشياء مفردة ومركبة . وأنه درّس علم الكيمياء في مدرسته قبل اثني عشر قرناً ونصف ، وقد اشتهر من

تلامذته في هذا العلم ، هشام بن الحكم المتوفي (199هـ) وله نظرية في جسمية الأعراض كاللون والطعم والرائحة .

ومن تلامذة الإمام الصادق الذين اشتهروا ببراعتهم في الكيمياء والعلوم الطبيعية ، جابر بن حيان الصوفي الطرطوسي الذي ألف ودوّن خمسمائة رسالة من تقارير الإمام (ع) في الكيمياء والطب .

وقد أكبر المؤلفون منزلة جابر ، وعدّوه مفخرة من مفاخر الإسلام ، ولا بدع فإن من تزيد مؤلفاته على ثلاثة آلاف كتاب ورسالة في مختلف العلوم ، انتقلت كلها إلى الغرب أجدير بالتقدير والإكبار .

وصحيح أن هذه الفتوحات العلمية ، نقلت إلى الغرب فشكّلت الأساس للنهضة في أوروبا ، إلا أنها ويا للأسف ، كانت نهضة ، كما نراها اليوم ، مادية مفرغة من روحانية المسيحية وروحانية الإسلام . حيث عمل اليهود وما زالوا يعملون ، بمنتهى الحقد ، ليس فقط على أتباع هذين الدينين ، وإنما الحقد على كل من هو غير يهودي ، وهم - في تقاريراتهم التي أصبحت معلنة - قد وضعوا خططاً لتدمير البشرية حيث ما وجدوا ، لعلمهم جيّدون هم أنفسهم ، ويصبحوا أسياد هذا الكوكب .

ولا يخيفنّ هذا الأمر أحداً من أنصار الله ، لأن الله كتب عليهم الذل والمسكنة ثم السقوط من علوهم الكبير الذي صاروا إليه ، وجعل نهايتهم على أيدي عباد له سبحانه أولي بأس شديد ، وعسى أن يكون ذلك قريباً .

يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض - طبعاً - مروراً بأمريكا .

في جملة ما يدبره الله تعالى من أعالي السماوات إلى جميع الكرات الأرضية على اختلاف أحجامها في الكون ، هذا الكوكب أو الكويكب الصغير ، الذي هو أرضنا ، وفيها القارات الست المعروفة ، وبينها البحار والمحيطات ، التي تشكل حوالي ثلثي مساحتها .

ولن أتحدث الآن عن تدبيره سبحانه لجملة هذا الكويكب ، ومن فوقه أبراج السماء ، والفلك الذي تعبت فيه أرقام وأدمغة الرياضيين والأجهزة العملاقة ، ولا عن تدبير الرزق

وتأمين العدالة والحرية والكفاية ، لوحوش الغابات الهائلة ، والمحيطات البعيدة أغوارها ،
والصحاري المترامية أطرافها ، ولا عن فتحات الأوزون ، أو انشقاقات السماء أو انفطارها
، كما هو خبر القرآن ، ولا عن الغيوم الحرارية ، التي طفقت تذيب القارة الجليدية في
القطب الجنوبي ، لترفع منسوب البحار ، وتغرق أوروبا وصولاً إلى نيويورك وشواطئ
الهند والصين ، ولا حتى عن البشر في القارات الأربع المتعبة ، التي تتلظى وتتكوّى
وتتلوى ، تحت جحيم وطغيان ووحشية إنسان القارة الخامسة أمريكا .

إذن أريد ، بإذنه تبارك وتعالى ، أن أتحدث عن أمريكا .

ولن أتحدث عن كل أمريكا . فنصفها الجنوبي بئس فقير محكوم بخطرسة الشمال .

أريد أن أتحدث عن هذه أمريكا الغنية بالمال والقوة الأخطبوطية ، والتي إسمها
الرسمي : الولايات المتحدة الأميركية . غير متعرض لتاريخها الأسود الدموي ، حيث أن
سكانها اليوم أتوا كباحثين عن الذهب ، فقط عن الذهب ، والبحث عن الذهب يقتضي ولعاً
بالدنيا دون الآخرة ، وبأساً إجرامياً ، لا يوقفه دين ولا إيمان ولا شيم ولا قيم ولا أخلاق .
فذبخوا السكان الأصليين ، الهنود الحمر ، وأقاموا مكانهم حضارتهم الزنديقة . هذا هو
أصل حكام أمريكا وشعوب أمريكا اليوم ، أي أنهم حفّة أولئك المجرمين ، وكما في الحديث
" الأصل دسّاس " أو العرق دسّاس " .

أكتب الآن ، بُعيد تدمير برج التجارة العالمية في نيويورك ، في 11 أيلول 2001
م ، ومع البرجين ، وفي نفس الوقت ، تدمير جانب من البنتاغون - مقر القيادة العسكرية
الأميركية في واشنطن ، عاصمة أميركا .

في هذه الأيام ، أي بعد تدمير هذه الرموز العملاقة في أميركا . أعلنت أميركا
الحرب . مستنفرة حلفها الأطلسي ببوارجه وغواصاته التي تملأ البحار ، وطائراته التي
تغطي مساحات من السماء وبمخزونها ومخزون انكلترا من الرعب النووي والبيولوجي
والكيميائي . وكذلك مخزون روسيا ، وبقية الخزانات التدميرية في العالم ومعها خزان
إسرائيل . لتشن بكل ذلك حرباً على من ؟! - صدّق أو لا تصدق - . ولكن هذه هي الحقيقة
، لتشنّ أو ليشنوا بذلك كله حرباً ضروساً على أضعف وأفقر وأبأس الدول في العالم .

طبعاً ، امتلأت الصحف الحرة ، بالتنديد ، وما أقلها ، وشهرت الأقلام الحرة ، في
وجه عمالقة الحرب هؤلاء ، مهاجمة ومتحدية ، ومناقشة ، ومستغربة . وفي كل سبيل حق
يكتب مفكرون شجعان ، ويتكلم بعالي الصوت قادة وساسة أحرار ، في جميع أجهزة العالم ،
وفي الشعوب الشريفة الحرة ، مظاهرات ، واحتجاجات ، وشهداء في الأنظمة القمعية ،
وكل ذلك . لم يزحزح أميركا عن عدوانيتها ، ولا عدوانية من تقودهم طوعاً أو كرهاً . بل

زادت لتهديد دين الإسلام ، والعرب والمسلمين ، تحت كل كوكب ، ومعها أفعوانان عالميان : في الغرب إنكلترا وفي الشرق إسرائيل .

حقائق إلهية تحكم الوقائع :

طبعاً فيما كتبت آنفاً ، لعلي لم أزد شيئاً ذا أهمية كبيرة على ما يكتب أهل الحق الغاضبون الثائرون ، المستعدون حتى للإستشهاد دفاعاً عن الناس والأوطان والعدالة والحرية .

ولكن بالمنطق الروحاني ، الذي زاغ عنه أهل الأرض في هذا العصر ، إلا القلة النادرة ، أكتب مبشراً أهل الإيمان الأحرار ، الذين لا يشركون بربهم الرحمان شيئاً . ومنذراً عبید الدنيا وعبید أميركا ، الذين نسوا الله ، وألهوا المال ومظاهر القوة حيثما كانت في الأنظمة المتجبرة الطاغوتية وقادتها ، بالرغم من أنهم خونة لربهم ولشعوبهم وللإنسان وحرية وشرفه واستقلاله .

مبشراً أنصار الله ومحبيه والمتحصنين بآياته وبعزته وبقوة وجوده معهم أينما كانوا ، ولو قامت قيامة الحروب عليهم أو على من دونهم ، بأشكالها المتقصة بالرعب والمتلينة بالموت الملوّن . فإن الله قادر أن يحميهم ويحفظهم سالمين سعداء ، حتى في الدنيا ، إذا كان شاء الله استكمال آجالهم ، وإلا فليكونوا شهداء سعداء ، فموتة في شرف ، وفي رضی من الله ورضوان ، أفضل بما لا يقاس ، من حياة الجبناء ، البائعين دينهم وشرفهم وأوطانهم وشعوبهم ، للقادة الطواغيت .

مذكراً بقول الله لأنصاره :

{ .. وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ .. سورة الحديد الآية 4 }

وبقوله جلّت عظمتة للخونة من أعدائه وأعداء دينه وأعداء الإنسانية :

{ .. لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ . سورة الأنبياء الآية 43 }.

وصدق الله ، ومن أصدق من الله قيلاً ، ومن أصدق من الله وعداً ووعداً ! ...

ولأفصّلَ بإذنه عزّت عزّته ، بأية الكرسي وما حولها ، عن أمريكا وبقية أعداء الله . نعم ! .. ومطبقاً آيات القرآن على مصاديقها ، لأنه هكذا القرآن في كل عصر ، وإلى قيام الساعة وبعدها أيام الجحيم أو أيام النعيم .

قلت نعم ! .. متعجباً ومتحدياً الكثرة الهائلة من المثقفين المعوّل عليهم في الملمات ، ممن أحترم أقلامهم النخية ، ونفوسهم الأبية ، ولكن أسفاً لضيق آفاقهم ، بخصوص الفكر الديني والمعارف الحقيقية عن الله ، وعزّته ، وقوته ، وحاكميته وهيمنته على الوجود ، وإحاطته بكل شيء .

إذ أن منهم من لا يعتقد بحاكمية الله في الدنيا ، ولا بثوابه فيها وعقابه ، ولا برعايته وحفظه وصيانيته من جهة ، ولا ببطشه الشديد وانتقامه من جهة ثانية ، ولا بأنه قائم على كل نفس ، ولا بأنه الأول والآخر والظاهر والباطن وأنه بكل شيء عليم ، بكل شيء ، مما دقّ وصغر وكبر وعظم . ومن الأشياء التي شاءها ، أجزاء الإنسان ، من دماغه إلى قلبه ، إلى آخر ذرة أو جزيء ذرة من ذراته ، وبرئيس الولايات المتحدة ورؤساء البلاد المسعورة بشبق الحرب على الأمنين والمستضعفين ، وكذلك بالرؤساء الإمّعات الخونة ، وكذلك بالأتباع الجبناء ، وكذلك بالشجعان بالحق ، وكذلك بالصارخين في وجه الباطل ، وكذلك بالمستشعدين في سبيل عزّته ، أسياد شباب الجنة .

أما الآي ، التي وعدنا بها ، فقله تبارك وتعالى وهو من المشهورات :

- 1 - { **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ..** } يعني الحاكم الفريد للكون دون مساعد ولا شريك ، والألوهة لا تتجزأ ، فلا أحد من خلقه له حظ منها ولا بمقدار . حي لا يموت ، قائم على كل نفس ، وعلى كل شيء .
- 2 - { **.. لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ..** } لاينام ، ولا يعتريه أدنى سهو ولا أدنى غفلة ، ذلك كمال اليقظة والإحاطة بالأمر ، ظواهرها وأسرارها وأسرار أسرارها .
- 3 - { **.. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..** } يعني ما في الوجود ، غيوبه وشهوده ، ما نعلم منه ، وما لم يحط مخلوق بعلمه ، وله أميركا وحاكموها ، وله أدق مقوماتها ، وله إنكلترا وروسيا التي كانت لأميركا ندّة ، ولكن لكثرة ما تنكرت لله ، هزمتها أمريكا وداست شرفها وكرامتها ، وما زالت تتأمر على تجويعها ، إمعاناً في إذلالها . وله أيضاً - أي الله - بنو إسرائيل الذين يتقلبون كالأفاعي ويغتذون بدماء البشر ، واليابان التي خرجت بوثنيتها لتتصر أميركا عدوتها اللدودة سابقاً . والله جميع الدول والشعوب ، ومصر والاردن و .. ولبنان وسوريا ، وفلسطين ...

وأنت وأنا ، الله ، العالم كله الله . هذا بعض معنى هذا الجزء من الآية : { .. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. }.

4 - { .. مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ(*) } .. ولا أحد من المخلوقين يستطيع أن يتوسط لمخلوق آخر بشيء ينفعه عند الله إلا إذا أذن لأحد سبحانه بذلك ، فيكون هو الشفيع سبحانه والمخلوق شفيع بالتبع . فمن رجا أمراً فلا يوسطن بينه وبين الله أحدا ، لأنه ليس بينه وبين مؤمن صادق الإيمان حجاب .

5 - { .. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. } يعلم ما بين ايدي سكان السماوات وسكان الأرضيين من كل جنس ولون ، يعلم نواياهم وخططهم وسلوكهم وماذا سيفعلون ، ومصائرهم ، وكما في السماوات هو إله كذلك في الأرض هو إله . قال تعالى :

{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ . سورة الأنعام الآية 3 } .

وقال سبحانه :

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . سورة الزخرف الآية 84 } .

(*) في كتابنا " دعوة إلى الله " عقدنا فصلاً مسهباً عن موضوع الشفاعة . فمن أراد الإستزادة فليراجع .

6 - { .. وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. } هذه الحضارات وما ظن الإنسان أنه ابتدع فيها ما ابتدع ، منذ الأبجدية الرمزية إلى الصوتية .. إلى جزيئات الذرة ، إلى الأقمار الآلية ، إلى زيارة الكواكب ، إلى أساطيل أميركا وحلفائها ، البحرية منها والجوية ، إلى دبابة الميركافا الإسرائيلية ، إلى الصاروخ الذي هتكها وأذلها بأسرارها وناره ، إلى ما لا يحصى ولا يعد من فتوحات علمية في الأرض وكذلك في السماء ، فجميع ذلك ، وما سيزاد عليه ، هو من علم الله ، ومن أسرار علمه ، ولولا أنه شاءها للبشرية ، لما استطاعت أن تتقدم أنملة هي حِكْمَتُهُ ، وهو قدره وهو قضاؤه الذي لا يناقش .

{ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . الأنبياء 23 }

لا ظالماً ولا مزاجياً ، وإنما جباراً على الجبارين ، حرّاقاً على الحرّاقين ، بناره في الدنيا وبناره في الآخرة ، رحماناً ورحيماً بالمؤمنين الصّديقين .

{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ . الأنعام 18 } .

إذاً .. ما شأن الأفغان ؟ وما شأن طالبان ؟ وقبلهما ما شأن أمريكا عنده سبحانه ؟!

...

بعونه تعالى ، وبارشاده وتسديده ، نبدأ بتقويم شديد الاختصار ، لهذه أمريكا .
فنجعل الحديث عنها تحت ثلاثة عناوين :

1- أميركا في ضلالاتها ، 2- أميركا المقهورة المعذبة ، 3- أميركا الجنكيزية (نسبة إلى جنكيز خان) .

فأولاً :

ضلالات أميركا التي فاقت كل حد ، على جميع المستويات الأخلاقية والإنسانية .
وبلا أخلاقيتها ولا إنسانيتها تحكّمت مدة قرن تقريباً من الزمان بأكثر من نصف العالم ،
حتى إذا ابتلاها الله بإسقاط الإتحاد السوفياتي وجعله من خدمها وأتباعها ، أصبحت تتحكم
بكل العالم ، وأدوات تحكّمها الرهيبة ثلاث : قوة المال ، وقوة السلاح الإرهابي ، وسفالات
المخابرات .

ورغم أن الله سبحانه خزاها في مواقف ومواجهات كثيرة وعلى أيدي شعوب حرة ،
نذكر منها على سبيل التذكير لا الحصر : فيتنام . كوبا . إيران الإسلام ... إلا أنه مع ذلك
أبقاها ، مختارةً ، تمارس إجرامها الأخلاقي الداخلي ، وإرهابها في الخارج . وضمن
هذه المعادلة القرآنية المدهشة ، قوله تعالى :

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا . سورة مريم الآية 75 } .

وقبل أن أتكلّم في الدلالات المشرقة في الآية ، والتي من مصاديقها الأكيدة ، هذه
الأمريكا . أقدم ، بقصة الخزي الأخلاقي السافل والقبيح ، والتي كان بطلها ، رمز أمريكا
ورئيسها آنذاك : بيل كلنتون .

يأنف قلبي ولو من بعض تفاصيل علاقته باليهودية لوينسكي ...

فرمز أمريكا هذا ، ورمز بنات أمريكا تلك ، بعد أن برأت المحاكم العليا الأمريكية ساحتها ، ولقد رضي الشعب الأمريكي بهذه التبرئة ، بل وفرح بها . سيكون هذان الرمزان بعد ذلك وبالضرورة ، قدوة لجميع الأمريكان ، ولا سيما الجيل المراهق ، من ملايين الطلبة شباباً وفتيات : نعم ! لقد شرّع الزنى في أميركا ، وبشخص رمزها ورئيسها ومحاكمها العليا وقضاتها العباقرة ...

ومن المفارقات الملفتة كذلك ، أن هذا الرئيس الرمز لأمريكا ، هو أول من وعد في حملته الانتخابية . بتشريع الشذوذ الجنسي في الجيش الأميركي ، الذي كان ما زال يعتبر - لزوماً - أنظف مؤسسة في الحضارة المتلاطمة في تلك البلاد الغنية الشاسعة . وطبعاً ، فقد وفى بوعده بعد نجاحه ، بالرغم من بعض الاعتراضات الباهتة من بعض القادة .

يومها ، وقبل أن تبرئ ساحتها المحاكم ويبرئ ساحتها الشعب الأمريكي ، وأثناء المحاكمات . كنا نروي لجلسائنا قصة عن المجوس ، واعتبرناها معياراً لموقف الشعب الأميركي من كلينتون ولوينسكي .

ففي الأثر التاريخي ونقلًا عن أئمة أطهار ، جعلت الجزية على أهل الكتاب إذا لم يسلموا ، والسيف أو الإسلام لأهل الشرك . وقد عومل المجوس معاملة أهل الكتاب . فكيف هم أهل كتاب ؟ وأي كتاب ؟ فقيل :

كان لهم كتاب منزل ، فزنى أحد ملوكهم بعد أن خمر ، فتداول بذلك الأقطاب ، وتداول بذلك الشعب فأنكروا عليه ذلك لمقامه ، ولزوم عفته وشهامته ، كونه الرمز والقدوة ، ثم رضوا بفعلة ، وثبتوه في حكمه وملكه . فغضب الله على أمة المجوس بأجمعها ، ورفع الكتاب الذي كان سبحانه أنزله عليهم ، من بين ظهرانيهم . ثم أهلك أمة المجوس ، إلا القليل القليل لحكمةٍ منه سبحانه .

كنا نعقب كل مرة بعد أن نروي هذه القصة ، وقبل إصدار الحكم النهائي من المحاكم ومن الشعب على رئيسهم ، بأنه إذا أدين وعزل ، وإذا أنكر شعبه الكبير فعلته ، أطال الله عمر أميركا ، وأطال ابتلاء الأحرار بحضارتها الزنديقة المعقدة . وإذا برّأته المحاكم وبرّأه شعبه ورضي بفعلة ، فإن الله سبحانه غاضب ومدمم على أمريكا لا محالة

...

والذي حصل ، أنهم رضوا بخيانة رمز أمريكا لربه ولشعبه . وانتظرنا وترقبنا ... ولم يطل الإنتظار والترقب ونحن نشهد كل يوم ، طغيان أميركا وظلمها وقمعها للشعوب من

العراق إلى فلسطين إلى البلقان ، إلى لبنان ، إلى كوريا ... وغيرها وغيرها تحت كل كوكب . حتى هُزَّ انهيار أبراجها وعاصمتها العالم . فقد قصم الله ظهرها في عقر دارها . ولم يدعها الله سبحانه تسترجع أنفاسها ، فقد أرسل جراثيم أبابيل ⁽¹⁾ ، أقضت وما زالت وستبقى ، والله أعلم ، تقض مضاجع رؤسائها وشعبها المتوج بتمثال الحرية ، الحرية الجنسية والطاغوتية وإرهاب الشعوب الفقيرة والبائسة والمستضعفة .

ثانياً : أميركا المقهورة المعذبة :

نعم ، شاهدنا بأم أعيننا ، وبعيون قلوبنا وجراحنا ، في الشرق الأوسط ، وفي أنحاء العالم شهدنا سقوط تمثال الحرية والديمقراطية العفنة ، من عليائه ومن تعاليه ، ليغرق في وحول برج التجارة العالمية في نيويورك وتصدع البنّتاغون في واشنطن ، وزعزعة البيت الأبيض فيها ، وهروب رئيسها منها ، لفترة ، ليعود بعد هروبه إلى عاصمة العالم هذه يهدد منها الأشباح ، تحت وطأة أنهم هم أذلوا أميركا التي كانت يوماً / بزعمها / فوق البشر .

(1) الجمرة الخبيثة .

ومع كل ذلك ، ما اعتبر وما ارعوى ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

أما قوله تبارك وتعالى ، في سياق آية الكرسي التي ما زلنا في ظلالها :

{ .. وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . }

فمعناها أنه سبحانه شمل حكمه الكون جملة وتفصيلاً ، بحيث لا تفوته ذرة في السماوات أو في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهي تحت سلطانه ، لا شيء في الوجود خارج سلطانه .

أما قوله تعالى : { وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا } فمعناه لا يتعبه أدنى تعب حفظ هذا الملك ، وهذه الأكوان ، وهذه الخلائق ، بأصنافها وأخبارها ، ومنها هذا الإنسان ، كل إنسان ، إذا شاء حفظه وكل جزء وجزيء فيه ، طبعاً ويحفظ الدول والأنظمة كلاً ضمن حساباته وحكمته سبحانه . فلماذا إذاً لم يحفظ سيده هذا العالم الأرضي أميركا ؟! ...

قالى تعالى :

{ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . سورة الفجر الآيات (6 - 14) } .

هذا هو الجواب ، ضمن حروف هذه الآيات . فالقرآن الكريم لم يجعله الله سبحانه ليقف أولوا الأبواب فقط عند حروفه . بل ليتعدوا حروفه ، ويقرأوا ما بين حروفه ، ويروا أمريكا هذه ، بعيون هذه الآيات ، وفي عمق دلالاتها ، وأن في جملة مقاصد هذه الآيات في تاريخ البشرية ، هذه أمريكا وأحلافها الذين هم أولياء الطاغوت .

لذلك نقول للمسلمين في أقطار الأرض ، وللعالم أجمع إقرأوا كتاب الله هذا العظيم وتدبروه ، ينجيكم من جحيم الدارين الدنيا والآخرة . وما نزل الله سبحانه ليكون حكراً على المسلمين بل هو للعالمين ، فليقرأوه ، وليفقهوه وليغتتموه قبل أن تدمرهم أمريكا فيمضون خاسرين خائبين غير شهداء .

ومعاً ، لنرى رأي الله تعالى في أمريكا عبر هذه الآيات التي هي أول سورة الفجر .

فأنت لو بدلت في الآيات فقط إسم المكان وإسم الأمة التي ضرب بها المثل ، لوجدت أميركا وإنكلترا وإسرائيل وغيرها يتحركون ضمن حروف الآيات ، ويتحركون وسيتحركون تحت انصباب سوط العذاب ، الذي صبّه الله على عاد إرم وثمود وفرعون ذي الأوتاد .

ثالثاً : حكام أمريكا أم خلفاء جنكيزخان⁽¹⁾ ؟! ...

وفرعون ذي الأوتاد ، أشبه ما يكون به ، بوش الأب ، أو بوش الابن ، أو أي رئيس للولايات المتحدة الأميركية في عصرنا الحاضر .

أما أوتاد فرعون ، فهي ذات مصداقين : الأول أنها أوتاد حقيقية كان يربط بها الذين يعذبهم ويذلهم ويسلب حرياتهم . والمصداق الآخر ، هم الولاة والرؤساء الذين يزرعهم في قطاعات الناس والقبائل ليجبوا له الضرائب ويتحكموا قاهرين بمن تحت أيديهم .

ولم يتغير شيء بالنسبة لأمريكا والطغاة رؤسائها ، سوى أن الدنيا كبرت واتسعت بازدياد أعداد البشر والثورات الصناعية والتكنولوجية وغيرها ، وبدلاً من أن تربط أمريكا أشخاصاً ، فهي قد ربطت شعوباً مستضعفين ، تعذبهم تارة بالسلاح وتارة بالتجويع سارقة أموالهم وثرواتهم ، ودائماً بسلب حرياتهم . وينبهر أشباه الرجال فيهم بحضارتها الزنديقة ..

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، بدلاً من أن تزرع ولاة وزعماء قبائل ، فهي قد زرعت أنظمة ، تارة دموية أفعوانية فاجرة كإسرائيل في الشرق الأوسط ، وتارة أنظمة قمعية كأكثر الأنظمة العربية . وتارة دبلوماسية ميكافيلية رقطاع كإنكلترا في الغرب ، إضافة إلى الأنظمة المخبرانية التي أصبحت جميعها ، في العالم - إلا من تحصن بعزة الله - تابعة ، طوعاً أو كراهية ، لـ C.I.A المركزية في أميركا .

وهل أفاد أميركا كل هذا ؟! أبداً ، لا هي ولا أتباعها ، فجولة الباطل ساعة . وجولة الحق إلى قيام الساعة .

ومن ضمن جولة الحق ، الآيات التي نحن بصدددها .

أما مجمل معانيها الإنطباقية على حضارات اليوم ، فهي أن (عاد إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد) ، كناية عن حضارة عمرانية فاقت جميع الحضارات المادية مما مضى ومما بقي من عمر الزمان على هذا الكوكب . وإذا تشبهها في الجانب العمراني حضارة الغرب في القرن العشرين وما بعده .

وأما حكاية (ثمود الذين جابوا الصخر بالواد) فهي لون حضاري آخر مدهش ، من أمثلته أن أهل تلك الحضارة المادية أيضاً ، استطاعوا أن يقطعوا الصخور الصلبة بسهولة فائقة ، تشهد عليها آثار رائعة من أعاجيب النحت والبناء والأحجار الضخمة جداً والمنقولة من مكان ، ربما بعيد ، إلى آخر . من هذه النماذج المدهشة ، القلعة الموجودة في بعلبك - لبنان .

وأما الحضارة الفرعونية فالكلام عنها كثير ، وهي كذلك كانت حضارة مادية ، وإنما أبرز شيء فيها عند الله عز وجل ، هو ما أبرزه في الآيات الكريمات . هي ظلم الفراعين ، وفسادهم وإفسادهم ، وقد لخص الله عزت عزته ، لخص الحكم وحديثيات الحكم

الذي نفذه فيهم شاملاً لهم في الدنيا والاخرة ، بكلمات باهرات ، قوله تعالى ، بعد أن أدانهم بمادية حضاراتهم :

{ الذين طغوا في البلاد . فاكثروا فيها الفساد . فصَّبَّ عليهم ربك سوط عذاب . إنَّ ربك لبالمرصاد . }

ومن أروع الإختصارات لاتصال العذاب واستمراره ، بين الدنيا والآخرة ، هذا الإعجاز اللغوي **{ فصَّبَّ عليهم ربك سوط عذاب }** ، كناية عن السوط ، أثناء الجلد المبرَّح فيه ، لا ينفك عنهم صاعداً هابطاً دون توقف ، في العذاب الأدنى الدنيوي ، والعذاب الأكبر الأخروي المخدَّد .

أما قوله عز شأنه : **{ إنَّ ربك لبالمرصاد }** فهي أكثر استدعاءً لمنتهى الإعجاب ، فاسمعي يا أميركا ، يارؤساء ويا شعب ويا عالم : إن ربك لبالمرصاد ، يعني حاضر ناظر ، لا يفوته شيء مما تخفون ومما تعلنون ، وهو يمهل ولا يهمل ، وهو الصبور ، وهو الحليم الكريم ، الرحمان الرحيم ، وهو المنتقم الجبار ، الذي إذا غضب لا يقوم له شيء .

وإني لأرى غضبه سبحانه وقد هوى على أميركا ، بادئاً بأبراجها ، رمز عزتها وغطرستها وماديتها ، منتشراً في ساحاتها وأجوائها ، سوط عذابٍ ، لن يفوته أي ظلام أو جبار أو متعطرسٍ ، أو عدو لدين الله وعباد الله فيها ، أو في أوتادها في العالم ، من تابعين وعملاء وجبناء .

ختم لآية الكرسي وما حولها :

بعد آية الكرسي التي كنا في ظللها آنفاً ، ورد مباشرة ، قوله تبارك وتعالى :

{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ سورة البقرة الآية 256 } .

وبعده قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة الآية 257 } .

وقبل أن أتعرض لبعض التفصيل في الآية الكريمة ، أذكر بأننا ما زلنا ضمن العنوانين الفرعيين لكتابنا ، وهما العرفان الذاتي والعرفان العلمي العملي . مفضلين العلمي العملي ، على الذاتي ، خشية الوقوع في الرهبانية في هذا الأخير ، إذ لا رهبانية في الإسلام .

فقله جل شأنه : لا إكراه في الدين ... الآية ، إلفات إلى الأدلة المجملّة في آية الكرسي { الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم .. إلى آخرها } بعد الأدلة والبراهين المفصلة في عموم كتابيه العظيمين : القرآن والكون .

فبعد ثبوت الأدلة على وجود الله ووحانيته وحاكميته وتدبيره للكون جملة وتفصيلاً ، وبعد إنزاله تعاليمه التي هي لإسعاد الإنسان إذا عمل بها ، وإذا تخطى عنها انزلق إلى أودية العذاب . بعد ذلك ، جعل الإنسان مخيراً بنسبة عالية ، تتناسب مع فردانيته سبحانه وعزته وجلاله ، وإحاطته بالكون ظاهره وباطنه وبكل شيء فيه ، ولا يتناهى الكلام عن قدرته وعن أسمائه الحسنى وأمثاله العليا ، ولو ملأنا جوف الكون كتباً نثراً وشعراً عن آياته ، فكيف بالكلام عن ذاته القدسية التي بنورها كانت الأكوان وقامت العوالم .

فإذا خيّر الإنسان بنسبة عالية ، وليس كلياً ، رحمة بالإنسان ، لأن هذا المخلوق ، كجميع خلق الله ، يستحيل عليه أن يقوم وحده لأن أصل قيامه ووجوده ، وحياته ومصيره ، إنما هو بالله سبحانه ، فإذا لجأ إلى الله ألجأه ، وإن تباعد عن الله ، أغراه سبحانه بالرجوع وبرحمته ، فإن أصرّ مستكبراً معانداً هوى في الظلمات كما سنرى في الآيات .

وفي معنى قوله تعالى : { لا إكراه في الدين } .

قوله عز شأنه :

{ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والله غني عن العالمين } .

وهذا الذي ذكرناه يقودنا إلى فهم بقية الآية الكريمة ، قوله تعالى :

{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم } .

لأن ما ذكرناه مستفاد منها ومن عامة تعاليمه سبحانه .

أما الطاغوت ، فقد حكى عنه رسول الله محمد (ص) عندما سئل عن قوله تعالى : { **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت** } قال (ص) : الطاغوت هو كل ما دون الله ، وقوله هذا (ص) يلقي ضوءاً كذلك على مقولته المشهورة : " **أصدق كلمة قالتها العرب ، هي قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل** " .

هذا إجمالاً . أما في شيء من التفصيل والخصوصية ، فكلمة طاغوت ، واضح أنها مشتقة من طغى يطغي ، فهو طاغٍ وهو وهي طاغية . وطاغوت يذكر ويؤنث .

ومن هنا ، عند أهل العرفان العلميين العمليين ، أن أميركا طاغوت ، وحلفاؤها على الباطل ، وأوتادها في العالم ، هم طواغيت ، لأنهم هم كذلك عند الله ﷻ .

وهكذا فـ { **قد تبين الرشد من الغي** } ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم } .

والعروة الوثقى ، هي رباط متين في حبل متين ، تذكرنا بقوله تعالى : { **واعتصموا بحبل الله جميعاً** } . أما قوله تعالى { **لا انفصام لها** } فليحول به دون احتمال أحد ، أن هذا الرباط قد ينقسم ، أي ينقطع ، فإن الإيمان به سبحانه والإعتصام بعزته وبكتابه الذي هو حبل بين السماء والأرض ، هو ضامن سبحانه له أن لا ينقطع فذلك هو حبل الله المتين .

أما قوله { **وهو السميع العليم** } أي لا يفوته شيء من المعاني والأصوات بدرجاتها ولغات الخلق في السماوات والأرض ويعلم السر وأخفى .

وخلاصة القول عن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت ، أو الولاء لله ، والولاء للطاغوت ، هي في الآية التي أسلفنا عنها كلاماً مسهباً في هذا الكتاب . ونريد الآن ، بإذنه تعالى ، أن نطبقها على مصاديقها المعاصرة لنا ولأهل الأرض ، بعد أن انتقم الله من أميركا بأول ضربة تفكيكية لسلطانها وجبروتها وتحكمها بعباد الله المستضعفين ، وذلك بتاريخ 23 جمادي الآخرة 1422 هـ الموافق 11 أيلول 2001 م .

فقوله تبارك وتعالى : { **الله ولي الذين آمنوا** } يعني الذين تستعديهم أميركا وتتهمهم بالإرهاب ، وهم أشرف فئات البشر ، لأنهم ثوار يقاومون ويقاتلون دون حقوقهم ومقدساتهم ، يستثنى منهم فقط الذين يكفرون بالله ، أو يشركون به أحداً سبحانه ، وكذلك كلُّ خوَّار جبان لا يثق بقوة حضور الله ، ولا بحاكميته ، ولا بأنه سبحانه ينصر من ينصره ويخذل من يخذله .

والجبان وإن كان علي درجة من الإيمان ، فهي درجة دنيا ، وإيمانه مخترق : { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . سورة الأحقاف الآية 19 } .

فالمؤمن بشكل عام ، هو الموحد الصديق المصدق بآيات الله ووعدده ووعيده ، وهو المقاوم أعداء الله أينما كانوا ، سواء كان بقلمه أو بمواقفه ، أو بسلاحه ، أو بقلبه وذلك أضعف الإيمان .

فالمؤمنون الذين تستكمل فيهم شرائط الإيمان ، يتولاهم الله تعالى ، برعايته وتسديده وحفظه ، ويدرجهم في مدارج النور ، أي الفهم والعرفان والإسعاد ، ويخصهم بمعرفته ، ويؤهلهم لعبادته ، ويهيئ قلوبهم لإرادته ، ويجتنبهم لمشاهدته ، ويفرغ قلوبهم لحبه ... ذلك من درجات النور ، في معنى قوله تعالى في بقية الآية الكريم { .. يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. } {

وفي مواجهة أمريكا وأحلافها وأتباعها من الطواغيت ، يرزقه إحدى الحسينيين وما أجلَّهُما : النصر على أعداء الله أو الشهادة في سبيله قدس اسمه ، وهل أجلُّ من ذلك وأجمل في مصائر البشر ؟! ...

وأما قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

فالمعادلة المعاصرة النسبية هنا ، هي : أن تكون مع أميركا الطاغوت الأكبر وبقية حلفائها الطواغيت . فإن كنت كذلك ، وأنت في الأصل مؤمن ، فإن الله تعالى يخرجك من نور إيمانك الفطري ، من النور القدسي الذي فيه سعادة الدارين ، إلى الظلمات ، وهي كذلك درجات ، وكل درجة هي لون من العذاب الذي قال الله تعالى في بعض أنواعه :

{ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى . سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا . سورة الأعلى الآيات (9 - 13) } .

أفغانستان بين أميركا وطالبان وقوات التحالف الشمالي :

أفغانستان ، تلك البلاد الجافة ، التي معظمها مناطق جبلية يبلغ بعض ارتفاعاتها فوق 5000 متر . وهي بعد جبال هماليا وقمة أفرست⁽¹⁾ من أعلى جبال العالم . تبلغ مساحتها حوالي : (636،267) كلم^٢ ، وعدد سكانها حوالي : (... 19) ، يحدها من الغرب إيران أي الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، ومن الشرق والجنوب باكستان ، ومن الشمال ما كان يعرف بجمهوريات الاتحاد السوفياتي .

وأفغانستان من أفقر بلاد العالم وأكثرها جدياً وأكثر مناخات العالم قساوة ، ويتميز شعبها على بؤسه ، وربطاً بهذه الطبيعة الصعبة بالشجاعة وطول النفس والصبر على التحمل .

قوانين إلهية تحكم العالم :

وكان الله عز وجل وضع هذا الشعب في هذه البقاع من الأرض وجعل بنيته وتركيبه ، كبنية جبال أفغانستان وتركيبها . وطبيعته كطبيعتها ، ليكون مشغلةً وصخرةً كأداء ، تتحطم عليه القوتين العظميين في الأرض ، الاتحاد السوفياتي وأميركا ، وقد حصل . وتحطمت قرون السوفيات بمساعدة السلاح والخطط الأميركية من جهة ، وبالمال العربي والإسلامي المقدم لأميركا من جهة ثانية ليكون في جملة مكاسبها العظيمة في خسران الاتحاد السوفياتي وخروجه مهزوماً هارباً من أفغانستان .

والآن ، وقعت أميركا في الفخ الإلهي ، وأخذت تنطح هذه الصخرة الأفغانية ، لتتحطم عليها قرونها عاجلاً أو آجلاً ، لا فرق . وإنما ستتتحطم بإذن الله تعالى ، ولعل ذلك ليكون مؤشراً على نهاية أميركا ، كما كان مؤشراً على نهاية الاتحاد السوفياتي كدولة عظمى من الوجود .

وليس معنى هذا ، أن تسلم أفغانستان .

(1) جبال هماليا في شبه القارة الهندية ، وهي سلسلة جبال أعلاها قمة أفرست ويبلغ ارتفاعها 8848 م وهي أعلى قمة في العالم .

فالحقيقة أن هناك معادلات إلهية وقوانين ، تكاد تعجز عن فهمها العقول العادية ، حتى وقد ترفض حيثياتها وتغضب من عرضها والمقارنة بها ، ولكن لا يعجز عن إدراكها أولوا الألباب الذين اختصهم الله بمعرفته ، أو ببعض معرفته واستلهم قوانينه .

وقبل أن أعطي مثلاً أو أكثر عن القوانين التي عنيت ، أنبه إلى عدم جواز المقارنة مع الوقائع التي أؤدي فيها أو ظلم أنبياء الله ورسله في تاريخ البشر ، من قتل بني إسرائيل المزعوم لرسول الله ، وأقول المزعوم ، لأن الخبر يعني أنهم عزموا وصمموا ، فكتب عليهم أنهم قتلوا ، ولو لم يكونوا قد نفذوا فعلاً بشخص أي رسول ، لأن الله سبحانه كان عند شروعه بالتفويض ، يرفع رسوله ، ويشبه لهم بمجرم يستحق القتل فيقتلونه . ومن أصدق من الله قيلاً ، قال سبحانه :

{ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ } . سورة يونس الآية 103 .

وليس في القرآن الكريم أي خبر صريح عن أن أحداً قتل رسولاً لله بشخصه .

وأما القول عن زكريا (ع) أنه اختبأ في جذع شجرة فنشرها بنو إسرائيل بالمنشار فقتل فيها ، وأن ولده يحيى (ع) قتل وقطع رأسه وقدم على صينية إلى يغي من بغايا إسرائيل ، وأن المسيح (ع) قتلوه وعلقوه على الصليب ، وكذلك الكلام عن قتل غيرهم من رسل الله سلام الله عليهم . فكل ذلك هراء ليس فيه أية إشارة في أي نص في القرآن المجيد . وأما نسبة ذلك إلى أحاديث أو روايات ، فهي مردودة بالقرآن الكريم ، وهي إما شبّهات أو إسرائيليات . وخساً بنو إسرائيل يخادعون الله وهو خادعهم .

أما أولياء الله الصديقون الأبرار ، بلى ، فقد ابتلاهم الله تعالى بالشهادة ، فضلاً عن الأذى والظلم الذي يلحق الأنبياء والمرسلين . ابتلاهم وابتلى بهم أعداءه سبحانه ، من كفره وفجرة ومنافقين . وقد جعلهم الله رموزاً للبشرية ، ومنائر يهتدى بها بعد كل رسول من رسل الله ﷺ . وليست فتنة صفيين وما قبلها ، والتحكيم الجائر ، ونزوات المرتدين فيها ببعيدة ، وكذلك ليس ببعيد زلزال كربلاء .

وإنني تمثلت بكل هذا ، لأقول إنه لا يقاس عليه ، لأنَّ في حكمة الله ومقاصده فيه ، دروسه وعبره ، استثناءات عن القواعد العامة التي وعدنا بعرضها ، كمعادلات وقوانين إلهية ، تعني الناس من غير الرسل ، وغير أولياء الله المنتجبين .

أما المعادلات والقوانين التي يتحرك ضمنها البشر عامة فيهلك ضمن مقاصدها وأسرارها من يهلك ، ويصاب من يصاب ، وينجو برحمة من الله من ينجو . فهي كثيرة نذكر منها ثلاثة نماذج ، هي بالضرورة من كتاب الله وكلام الله مجد اسمه .

أولاً قوله تعالى :

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . سورة الأعراف الآية 96 .

وثانياً قوله تعالى :

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } . سورة النحل الآية 112 .

وثالثاً قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ } . سورة فصلت الآيات (30 - 31) .

فأين نذهب بهذه الآيات التي هي تقارير من الله وأحكام ؟ وكيف نتعامل معها ؟ وهل يجوز أن نتجاوزها ونهملها ؟ ونحن إن فعلنا ذلك ، نكون قد خرجنا من دين رب العالمين ، أو على الأقل نكون قد عصيناه ، وحشرنا أنفسنا مع الفساق أو الملاحدة أو المنافقين .

إلا أن في القرآن الكريم سورة البروج ربما ينسحب بعض مضمونها على الفريق الحيادي في أفغانستان ، أي الفريق الذي لم يقع في فتنة الإقتتال الداخلي ، أو فتنة الإئتمار بأمر الطاغوت الأمريكي ، أو فتنة جلب البلاء للإسلام والمسلمين ، بسلوك هو أقرب إلى الإنسان الحجري ، منه إلى انفتاح الإسلام على الأرض والسموات ، وأخلاق الإسلام السامية ، ومقاصده الشريفة النبيلة ، التي يستطيع أن يعيش في ظلالها جميع أهل الأرض ، بحرية حقيقية ، وديمقراطية صادقة ، وكفاية ، بل ورفاه في عيش كريم .

بين حضارة طالبان وحضارة امريكا وحلفائها :

طالبان سَفَّهت الأخلاق الإسلامية ، وجهَّلت العلم ، وخنقت الحرية باسم الإسلام . وشوهت وجه الإسلام الرسالي العجدي العالمي البريء والجميل .

أما أسوأ صورة في أفغانستان ، فهي هذه : أميركا تحلق بأخر وأدهى ما توصل إليه العلم الجهنمي من قاذفات قنابل ، تزن كل واحدة بضعة أطنان ، تزرعها فوق شعب أفغانستان، كما يبذر الفلاح القمح في حقله ، وشتان بين زرع القمح ، وزرع النار التي تذيب حتى الحديد ، في سقوف بيوت الأفغان ، علماً أن أكثر سقوفهم ما زالت من تراب .

وتحت هذه البيوت ، وبينها ، يدفن بين الموت والحياة ، أطفال وأطفال ، ونساء وشيوخ ، لا ذنب لهم إلا أنهم مسلمين . فلا هم من طالبان ، ولا هم من القوات المشتركة أو قوات التحالف الأفغاني ، الذي يزحف تحت غطاء من الجحيم الأمريكي ، ليقتل أفغانيين مسلمين مثله ، وحقد الفريقين الأفغانيين على بعضهما ينهش قلوبهم ، وتكتمل الصورة ، بحقد أعظم ، وسم أنقع ، وغضب ناري شيطاني تصبه أميركا على الأطفال ، وتصرح وتقول : لنلا يكبر هؤلاء ويصبحوا إرهابيين .

أما السورة التي ذكرناها وهي (سورة البروج) ، وأما مضمونها الذي من مصاديقه الفريق الحيادي البريء في أفغانستان وفيه آلاف الأطفال الذين يعانون هم وأهلهم من الجوع والبرد والتشرد والهول والفرع ، وكل ذلك كمقدمات للموت السريع أو البطيء :

فقول الله تبارك وتعالى :

{ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . سورة البروج الآيات (4 - 9) } .

والاخدود ، حفرة كبيرة جمع فيها حطب كثير وأشعلت فيها نار هائلة . وملخص القصة التي وردت عن فحوى الآيات ، أن قوماً من اليهود ، نقموا على قوم من النصارى . فقط لأن هؤلاء النصارى آمنوا بالسيد المسيح عليه السلام وبما جاء به من الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى . فاعتقلوهم جميعاً بما فيهم النساء والأطفال الأبرياء ، وعرضوهم على النار المذكورة ، وخبروهم بين أن يرجعوا عن الدين الجديد الذي دانوا به ، وبين إلقائهم

في تلك النار ، وهذا من البلاءات الكبيرة في تاريخ الإيمان بالله وبوحدانيته ، وقد تكرر مثله في التاريخ السابق ، وما زال يتكرر مثله في التاريخ الحديث والمعاصر ، وهذا نمط مثله واضح فاضح في أفغانستان .

والجدير بالذكر في نتيجة هذه القصة التاريخية ، أن أولئك النصارى ، تحدّوا اليهود بإيمانهم بالله وبرسوله ، وارتضوا بالنار الدنيوية هذه ، التي لا يدوم عذابها إلا لحظات ، هذا إذا كان فيها عذاب ، وإلا فالمرجو ، أن يكون الله جلّت عظمتة ، قد جعلها عليهم كنار إبراهيم ، برداً وسلاماً .

المهم أن هؤلاء المؤمنين ثبتوا على إيمانهم فألقوهم تبعاً في النار مع أطفالهم .

وفي القصة هذه أمر يطيب لنا ذكره ، وليس هو على الله بعزيز ، وهو أن امرأة تحمل رضيعها وهو ابن بضعة شهور ، فأخذتها عليه شفقة ، تكون عادة حتى عند قساة القلوب ، فكيف هي عند أمٍ على فلذة كبدها . فترددت ، وأرادت أن تتراجع عن إيمانها ، فقط حرصاً على وليدها ، واليهود أمامها يتجبرون ويتوعدونها بحرقه معها . فما كان إلا أن نطق الطفل الرضيع : تقدمي يا أمي ، فإن الله سيجعل هذه النار علينا برداً وسلاماً - أو كما قال - فتقدمت ، موقنة برحمة الله ولم تدع لليهود فرصة فتننتها عن دينها .

فقتل أصحاب الأخدود في أفغانستان الذين أشعلوا جحيم النار فيها بين الأرض والسماء ، فقتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ الأمريكان " عليها قعود " مشرفين على الحرب هذه المتوحشة الضارية ، قعود بالدم البارد في عواصمهم وعواصم العالم يديرون حرباً ، تكاد لا تصدق ، بين أقوى وأغنى دول العالم مجتمعة ، وبين هذه الدولة البائسة الفقيرة ، أفغانستان :

{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }

وما نقمت دول العالم المتحالفة على الشر ، والتي تلهب أحقادها وتتلاعب بعقولها دولة الصهاينة وامتداداتها السرطانية في العالم وخاصة في أميركا . وما نقمت دول الشر هذه إلا أن يؤمن الحياديون الأبرياء في أفغانستان وفي غير أفغانستان **{ بالله العزيز الحميد . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }** . الله شهيد على ما يفعلون يسجل عليهم كل حركة وكل نفس ، وكل نية تتبيّت في السر ، أو تفصح من خبثهم في العلانية :

{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . سورة النحل الآية 26 } .

القيامة على الأبواب والناس يرجون النصر من عند غير الله . والله معهم أينما كانوا وهو على كل شيء شهيد .

لمحات عن العالم في ظل الآيات الثلاث :

الآيات التي قلنا إن البشر في تاريخهم إلى قيام الساعة يتحركون ضمن حروفها ، وهذه مقدماتها للتذكير :

1 - ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ... والقذائف والألغام ، طبعاً ليست بركات من السماء والأرض .

2 - وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة ... فكفرت ... فألبسها الله لباس الجوع والخوف ... والقرى والمدن سيّان .

3 - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ، ولا تحزنوا نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا ... يعني إن الذين يقولون ربنا الله ، دون أن يستقيموا ، لا تتنزل عليهم الملائكة ، أي رحمة الله وعونه وبركاته ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

أما الكلام عن القيامة ، وأنها على الأبواب ، فقد عقدنا فصلاً عنها وعن أشراتها المتحركة ، التي يواكب بعضها بعضاً ، والمائلة للعيان ، في كتابنا " العقل الإسلامي " (1) فراجع .

وهذه لمحات سريعة جداً عن العالم ، منذ الإسلام ، بين السلب والإيجاب :

- العهد الميمون لنبوّة محمّد (ص) رسول الإسلام ، لإنقاذ البشرية من جاهليّاتها وظلامها الدامس ، إلى سعادة القلوب المؤمنة الموحدة ، والعقول المستنيرة بنور الله ، النور الذي بنيت به حضارة الإسلام ، حضارة دين رب العالمين .

(1) صدرت منه الطبعة الثانية عن دار الأضواء . بعد أن نفذت الطبعة الأولى .

- عصر ما سمي بعصر الخلفاء الراشدين .
- العصر الأموي ، وبحسبك من سلبياته التاريخية ، أنه انحرف انحرافاً عن الإسلام مروعاً ، إذ كان " ميكافيللي " ⁽¹⁾ . ذلك العصر ومؤسسه معاوية بن أبي سفيان ، ابن هند آكلة الأكباد ⁽²⁾ . ثم ابنه يزيد الذي زلزل التاريخ الإسلامي ، بقتله حفيد رسول الله (ص) وسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي (ع) مع ثلثة من أهله وأصحابه ، في وقعة كربلاء .
- ومن أبرز ما كان في العصر الأموي ، عداة الأمويين وحقدهم على بني عمومته الهاشميين . وهم عشيرة رسول الله محمد (ص) والتنكيل بهم .
- إلا أن بقعة بيضاء في عصر بني أمية ، عبّرت عن حقيقة الإسلام الحضاري ، نسبياً ، أصدق تعبير .
- فقد عرف الشرق والغرب ، في دراستهما للتاريخ الإسلامي ، أن عهد عمر بن عبد العزيز ، أحد الخلفاء الأمويين ، قد أعطى انطباعاً عن الحاكم ، وعن اختياره لجهازه البشري ، بنظام الشورى ، وعن عامة الناس في أيامه ، بأن الإسلام ، وليس غيره ، كنظام إلهي ، يستطيع أن ينعم بظله أهل الأرض ، وهم مكفيون آمنون سعداء .
- ونحن هنا نورد رواية أحد المستشرقين ، عن هذا العهد ، كمراقب موضوعي يهمه معرفة الحقيقة عن الإسلام ، يقول :
- ورث عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وليس في بيت المال ، درهم ، فقد كنسه من كانوا قبله . ومعلوم أنه أصبح على رأس دولة مترامية الأطراف ، لها جيشها وموظفوها ، ومؤسساتها ، فأسقط في يده ، وبادر يستعين بالولاة في الأمصار ، وقد كتب إليهم أن مَدُوننا ما استطعتم بالمال . وهنا وقعت مفارقة عجيبة ، أن الولاة أيضاً وقعوا في حيرة ، فإن مصادر المال الذي كانت توفره الجزية من الكتابيين ، وخصوصاً النصارى ، قد انقطعت ، إذ حباً بسمعة الخليفة العتيد عمر بن عبد العزيز أخذ النصارى يدخلون في دين الله الحنيف ، دين التوحيد ، زرافات ، ووحداً . " فما العمل يا أمير المؤمنين " ؟! ...
-
- (1) " ميكافيللي " هو أحد رؤساء الوزارة في إيطاليا ، ألف كتاب الأمير ، ليكون دليلاً للحاكم ، وكان أبرز ما فيه من مساوئ نظرية " إن الغاية تبرر الوسيلة " وقد اعتمدها فيما بعد جميع قادة الغرب .
- (2) حاولت أن تأكل قطعة من كبد حمزة بن عبد المطلب بعد إستشهاده فما استطاعت إزديادها . وأخذ ذلك الرجل ، الذي أصبح أميراً للمؤمنين ، يفكر في ليل طال عليه ، ثم اتخذ

قراره . ونادى على بعض الكتبة .

فكتبوا رسائل إلى الولاة في أقطار العالم الإسلامي آنذاك ، يعظهم فيها بتقوى الله ، وبحسن التوكل عليه سبحانه ، وبعدم الخوف من الحاجة لأن الله وليهم ... إلا أن أبرز ما في الرسالة ، هذه العبارة :

" تقولون أن أهل الكتاب ⁽¹⁾ ، يدخلون في دين الله زرافات ووحداً وبذلك انقطع مصدر كبير من مصادر المال . فاعلموا أنه ، أن يدخل ذمي واحد في دين الإسلام خير مما طلعت عليه الشمس ، وإنما بعث محمد (ص) هادياً ولم يبعث جابياً ، وإننا حسبنا الله الحي القيوم هو المغني وهو الكافي وهو خير الناصرين ."

ثم بعد ذلك حصل العجب ، فما إن مرت أسابيع حتى تقاطرت الأموال ، فملأت بيت المال . فوطد بها حكمه وأرضى الناس .

ثم كانت المفاجأة الثانية : الخليفة يعلن على الأمصار : ألا من كان بحاجة إلى مال ، فليأتنا ، وله نفقات سفره ، أو فليكتب إلينا نرسل إليه .

ثم كانت المفاجأة الثالثة : أن قلة قليلة جداً ، هي التي طلبت ، وكان المتوقع أن يفد الناس بكثرة فالمال مطغ جذاب . السبب أن الله قد جعل الناس لتقواهم ، وبركة خليفاتهم وولاتهم ، في كفاية ومع الكفاية ، ما هو أهم ، التعفف ، وغنى النفوس بالله ، الذي هو معهم أين ما كانوا ، والذي هو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو خير الرازقين . فهذا هو الإسلام ، وهذا هو الإيمان الحقيقي بالله رب العالمين .

وهكذا ، كانت البلاد ، عهده ، مصاديق للآيات الثلاث ، التي نحن بصدددها ، وذلك في مضامينها الواعدة . ونذكر بأن أول هذه الآيات ، قوله تعالى :

{ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ... }.

(1) نسب خطأ إلى عمر بن عبد العزيز أن برغم إعفائه أهل الكتاب من الجزية إلا أنه وضع عليهم قيوداً تميزهم عن المسلمين . والحقيقة أن هذه القيود إنما وضعها قبلاً الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، فالتبس الأمر على بعض المؤرخين . ولقد دوت بنود هذا الميثاق منسوبة إلى الخليفة الثاني بصيغ مختلفة . انظر ابن عساكر ج 1 ص 178 وما بعدها . و " المستطرف " ج 1 ص 100 وما بعدها .

أما المصاديق الأموية ، للمضامين المتوعدة ، في هذه الآيات الكريمات ، فهي أن سلسلة الخلفاء ، قبل عمر بن عبد العزيز وبعده ، اختاروا خلاف ما اختار ، هو اختار الله ،

وتقوى الله ، وحسن التوكل عليه ، والزهد والورع . وهم اختاروا الأبالسة ، والطعن في نحر الدين ، وأولياء الله الصالحين ، واختاروا الكلب على الدنيا وتقليد ملوك الدنيا وعبيد الدنيا ، والكذب الذي لطَّفوا من إسمه وأسموه دهاء ، واختاروا سفك دماء المؤمنين ، وتقديم الفجار ، وتأخير الأخيار . والله تعالى بالمرصاد ، يجمع عليهم السقطات ، والجرائم والهفوات ...

ثم كان يومهم الذي لا بد منه ، بموجب قوانين الله جلَّت عظمتة : ولكنه يوم أمطر دماءً غزيرات ، أفجعهم في أقطار الأرض وأفجع أبناءهم .

فقد أرسل عليهم ثورة عارمة ، من الذين امتلأوا منهم وجعاً ، وامتلأوا عليهم حقداً . ثار عليهم بنو أعمامهم ، بنو العباس ، فأغرقوهم في برك من دماء .

وأذكر حادثة واحدة ، عن مدى الفتك الذي أوقعه الله بهم . فقد تدخل بعض المعتدلين ممن يستمع إليهم الخليفة الجديد ، أبو العباس ، السَّقَّاح ، وهذا لقبه الرسمي . مدخلاً في روعه ، أن لم يبق من بني أمية ، إلا بضعة مئات ، متخفين عن الأنظار ، هاربين في الأمصار ، وقد وُطِدَ حكمك ، ولا أحد يجروء بعد على المسِّ بملكك . وهؤلاء بنوعمومتك ، فعليك بالرحمة .

فرضي أبو العباس . ودعاهم بعد أن أعلن لهم الأمان ، فخرجوا من مخابئهم ، وأكثرهم كانوا سادة وقادة في بني أمية وفي حكومتهم . وبعد أن استقر بهم المجلس ، وهو في صدر الإيوان . دخل عليهم رجل ، كان منكوباً بهم وبجورهم ، فنفر من هذا المشهد ، وعزَّ عليه ، أن يعود هؤلاء المجرمون ، إلى جوار السلطان وهم الأحق بالعقاب . فجاش صدره ، وحمي أنفه غضباً وارتجل بيتين من الشعر أنشدهما للسَّقَّاح :

لا يغرَّنكَ ما ترى من أناسٍ إنَّ بينَ الضُّلوعِ داءً دويّاً
فارفع السوطَ واشهر السيفَ حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّاً

وما كان أسرع استجابة أبي العباس ، فدعا زبانيته ، فأبادوهم في مقتلة واحدة . وهكذا انتهت دولة بني أمية التي دامت حوالي المائة سنة .

قيل في التاريخ الذي درسناه ، إنه لم ينج من الأمويين ، وهم كانوا ألوفاً مؤلفة ، إلا رجل واحد ، هو عبد الرحمن الداخل ، ولُقِّب بالداخل ، لأنه هرب متنكراً ودخل بلاد الأندلس . حيث أسس فيها مملكة كذلك أموية ، وهي كذلك لم تدم طويلاً .

وهكذا كانت الدولة الأموية بشقيها في التاريخ ، مصداقاً للآيات الثلاث ، ونكتفي بذكر الآية الأولى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } .

فحظُّ فجار الأمويين من الآية قسمها الأخير ، إذ أنهم كذبوا فأخذهم الله بما كانوا يكسبون .

وقبل أن نودعهم ، نذكر بعض سجاياهم متمثلة بالوليد بن عبد الملك :

سكر ذات يوم ، وتناول القرآن واستفتح ، كفعل أهل الورع ، فإذا في رأس الصفحة ، قوله تعالى : { وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } . فبدلاً من أن يفزع ويستغفر ، ويُقلع عن خمره تائباً توبة نصوحاً . استشاط غضباً ، وممن ؟! ... ونصب القرآن على شجرة في حديقة قصره ، وأخذ يرميه بالسهم ، ويقول وقد جاشت شاعرية الشيطان فيه :

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ فقل يا رب مرّقني الوليد

ولنطمنئ إلى الجواب على هذا السؤال ؛ لماذا أذن الله تعالى بتلطيخ القرى في أبهة العصر الأموي بالدم ؟! نقول لأن الناس على دين ملوكهم . فقد أخذ المجتمع يفسد بفساد الخلفاء ، فيبيع الناس ويشترون بالمال حتى النساء وحتى بعض الصحابة ، فقد اشترى معاوية جعدة بنت الأشعث الكندي بـ ١٠٠٠٠ درهم ، بأنه إن سميت زوجها الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) زوجها من يزيد ، واشترى بـ ١٠٠٠٠ درهم الصحابي سمرة بن جندب فحدث كاذباً لمصلحة معاوية عن رسول الله (ص) ، واشترى من سمم مالك الأشتر النخعي وهو في طريقه ليكون والياً على مصر ، وقال معاوية قولته المشهورة " إن لله جنوداً من عسل " .

ولا تنتهي جرائم معاوية مؤسس الدولة الأموية . أما الأحرار والعلماء الأصيلين فقد قمعوا قمعاً شديداً .

وأورث معاوية يزيداً ابنه الخلافة ، وهو الأشقى في التاريخ الإسلامي ، حيث أنه أول ما دعم ملكه بأفطع جريمة كذلك في التاريخ الإسلامي ، وهي مقتل الحسين بن علي (ع) وأصحابه ، في وقعة كربلاء ، وكان يزيد أول من عاقر الخمر وشهد مجالس الطرب وربى الكلاب والقردة في الإسلام .

ولنطمئن كذلك أكثر ، إلى فاعلية الآيات الثلاث ، نضيف كذلك خبراً عن الوليد إياه ، حيث سهر مع جارية له حتى الفجر وغداً مخموراً مما شرب ، وأذن المؤذن للصلاة ، وكان هو يؤم المصلين ، فقالت له قم وصل بالناس . فقال لها ، لا ، وخلع عمامته وألبسها إياها وقال قومي أنت صلي بهم .

وهذه لمحات عن العصر العباسي وأمبراطوريته ..

وسننظر إلى هذه الدولة ، مقومين فيها ما يسمى بالحضارة الإسلامية ، بقطع النظر عن المناقشات المذهبية ، وعن أحقية من كان يجب أن يخلف رسول الله محمداً (ص) في التاريخ ، وهو بحث طويل يبدأ بفتنة السقيفة ولا ينتهي إلى قيام الساعة . ونحن هنا إنما نحاول أن نقدّم الإسلام باختصار وبدون تعقيد ، بإيجابياته كحضارة ورسالة هي في الأصل لإنقاذ العالم والبشرية جمعاء ، وبسلبيات الذين حالوا دون تألقه وانتشاره ، أو أخفقوا بإدارته ، فيما مضى من مراحل تاريخه . ونحاول أن نتمشى في كل ذلك - وهذا هو المهم - بين الآيات الثلاث التي ما زلنا بصددها . وبقيناً إننا ، والناس ، بأمس الحاجة لهذا الأسلوب الجديد من العرفان العملي .

نعم خلال أكثر من سبعمائة سنة تقريباً ، قامت حضارة في العصر العباسي ، إسلامية ، انفتحت على بقية الحضارات المعروفة ، وتلاقحت معها ، وأنتجت مدنية خلّابة ، ما زال يشهد لها الغرب قبل الشرق .

وقد برّزت هذه الحضارة ، جميع الحضارات المعروفة المعاصرة لها ، وتفوقت عليها ، وكان أبرزها الفارسية والرومانية وقبلها الحضارة الإغريقية .

وإنما كان سبب تفوقها وتألقها ، علمياً واقتصادياً واجتماعياً وقوة عسكرية ، استكملت بها الفتوحات ، حتى بلغت أرمينيا وأذربيجان وطشقند ، بعد آسيا الصغرى ، وغيرها مما كان يعرف بجمهوريةات الإتحاد السوفياتي في عصرنا هذا ، واصله إلى الصين شرقاً . مؤسسة في الغرب حضارة هي أفخم ما عرفه التاريخ الإنساني ، وأجمل ما عرفته الحضارات ، هي الحضارة الأندلسية .

نعم ، كان سبب تفوق الحضارة الإسلامية في عصر بني العباس ، أنها كانت ذات مفهومين ، أو نهجين متعارضين ، عمّر أحدهما وثبت ، بمعارضة النهج الآخر وبالخشية من إثاراته : النهج الأول هو النهج السلطوي الديني ، الأخذ بأسباب الملك والقوة ، وبسط

النفوذ ، حتى على أقوى إمبراطورية⁽¹⁾ كانت ما زالت قائمة واسعة النفوذ ، فخلخل أركانها باسم الإسلام . أخذاً من الإسلام شكلياته يتزين بها ، وينفلت في نفس الوقت على الخمر والرفاه وكثير من المنكرات .

أما النهج الآخر ، فهو النهج الروحاني ، المعارض انتصاراً لله ولدين الله ، الرافع لواء الرسالة وتعاليمها العالمية المنجية ، ويتمثل هذا النهج ، بآل بيت النبي (ص) ، والمؤمنين الأبرار ، المتميزين في التاريخ بثورتهم ، وبطاعتهم للعلماء المستنيرين .

ويبدو أن اختيار الله جلّت قدرته ، وهو الذي { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ .. سورة السجدة الآية 5 } يبدو أن اختياره لأئمة الدين - عبر التاريخ - ليكونوا فقط ثواراً ، و فقط معارضين ، ليصححوا دائماً المسارات الفاسدة ، والتحويلات الخطيرة عن الإسلام ، والحقيقة ، نقولها لوجه الله ، أن الإسلام قد صانه الله تعالى من الزوال ، بهؤلاء وبجميع أولياء الله العرفانيين العاملين ، الذين اجتباهم في التاريخ .

لذلك ، تجلّت الحضارة الإسلامية ، واصلت إلى الأوج ، بمقياس تلك الأيام ، تجلّت بأبهة الملك وفتوحاته وانتصاراته وحركته العمرانية والإقتصادية من جانب ، ومن الجانب الآخر الديني ، بالمدارس الجامعية ، لأولياء الله الصالحين والعلماء الأعلام .

فهذا العالم الأميركي سارثون⁽²⁾ في عرضه لتاريخ العلوم وذكره لمآثر العرب والمسلمين في ميدان العلوم الإجتماعية وغيرها في ذلك العصر يقول⁽³⁾ : " إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني حمل أعباءه المسلمون . فالفارابي أعظم الفلاسفة

(1) هي الإمبراطورية الرومانية التي كانت تحكم من عاصمتها بيزنطة أكثر بلاد المشرق .
(2) + (3) أنظر تاريخ العرب . د. فيليب حتي . و د. إدوارد جرجي . و د. جبرائيل جبور .

كان مسلماً وأبو كامل⁽¹⁾ وإبراهيم ابن سنان⁽²⁾ أعظم علماء الرياضيات كانا مسلمين والمسعودي أعظم رجال الجغرافيا والموسوعات كان مسلماً وكذلك قل في الطبري أعظم المؤرخين .

ومعلوم أن الأئمة الأبرار ، وكذلك أتباعهم ، قد عزفوا عن الملك وعن السلطان ، وحتى عن التقرب إلى السلطان ، إلا إذا اضطر أحدهم - أي الأئمة وشيعتهم - لذلك مكرهاً

بضغط من السلطان ذاته . وقد تفرغوا للعلم والتعليم بجميع مستوياته ، فلقد عرفت تلك الحضارة من خلالهم ما لم يكن يعرفه العالم من قبل . مثل العرفان الإلهي إنطلاقاً من القرآن الكريم . ثم الفلك والرياضيات بأنواعها الأصلية ، والكيمياء والفيزياء ، وغير ذلك من المباحث العميقة التي لم تعرف تقريباً إلا في العصر الحديث ، مثل حقيقة المكان والزمان وتركيب الهواء ، ومعرفة بعض الغازات ، مثل الأوكسجين ، علماً أن أول من اكتشف الأوكسجين وتحدث عنه كبداية ، هو لافوازييه بعد أكثر من ألف سنة .

-
- (1) شجاع ابن أسلم المصري الذي نقح في أوائل القرن العاشر كتاب الجبر " للخوارزمي " .
(2) حفيد ثابت بن قرة أما طريقته لتربيع الشكل المخروطي فكانت أيسر الطرق قبل اختراع حساب التمام والتفاضل .

انتهى
بفضل من الله تبارك وتعالى

له الحمد وله الشكر كما حمد نفسه
وكما شكر نفسه وكما ينبغي لكرم
وجهه

صدر للمؤلف

- * العقل الإسلامي طبعة أولى 1993 طبعة ثانية 2002 .
- * يا نور النور - أبيات لازوردية (شعر) .
- * دعوة إلى الله .
- * النُّهر (شعر) .
- * الحكمة الإسلامية .
(بحوث من مقتضيات العصر)
- * مفتاح المعرفة (للدخول إلى عالم العرفان الإسلامي)
الجزء الأول .
- * مفتاح المعرفة وفيه (شطحات أهل العرفان)
الجزء الثاني .
- * جداول النور (شعر) .